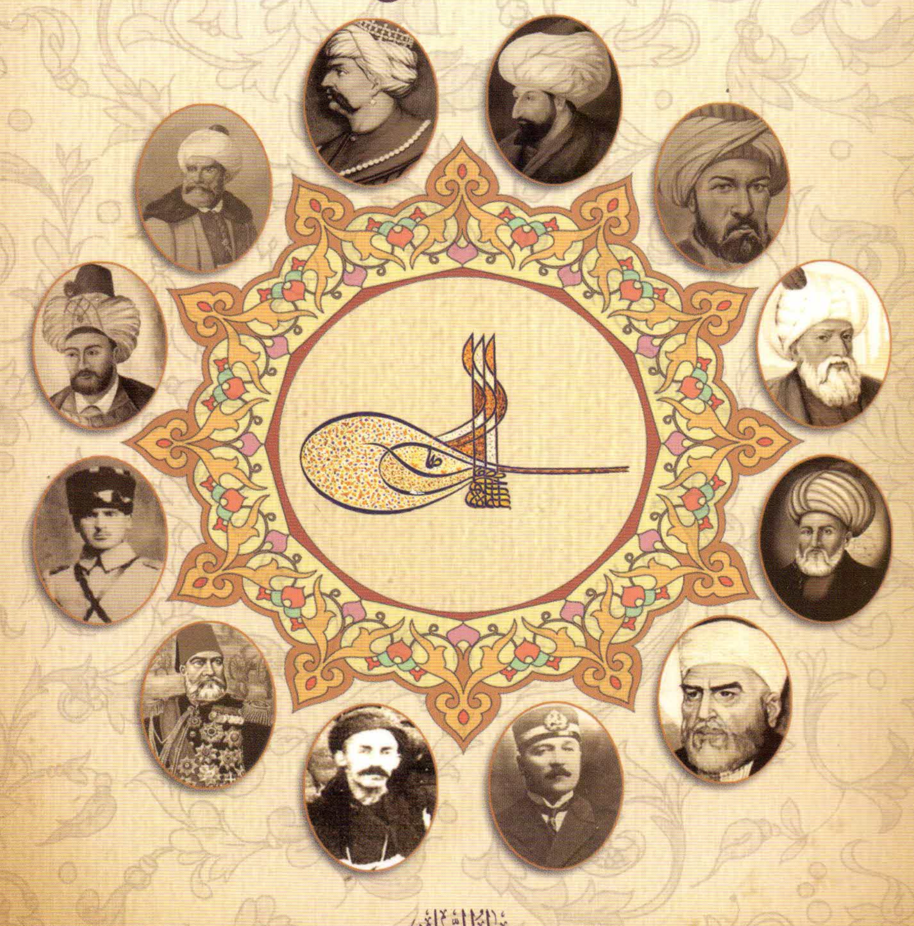
بصمات خالدة
في التاريخ العثماني

جانْ أَلْبجوونْج



دار النيل

بصماتٌ خالِدة

في التاريخ العثماني

هذا الكتاب يتحدّثُ عن بعض الشخصيّات العثمانيّة الفريدة، ويتناول حياتهم وبصماتهم الخالدة بأسلوبٍ تاريخيٍّ وأدبيٍّ ممتع.

وإننا حينما نتحدّثُ عن مثل أولئك الأبطال؛ لا نوفّيهم كامل حقّهم من المجد والسؤدُد، فنحن لا نستطيعُ أن نختصرَ مسيرتَهم في صفحاتٍ، أو نعبّرَ عن عَظمَتِهم بكلمات، وإنّما هي محاولةُ لِسَقْيِ بذور المستقبل الواعدِ برشفةٍ من ذلك الفرات.

فلقد رفعوا رايةَ الحقّ عاليةً خفّاقةً، واستعذبوا في سبيلها بذلَ الأرواح والمُهَجِ والدماء، فكانوا بحقٍّ رموزًا للتضحيةِ ونبعًا للفداء.

جازوا المستحيل وذلّلوا الصِّعاب، خرطُوا القتادَ ومخَروا العبابَ، ونسجوا من خيوط همّتهم أثوابَ العزّة والرفعة والشموخ، فانفجرَ تاريخُهم بالمجدِ والعَجَبِ العُجابِ.

ويا لَعَمْرِي لو أنّ الأحفادَ يرتدون من أثوابِ الرُّقِيِّ ما نسجَ الأجداد، أو أنّهم ينتهجون في مناحي حياتهم ما خلّفه لنا تراثُهم من أمجادٍ.

ولقد صدقَ الفرزدقُ إذ يقول:

أولـئك آبائي فَجِئْني بِمثلِهم

إذا جمعَتْنَا يا جريرُ المجامِعُ


ISBN 978-977-618-337-7



بصمات خالدة

في التاريخ العثماني



بصمات خالدة

في التاريخ العثماني

تحرير

يوكسل جلبنار

مراجعة

خالد جمال عبد الناصر - محمد عبد الغني لاشين

تصحيح

سليمان أحمد شيخ سليمان

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6183-37-7

رقم النشر

1015

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: info@daralnile.com

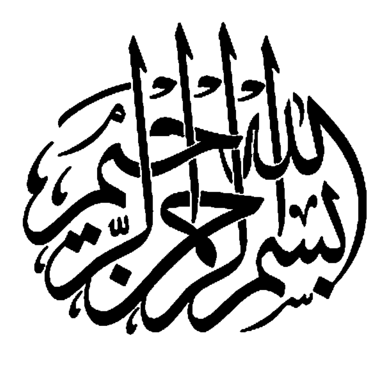
www.daralnile.com

القاهرة - 2015م

بصمات خالدة
في التاريخ العثماني

تأليف
جَانْ أَلْبجُوَنْج
(Can Alpgüvenç)

ترجمة
د. عبير الشناوي


بسم الله الرحمن الرحيم

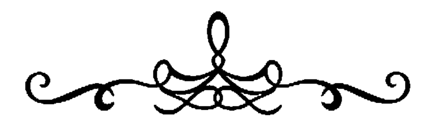
فهرس

سيرة ذاتية للمؤلف

ولـد جَـانْ أَلْبجُوَنْـج (*Can Alpgüvenç*) فـي إسـطنبول عام (١٩٥٤م)، وتخرج في كلية الاقتصاد بجامعة إسـطنبول، عمل في إدارة إحـدى الصحف القومية بيـن عامي (١٩٧٠ و١٩٨٤م)، بعد ذلك عمل رئيسًا للتحرير في العديد من المجلات كان في مقدمتها "مجلـة سـور"، وقدم العديد مـن البرامج الإذاعيـة والتليفيزيونية، وفـي الوقـت الحالي يتابع الكاتب أبحاثـه التاريخية، وهو متزوّج ولديه ابنة واحدة.

هنـاك العديـد من الأعمال التاريخية المنشـورة لهذا الكاتب، وهذه طائفة من أسماء تلك الكتب:

- السلطانتان خرم ومهرماه "قرينة القانوني وسليلته" نشرته "دار النيل" باللغة العربية.
- موت فرعون
- السلطانات المتسابقات في الخيرات
- من أعلام العثمانيين
- السلطان عبد العزيز والباشاوات المتمردون
- العدالة الصامتة
- البستان وروضة الورود
- إسطنبول العثمانية وآثارها



مقدمة

كلّما ازدادت الأمة تعمُّقًا في سَبْرِ تاريخها واستقراءِ ماضيها؛ ازدادت معرفتها بقدراتها وإمكانياتها، لأنّ الدينَ واللغةَ والعادات والتقاليد والثقافة والحضارة والمفاخر والأمجاد محفورةٌ في ذهن التاريخ، مكنونةٌ في الماضي من الأيام، والأمّة التي تنفصلُ عن تاريخها محكوم عليها بالعدم والفناء.

فلو أرادت أمّةٌ أن تعودَ إلى مجدِها الغابِرِ فما عليها سوى فحصِ تاريخِها واستكشافِهِ بدقّةٍ وعنايةٍ كما يفحصُ الصائغُ سبيكةَ الذهب، وأن تبني مستقبلَها بما يتوافقُ مع معطَياتِ تاريخها الذهبيّ القديم.

إنَّ مقولةَ: "ماذا أجني من دراسة التاريخ، مع أنه لا يعلِّمُنا أشياء جديدة، وإنما يمدّنا بمعلومات عن الحضارات أو الأحداث التي وقعت قديمًا فقط؟!" مقولةٌ سطحيَّةٌ خاطئةٌ؛ لأنَّ اليومَ ما هو إلّا امتدادٌ للأمس، فاليومُ الذي نهتمُّ به ونسمِّيه يومًا، غدًا سيُصبح أمسًا.

إنَّ كلّ أمّةٍ من الأمم تحملُ في أعماق أفرادها -سواء وعت هذا أو لم تعيه- آثارَ ما عاشته وعاصَرَتْهُ على مرّ السنين وتعاقُبِ القرون من أفراحٍ وأتراحٍ وأحداثٍ حلوةٍ ومرّة، فلو أننا استعَدْنا تاريخنا واسترجعناه، وسَبَرْنا أغوارَه واستقرأناه -بما في ذلك الأوضاع المحلّيّة والثقافيّة والظروف الاقتصاديّة والاجتماعية ومستوى الثقافة والحضارة- لاستخْلَصْنَا العِبرَ والعِظات الكافية والكفيلةَ بإنارةِ المستقبلِ وإعادة إحياءِ الأمجاد في أجيالنا من جديد.

إنَّ الأمم التي تنتهج لنفسها الفكر الحُرَّ، تصنَعُ الأبطالَ وتُخَلِّدُ الأمجاد وتبني الحضارة، وهذا ما يضمنُ استمراريّة وتعزيزَ المشاعر الوطنيّة العالية لدى أجيالها القادمة.

لو ألقينا نظرةً سريعةً إلى الحقبةِ الزمنيّةِ العثمانيّة؛ لرأينا من الأبطالِ والأفذاذِ ومن الأحداثِ والوقائع ما قد لا نجِدُه في أيّ حضارةٍ أخرى، ولوجدنا من الشخصيّات والأحداثِ ما يكفي لغرسِ الروحِ الوطنيّة في نفوس الأجيال المتعاقبةِ من الشباب، بل إنّنا نستطيع أن نعثر على نماذج كثيرةٍ، تُمكّننا من تجاوز مِحَن كثيرة، ونوازلَ كثيرةٍ تعصِف بالبلاد.

في هذه الدِّراسة سنتطرّق للوقائع التاريخيَّة المهمَّة، وسنجتهد في تقديم نُبذ من حياة بعض الأبطال العِظام في التاريخ العثماني، ونسعى لإثراء العقول النَّضِرَةِ من الشباب، وسنمدُّ لهم يدَ العَون في تكوينِ مستقبلِهم؛ وذلك بتمكينهم من استخراج العِبر من التاريخ العثماني.

اجتهَدْنا في هذه الدراسة -بما يتناسَبُ مع حجم الكتاب- في عرْضِ صورٍ من حياة ثلاثة عشر بطلًا، وعرض نُبَذٍ من سلوكيّاتهم وأفعالهم؛

وهدفُنا من ذلك أن يتشرَّب شبابنا الوَعْي التاريخيَّ؛ لأنَّ الأمَّةَ التي تجهلُ تاريخَها وتستغني عن معرفةِ ماضيها، هي أمَّةٌ تنحدر نحو الهاوية المحقّقة.

إنَّنا نهدُف إلى مدِّ جسـرٍ من الودِّ للأجداد، وتنشـئةِ أجيالٍ جديرةٍ بأن تكون أحفادًا لهم.

مع تحيَّات

جَانْ أَلْبجُوَنْج

فبراير/شباط ٢٠٠٨م - (إسطنبول)



قائدٌ هُمَامٌ مقدامٌ قرّر فقال :

"إمّا أن أفتحَ القسطنطينيّةَ أو أهلِك دونها"

وقالَ أيضًا :

"سيبلغ سلطاني إلى ما لا يبلغه خيالكم"

إنَّه الحاكم التقيُّ الذي ضمَّ إسطنبول إلى الخلافةِ الإسلاميّةِ فتحقّقت فيه بشرى الحديث الشريف :

"لتُفتحنَّ القسطنطينيَّة، فلَنِعْم الأميرُ أميرُها،

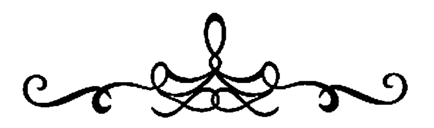
ولنعم الجيشُ ذلك الجيش"

إنه القويّ الأمين الذي أراد أن يوحّد العالم كلّه تحت قيادةٍ واحدة..

إنه الشاعرُ الماهر والأديب الأريب والمثقَّف والمحاور.

إنه السلطان محمد الفاتح





السلطان محمد الفاتح

فاتحُ عروسِ المدائن

"إسـطنبول" مثـالُ المدينةِ الجميلـة، إنها لَتمتاز عن غيرهـا بامتيازاتٍ كثيرة؛ فهي جسـرٌ بيـن القارّات، ونقطة اتصال تجاريـة لثلاثة بحار كبيرة، وهـي أكثـر مدينة في العالـم نُظمت بحقّها الأشـعار، وغنِّيـت فيها أغانٍ، وصدَحـت فـي فضائها الألحان، إنَّها المدينة التي حاولت السـيطرة عليها دُوَلٌ لا تُعدُّ ولا تُحصى.

لهذه الخصائص وغيرها لا تُوصَف إسـطنبول بأنَّها مدينة تقليدية، أو بأنهـا مدينة كبيرة جدًّا، بل هي على حـدِّ قول "توينبي (*Toynbee*)": "مدينة عالم المسـتقبل"، فالحضـارة والثقافة الإغريقيَّة إلى جانـب الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّـة والبِيزنطيَّة ومعهـم الدولة العثمانية كلُّهم تطلعوا إلى إسـطنبول على أنَّها قُرَّة العين وسَمَّوها: أمَّ المدائن[1].

قال عنها القائد الفرنسيُّ الشهير الإمبراطور "نابليون بونابرت":

"لو أنَّ الدنيا دولة واحدة فقط، لكان ينبغي أن تكون عاصمتها إسطنبول؛ لأنَّ من يحكم إسطنبول يحكم العالم".

---

(١) خالوق دورسونفن، فن الحياة في إسطنبول، إسطنبول ١٩٩٩م، ص ١٨.

وقد شُـيِّدت إسـطنبول في الحادي عشـر من مايو/أيّار عام (٣٣٠م)، وكانـت مَطْمعًا للغزاة على مدار التاريخ، وتعرَّضت للحصار من قِبل أمم شـتّى، وفـي عهد الخليفـة الثالث سـيدنا "عثمان بن عفـان" ﷺ حاصرها المسـلمون أول مـرّة عـام (٦٣٢هـ) بقيادة "معاويـة" ﷺ والي الشـام، ثمَّ حاصرها "سفيان بن عوف"، إلا أن جميـع تلك المحاولات باءت بالفشل، ثم توالت عليها ستُّ حملات متفرِّقة في أوقات مختلفة.

أمَّا عن إسـطنبول فـي العهد العثماني، فإنَّ "يلدريـم بايزيد" حاصرَها مرَّتين، وكانت المرَّة الثانية بعد حرب "نيغبولي"[٢] عام (١٣٩٦م)، لكنَّه لم يتمكَّن من فتحها، ثمَّ حاول "موسـى شـلبي" فتحَها، وتلاه السلطان "مراد الثاني" عام (١٤٢٢م)، ولم يتمكَّنا من فتحها أيضًا.

بشارة عظيمة

عندمـا زار "أدرنـه" صوفيُّ العصر الكبيرُ "الحاج بيرام ولي"، اسـتقبله السلطان "مراد الثاني" وطلب منه قائلًا:

"يا شيخي أريدُ فتحَ القسطنطينية؛ فقد حاول جدَّاي السلطانُ بايزيد وموسـى شـلبي فتحهـا، إلا أنَّهما لـم يُوفَّقا فـي ذلك، وأنا كذلـك؛ إنَّ القسـطنطينية مهمَّـةٌ جدًّا لنا، فـادع الله أن يكون الفتح على أيدينا.

وردّ "الحاج بيرام ولي" على السلطان قائلًا:

(٢) هي معركة جرت بين العثمانيين و عدد من الدول الأوروبية بقيادة "سيجموند" ملك المجر في عام (١٣٩٦م) بعد أن قطع نهر الدانوب و حاصر "نيغبولو" و كان العثمانيون بقيادة السلطان "بايزيد الأول"، وفاز الجيش العثماني بهذه المعركة.

"مولاي السـلطان، إنَّك لن تفتح هـذه المدينة، وأنا أيضًا لن أشـهد ذلك اليوم؛ لأنَّ الفتح سـيكون من نصيب هذا الأمير الذي لا يزال في المهد ومعه شيخُه "كوسة"(٣)".

وأشار الشيخ بذلك إلى الأمير "محمد شلبي" و"آق شمس الدين".

وفي السـنوات التالية نرى أن السـلطان مراد وهو يُشـجّع ابنه الأمير محمّد يقول له:

"يا محمد، ستفتح القُسطنطينيّة مع الشيخ أق شمس الدين بإذن الله تعالى"(٤).

إنك فاتح "إسطنبول"

السـلطان "محمد الفاتح" هو السـلطان السـابع للدولة العثمانيَّة، وُلد فـي يوم الثلاثين من مارس/آذار عام (١٤٣٢م) بمدينة "أدرنه"، وهو الابن الرابع للسلطان مُراد، وأمُّه تُدعى "هوما خاتون"، ولِيَ مدينة "مانيسا" وهو في الحادية عشرة من عمره.

وذات ليلة بينما كان الأمير محمد يتلقى العِلْمَ عن شـيخه آق شـمس الديـن، إذ دخـل عليهما رسـولٌ يخبرهما بأنَّ الجيـش الصَّليبي قد اقتحم قِلاع "عكًا" و"صيدا" و"بيروت"، وأسروا آلاف المسلمات وأخذوهنّ إلى ديارهم، فحَزِن الأمير محمد لِما سـمـع من سـقوط المدن المذكورة رغم أنَّهـا بحـوزة المماليك، وبكى طويلًا في سـكون الليل، وكان آق شـمس الدين يواسي تلميذه قائلًا:

(٣) كوسة: أساس هذه الكلمة تعني بالتركية: الرجلَ الأمرد، لكنّها أُطلِقت هنا لقبًا على الشـيخ " آق شمـس الدين" شيخ السلطان "محمد الفاتح".

(٤) سهيل أونور، رسائل إسطنبول، إسطنبول عام ١٩٩٥م المجلد الثاني ص ١٥٢.

"لا تحزن يا أميري؛ فإنَّك ستَفتح إسطنبول يومًا ما، فاعدل بين المجاهدين يوم النصر".

ثم نزع الشيخ عمامتَه، ووضعها على رأسِ الأمير الصغير، وبشَّره بفتح إسطنبول، وقرأ عليه الأحاديث الواردة في الفتح، وكان يواسيه قائلًا: ﴿لكلِّ أجل كتاب﴾[٥].

وهكذا رسخت فكرة فتح إسطنبول في ذهن محمد الفاتح منذ ذلك الحين[٦].

فكَّر السلطان مراد في التَّنازل عن الحكم؛ فأحضر ابنه من "مانيسا (*Manisa*)" عام (١٤٤٤م) بعد عام واحد من توليه لها، فترك له العرش، وذهب إلى "بورصة"، إلا أنَّ التَّنازل عن السلطة لأمير في الثانية عشرة من عمره بلا تجربة أدَّى إلى حدوث أَزَمات كبيرة داخل البلاد وخارجها؛ فعاد السلطان مراد للحكم مرَّة أخرى، وأُرسل السلطان الشاب مرَّة أخرى إلى "مانيسا" بعد أن حكم البلاد عامين.

وإبَّان وفاة والده تولَّى السلطان محمد العرش للمرَّة الثانية في الثامن عشر من فبراير/شباط عام (١٤٥١م)، وكان عمره آنذاك تسعة عشر عامًا، وفي تلك السنوات تحسَّن وضع البلاد السياسي، وكُسرت شوكة أوروبَّا وأصبح من الصعب عليهم القيام بأيِّ حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ ضد العثمانيين، وأصبحت الفُرْصة سانحة لفتح إسطنبول.

عروس المدائن

عندما استقرت أوضاع الدولة العثمانيَّة استقرارًا تامًّا في "آسيا"،

(٥) سورة الرعد ١٣/٣٨.

(٦) أونور، المصدر السابق، المجلد الثاني ص ١٥١.

كانـت حدودهـا قد امتدَّت فـي أوروبَّا إلى نهر الدانوب، وكان الاسـتيلاء علـى المضائـق لا بُدَّ منـه لربط أراضيها في القارتيـن؛ فالنَّصر في حروب الأناضول سـيبقى مرهونًا بعبور جيش الروملي[٧] إلى الأناضول، أو عبور جيش الأناضول إلى الروملي.

وكانـت الإمبراطوريَّـة البيزنطيَّة في إسـطنبول عقبةً أمـام العثمانيِّين؛ فهـي تتظاهـر بالودِّ معهم من ناحيـة وتحرِّض أوروبَّا علـى العثمانيين من ناحية أخرى، وكان العثمانيون دائمًا ما يلقون مقاومةً عنيفةً من البيزنطيين في أوقات الشدَّةِ أو يتعرّضون لهجماتِ أسطول "البندقيّة" حليفة "بيزنطة".

وإضافة إلى المشكلات العسكريَّة، فهناك أزمات اقتصاديَّة استوجبت فتح إسطنبول؛ حيث أن القسطنطينيَّة آنذاك من أهمِّ مراكز التجارة العالميَّة.

وهنـاك عامـلان أساسـيان دفعـا السـلطان محمـد الفاتـح إلـى فتـح إسـطنبول، أوَّلهمـا: أنَّ الفتـح على أمّ المدائـن يعني زيادة مـوارد الدولة الاقتصاديَّة، والآخَر: إرساء الأمن داخل حدود دولته[٨].

"فَلَنِعْمَ الأميرُ أميرُها"

أخبرنـا الرسـول ﷺ بمعجـزة نبويَّـة فـي حديث شـريف بأنَّه سـتفتح إسطنبول يومًا ما بأيدي المسلمين حيثُ قال:

> ''لتفتحـنَّ القُسـطنطينيَّة، فلَنِعْم الأميرُ أميرُهـا، ولَنِعْم الجيشُ ذلك الجيشُ''[٩]

---

(٧) الروملي: اصطلاح عثماني أطلقه الأتراك على القسم الأوروبي من إسطنبول وما خلفه من الأراضي الأوروبية.

(٨) فريدون دريمتكين، فتح إسطنبول، إسطنبول عام ١٩٧٦م، ص ٥٣

(٩) المسند لأحمد بن حنبل، ٢٨٧/٣١ لمعلومات أكثر تتعلق بحديث الفتح، ينظر: الأستاذ الدكتور إسماعيل شكان، الأحاديث النبوية تلقي الضوء على الحقائق، إسطنبول ١٩٩٣م ص ٢٥١: إمام زاده محمد أسعد أفندي، حديث الفتح، إعداد د. نجدة يلماز، إسطنبول عام ٢٠٠٢م ص ٨٩.

وكلمـة ﴿بـلدة طيبـة﴾ الـواردة فـي القـرآن الكريـم توافِقُ بحسـاب الجُمَّل[١٠] تاريخَ السنة الهجريَّة التي فُتِحَت فيها مدينة القسطنطينيّة، وهي ثماني مائة وسبع وخمسون، أليس نَيلُ هذا الشرف هو غايةُ ما يرجوه قائدٌ أو سلطانٌ يخدم الإسلام والمسلمين؟

طالبُ علمٍ لا ينام

بعـد أن قرَّر السـلطان محمد فتح إسـطنبول، أمر بتجهيـز ما يلزم من معـدَّات، كصنـع المدافـع، وإنشـاء الأسـطول، وبناء قلعة "بوغاز كسـن"، لـم يَغْمـض له جَفْن طوال الليالي لانشـغاله بتجهيز ووضـعِ الخطط لفتح إسطنبول.

كانت أمام قصر "أدرنه" مدرسـة نورُها يضيء في منتصف الليل رغم إطفاء كلِّ أنوار المدينة، فسأل السلطان الفاتح ذات يوم وزيره "جاندارلي خليل" قائلًا:

- فـي تلك المدرسـة شـخصٌ لا ينـام الليل، أريـد أن أعرف من هو، ولماذا لا ينام؟

انطلق "خليل باشا" وسرعان ما عاد بالخبر الآتي:

- سيدي السلطان، إنه طالب عِلْمٍ يذاكر دروسَه بالليل.

قال السلطان الفاتحُ متعجِّبًا:

(١٠) حِساب الجُمَّل أو الترتيب الأبجدي هو طريقة لتسجيل صور الأرقام والتواريخ باستخدام الحروف الأبجدية، إذ يعطى كل حرف رقمًا معيّنًا يدل عليه، فكانوا من تشكيلة هذه الحروف ومجموعها يصلون إلى ما تعنيه من تاريخ مقصود وبالعكس كانوا يستخدمون الأرقام للوصول إلى النصوص..

- يا للعجب! فلْيذاكر بالنهار، ولْينَمْ بالليل، أم إنَّه يفكِّر مثلي في فتح إسطنبول في كلِّ لحظة؛ فلا ينام؟!(١١).

القلعة التي شُيِّدَت خلال أربعة أشهر

كان يجب على السلطان محمد غلقُ المضائق أوَّلًا من أجل فتح إسطنبول، وقَطْعُ صِلَةِ القسطنطينيَّة عن مراكز التَّموين في البحر الأسود، ثمَّ تأمين معابر الأساطيل بين الأناضول وروملي، وبناء قلعةٍ جديدةٍ مقابل قلعةِ الأناضول لنصبِ مدافع تمنع السفنَ من العبور إلى أراضي البيزنطيِّين؛ فأمر السلطان جاندارلي خليل باشا ببناء قلعة جديدة، وصمَّم القلعة على شكل كلمة "محمد" وهو اسم من أسماء النبي ﷺ، وشيد هناكَ أبراجًا متعدِّدة، وافتتحت قلعة روملي حصاري في السادس والعشرين من مارس/آذار (١٤٥٢م)، وعَمل في بنائها ثماني مائةِ خبير وأربعةُ آلاف عاملٍ لسرعة إتمامِها؛ فتمَّ بناؤها في شهر أغسطس/آب من نفس العام، أي إنَّ بناءَها تمَّ خلال أربعةِ أشهُر فقط.

السلطان يقدر المهارة

عهد السلطان الفاتح إلى المهندس "صاروجه بك" والمعماري "مصلح الدين" بصنع مِدفعٍ قادِرٍ على تحطيمِ أسوار العدوّ في إسطنبول، وأثناء ذلك قَدِم مِن المجر صانعُ مَدافعٍ مَجَريّ يُدعى "أوربان"، وتوجَّه إلى الإمبراطور البيزنطيّ باحثًا عن عمل، ثمَّ ترك المدينة حزينًا حيث أن الملك لم يقدِّره، وأمر له بأجرةٍ قليلةٍ جدًّا على عمله؛ وتوجَّه إلى السلطان الفاتح، فألبسه الفاتح الحُلَّة السلطانيَّة، وخصّص له راتبًا كبيرًا جدًّا.

(١١) أونور، المصدر السابق، المجلد الثاني ص ١٥١.

يقول المؤرِّخ "دوكاس(*Dukas*)":

"لـو أن الإمبراطـور البيزنطـيّ منـحَ "أوربان" ربـع ما منحه السلطان الفاتح لما ترك العمل عنده".

ولمَّا سأله الفاتـح:

-هل تستطيـع صنـعَ مِدفـع يُحطِّم أسوارَ إسطنبول؟

أجابه أوربان قائلًا:

-نعم أستطيـع

فهو يعلم سـمك أسـوار إسـطنبول، إلا أنَّه أخبر السلطان بأنه لا يعلم شـيئًا عن مـدى القذيفـة واتِّجاه الرمـي، فأخبره الفاتح بوجود مهندسـين خبـراء بهـذه الأمور لديه، فأرسـل أوربان ليعمل مـع كل مـن "صاروجه" و"مصلح الدين"، وهكذا شرع في صنـع المَدافـع الثقيلة.

والمعلومات التي أوردها المؤرخون المعاصرون تفيد أنَّ أوربان كان حاذِقًا في صناعة المَدافـع، ولكنْ ليس من الصواب أن يُنسـب إليه شـرف صناعـة المَدافـع التي حطَّمت أسـوار العدو في إسـطنبول؛ لأنَّ النصيب الأكبر من هذا الشـرف يرجـع للسـلطان الفاتح، الذي فكَّر في الاسـتفادة من علمه، ثمَّ كلَّفه بصناعة تلك المَدافـع، وأمر باستخدام القذائف بحيث يزيـد مـن كثافـة النِّيران، وهنـاك نصيب كبير مـن هذا الشـرف أيضًا لكلٍّ مـن المهندس والمعمـاري اللذَين قدَّرا مرمى المِدفـع، وحدَّدا اتّجاهاته، وأشرفا على صُنعه[١٢].

(١٢) دريمتكين، المصدر السابق، ص ٦٢ و ٦٣.

بعد عملٍ استغرقَ ثلاثةَ شهورٍ أمكنَ تجهيزُ أثقلِ المَدافع التي صُنعت لتحطيمِ أسوار العدوّ في إسطنبول، وكان قُطْرُ المِدفعِ الواحد حوالي أربعة وثمانين سنتيمترًا ونصف، ويقذفُ قذيفةً من الجرانيت تزِنُ ستَّمائة كيلو جرام، ولا يُمكن تحريكه إلا بمائةٍ من الثِّيران.

الاستعدادُ أوّلا

قضى الفاتح شتاء عام (١٤٥٢-١٤٥٣م) في الإعداد لحصار إسطنبول، حتى استجوبوا كلَّ تاجرٍ يخرج من إسطنبول؛ ليجمعوا معلومات عن الحالةِ الاقتصاديّة والاجتماعيَّة والنفسية، والأحداث الجارية في المدينة، والمساعدات التي تأتيها، ومدى صمود الأسوار، وأُرسل الجواسيس بوسائل متنوّعة إلى إسطنبول.

كان السلطان قد أمر بإعداد خرائطَ مُفصَّلة عن أسوار إسطنبول فيها أدقّ التفصيلات عن الخنادق والأبراج والأبواب، وبدراسةِ ما حدثَ من أخطاءٍ أثناء محاولات حِصار إسطنبول سابقًا، واجتهد في اتّخاذ كلِّ التدابير اللّازمة للحيلولة دون الوقوع في أخطاء السابقين، كما أمر بتحصين القلاعَ على طولِ نهر الدانوب تحسُّبًا لأيِّ خطرٍ محتمَلٍ قد يأتي من أوروبَّا، وتركَ كتيبةً مرابطةً حامية هناك.

أمام أسوار "طوب قابي"

تحركت المَدافع الثقيلة من "أدرنه" في اليوم الأول من فبراير/شباط (١٤٥٣م)، وكان بعضها يحرّكه ثمانون ثورًا، وبعضُها مائة، ويسير بجانب كلِّ مدفع مائتا شخصٍ لمساعدتِها في السحب، وأمَّا تمهيد الطُّرق التي سيسير عليها الجيش، فقد كلّف مائتا عاملٍ وخبيرٍ، إضافةً إلى خمسين

سائق عربة، ووصلت المدافع إلى مَشارف إسطنبول بعد مسيرة دامت أربعة وستين يومًا.

تحرّك مُعظم الجيش العثمانيّ بعد تحرك جنود المدفعيَّة بشهرين، ووصل إلى مَشارف إسطنبول في نهاية اليوم العاشر من إبريل/نيسان (١٤٥٣م)، وعسكر الجيش فورًا على بُعْد ميلين ونصف من الأسوار، واستقروا على مَقرُبة سبعمائة وخمسين مترًا من أسوارِ القسطنطينية العِمْلاقة، ونُصِب المِدفع العِمْلاق أمام أسوار طوب قابي مباشرة.

تمركز جيش الفاتح المكون من ثمانين ألف جندي على مشارف إسطنبول على النَّحو التالي:

المركز: منطقة طوب قابي -بين طوب قابي وأدرنه قابي- بقيادة قاراماني محمد باشا، وكان السلطان الفاتح، والصَّدر الأعظم خليل باشا، وكلُّ وَحَدات قابي كولي -فِرَق الحرس الخاصّ- مرابطين في تلك المنطقة.

الجناح الأيمن: المنطقة الممتدة من طوب قابي إلى "يدي كولة (*Yedi kule*)"، عَسكَر فيها جيش الأناضول، بقيادة إسحاق باشا أمير الأمراء.

الجناح الأيسر: المنطقة الممتدة من "أدرنه قابي" حتى الخليج، عَسكَر فيها جيش الروملي، بقيادة "قره جه بك" أمير الأمراء.

أُوكِل أمر منطقة "بيْ أوغلو" إلى "زاغنوس محمد باشا".

أمَّا الأسوار المُطلَّة على بحر "مرمرة"، فقد عسكر أمامها الأسطول المُكوَّن من أربعمائة سفينة بقيادة الأميرال "بلطة أوغلو سليمان".

ونُصِبت خيمةُ السلطان الحمراءُ المُزينَّة بالشرائط الذهبيَّة على تلَّةٍ أمام طوب قابي، بحيث يرى السلطان كلَّ الساحة الممتدَّة من طوب قابي حتى قصر الإمبراطور البيزنطيِّ، كانت تلك الخيمةُ المُزخرفةُ على بُعْدِ ألف ومائتي متر من أسوار طوب قابي في منطقة تُسمَّى مالتبه "*Maltepe*"، وقد اتَّخذها السلطان مراد في وقتٍ سابقٍ مقرًّا للقيادة أثناء حصاره لإسطنبول.

السلسلةُ التي سدّت الخليج

كان ارتفاعُ الأسوار الإسطنبوليّة يتراوحُ ما بين أحد عشر إلى خمسة عشر مترًا، أمّا عرضُها فهو خمسةُ أمتارٍ على الأقلّ، وعلى الأسوار ستَّة وتسعون برجًا، مُتوسِّط ارتفاعِها ثمانية عشر مترًا تقريبًا.

كان كلُّ سُور من الأسوار مُحاطًا بخندقٍ تبلغُ سعته ثمانيةَ عشرَ مترًا ونصف، ومُتوسِّط عُمْق الخنادق سبعةَ أمتار، والمدينة مُحاطةٌ بثلاثة أسوار متتاليةٍ مختلفة الارتفاعات، ومَحميَّةٌ بخمسة عشر ألف مقاتل من جنسيَّات مُختلفة، ولم يكن هناك جنود كثيرون لحماية أسوار الخليجِ ومرمرة؛ لأنَّ أسوار مرمرةَ لا يُمكن التعرُّض لها إلَّا عن طريق البحرِ فقط، وأسوار الخليج مَحميَّة بسلسلة تمتد بين قرني "غلاطة مومخانه" و"سراي بورنو"، وكانت هذه السلسلة تُعيق دخول الأُسطول العثمانيّ إلى الخليج.

وقبل الحصار أَرسل السلطانُ الفاتح الوزيرَ محمود باشا إلى الإمبراطور، وطلب منه تسليم المدينة، إلا أنَّ الإمبراطور رفض هذا العرض؛ وبناء على ذلك بدأ قصف أسوار المدينة بالقنابل في الثاني عشر من إبريل/نيسان (١٤٥٣م)، وحطَّم قصف القنابل معنويَّات الأهالي، واعتقدوا جميعًا بأنَّ أسوار المدينة لن تصمد كثيرًا أمام هذه المَدافع

الحديثة، وبذل جنود الإمبراطوريَّة في تلك الفترة كلَّ قوَّتهم لترميم الأسوار، وجرَّبوا حلولًا عديدة من بينها مَلؤ البراميل الخشبيَّة بالتراب، ووضعها في الأماكن المُتهدِّمة من الأسوار.

سلطان يمخر عُباب البحر بفرسه

في اليوم العشرين من إبريل/نيسان من نفس العام أرسل البابا إمدادات لإسطنبول وكانت تلك الإمدادات عبارة عن ثلاث سفن كبيرة، وعلى متنها أربعمائة مقاتل، وسفينة أخرى قادمة من "سيسيليا" فيها معدَّات حربيَّة وقمح، وقد ساعدتها الرِّياح على الاقتراب من المدينة، ورغم أنَّ ثماني عشرة سفينة من الأُسطول العثمانيِّ تصدَّت لها بشدَّة وبذلت كلَّ قوَّتها إلا أنَّها لم تتمكَّن من إيقافها؛ كان السلطان يتابع المشهد من ساحة "زيتن بورنو"، ولما رأى انسحاب الأسطول العثماني وعودته نحو موقعه على الساحل، لم يُطق صبرًا، واندفع بفرسه نحو البحر، ودنا من الأسطول مسافةَ مرمى حجرٍ واحد، وكان الماء ضحلًا، فتقدَّم بفرسه مسافةً كبيرةً، حتى إنَّ عباءته ابتلَّت بالماء عندما اقترب من الأُسطول، وجنوده يَتْبعونه من خلفه؛ وأمر الأُسطول بالهجوم مرَّةً أخرى، وكان القادةُ على الشاطئ يُشجِّعون جنود البحريَّة بهُتافاتهم، وينتظرون منهم النَّصر، إلا أنَّ سُفن العدوِّ استطاعت بمساعدة الرِّياح القويَّة أن ترسوَ على أحد موانئ ساحل مرمرة.

وقد تم عزل "بالطه أوغلو سليمان" من قيادة الأُسطول إثر هذا الفشل، وتولى "حمزة بك" قيادةَ أسطول الدولة العثمانية.

السفنُ التي أبحرت في البرّ

كان السلطان الفاتح يريد بتضييقه الخِناق على أسوار الخليج أن يدفع العدوُّ قوّاته إلى الخليج، وبذلك ينجحُ في تشتيت شمل قُوات العدوّ، وكانت قوّةُ السلسلةِ واحتماءُ السفن الأربع للعدوِّ بالخليج سببًا في فشل مُحاولات الأُسطول العثمانيّ في العبور؛ وهذا ما دفع السلطان للبحث عن حلولٍ أُخرى، فقرَّر إنزالَ بعض سفن الأُسطول إلى الخليج عن طريق البرِّ؛ واكتملت الاستعداداتُ كلّها بحلول الثاني والعشرين من إبريل/نيسان (١٤٥٣م).

كان الطريق المؤدي بالأُسطول العثمانيّ إلى الخليج يبدأ من "طوب خانه"، ويصعدُ قليلًا، ويمتدُّ إلى المكان الذي توجد فيه القُنصليّة الرُّوسيّة في شارع "تونال" حاليًا، ومن هناك يَجتاز التلَّ، ثمَّ يَهبط إلى "قاسم باشا" من ناحية "باره بالاس (*Pera Palas*)" حاليًا.

لقد أمر الفاتحُ القوى العاملةَ بتمهيد هذا الطريق جيّدًا، ثمَّ بُسطت عليه جُذوع شجرٍ ثخينةٍ، ثمَّ رُبطت هذه الجُذوع ببعضها بإِحْكام، ودُهنت بالشحم الحيوانيّ وزيت الزيتون بغزارة، وتمَّ تجهيز زلّاجات لكلِّ سفينةٍ سيتمُّ نقلُها، ووُضعت بَكَراتٌ على الأماكن اللازمة لتيسير السَّحب، وجيءَ بالحيوانات لجرِّ السُّفن، وكان يبلغُ طول هذا الممرّ الذي تمَّ إعدادُه ألفًا وخمسمائة واثني عشر مترًا.

وفي مساء الثاني والعشرين من إبريل/نيسان بعدما أَسدل الليل ستاره تمَّ إنزال الزلّاجات إلى البحر بعد إرساءِ السُّفُنِ عليها وربطِها بها، وقُرعت الطُّبول للحيلولةِ دون سماع العدوِّ صوت السفن أثناء نقلها؛ وفي النِّهاية

تمَّ جرُّ اثنتين وسبعين سفينة في ليلةٍ واحدةٍ إلى حافّة الخليج الممتدّة حتى المكان القائم عليه الآن جامع "بيالا باشا"، لقد جرَت هذه الاستعدادت بسرِّيَّة تامَّة، حتى إنَّ البيزنطيِّين، وكذا العاملين في تمهيدِ الطريق لم يستطيعوا معرفةَ الهدفِ الأساسيِّ لما يَحْدث إلَّا في اللَّحظة الأخيرة.

تكريم رافع الراية

بدأ الجيشُ العثمانيُّ مرحلةً جديدةً من الحرب وهي حَرْبُ الأنفاق بعد الثالث عشر من مايو/أيار (١٤٥٣م)، فقد أراد الجيشُ بحفرِ الأنفاق تحت الأرض تخطِّي الأسوار العِمْلاقة، التي يبلغ ارتفاعُها ثمانيةَ عشر مترًا، وتحطيم الأسوار عن طريق الأبراج العظيمة التي تتحرَّك بعجلات خشبيَّة والتي يزيد طولها كثيرًا عن ارتفاع الأسوار.

ازداد القَذْف تدريجيًا حتى أَحدثت القذائف -التي تزن ستَّمائة كيلو جرام- أضرارًا كبيرة في الأسوار، ورغم أنَّ الجنود البيزنطيِّين بذلوا أقصى ما في وُسعهم بمعاونة الأهالي لرَأْب الأسوار، وإصلاح الأضرار التي أحدثتها نيران المدافع، إلَّا أنَّ اليأس كان يزداد شيئًا فشيئًا بين الجنود والأهالي؛ فقد كانوا يتساءلون قائلين: "إلى متى يمكننا أن نستمرّ في هذه المقاومة؟!"

وقبل الهجوم الأخير لاحظَ السلطان الفاتح الدَّمار الكبير الذي حلّ بالأسوار، فجدَّد عرضَه الصلحَ على الإمبراطور، وأَرسل في الثالث والعشرين من مايو/أيار من نفس العام "قاسم بك" إلى البيزنطيِّين للتفاوُضِ معهم، ولكنَّهم رفضوا الصلح للمرّة الثانية؛ فاجتمع السلطان بالقادة وتشاوَرَ معهم في الأمر، فعرض الصدر الأعظمُ جاندارلي خليل

باشا فكرةَ رفعِ الحصارِ مقابلَ فرضِ ضريبةٍ باهظةٍ، أمَّا "زاغنوس باشا" و"طورهان بك" و"آق شمس الدين"، ومعلِّم السلطان "الملا جوراني" فكانوا يدافعون عن فكرة الهجوم فورًا.

لم يكن السلطان الفاتح يرغب في اتِّخاذ أيِّ قرار قبل جَمْع معلومات تفصيليَّة؛ فأمر "زاغنوس باشا" بتفقُّد الجبهة، واكتشافِ الدمار الذي أحدثته المدفعيَّة في الأسوار، واستكشاف حالة الممرَّات، وتقييمِ الحالة المعنويَّة للجنود ومدى إصرارِهم على النصر، وعرض كلِّ تلك المعلومات عليه في الحال، ثم أُعلن الهجوم العامُّ في اليوم التاسع والعشرين من مايو/ أيار بناءً على ما تحمله الأبحاثُ والدراسات التي أعدّها "زاغنوس باشا" بعد جهدٍ كبير.

وتعالت صيحات المُنادين، وهم يطوفون في كل ثُكنة من ثُكَن الجيش:

> "ستُفْتح القلعةُ يوم التاسع والعشرين من مايو/أيار بإذن الله، فلْيكن الهجومُ عنيفًا؛ وأوَّلُ من سيقتحِم الحِصن، ويرفع الرَّاية العثمانيَّة فوقه، سيُعيَّن واليًا على مُقاطعةٍ، وسيُمنح قِطْعة أرضٍ مكافأةً له".

حفلُ إشعالِ النار

بدأ إشعالُ النارِ عقِبَ صدورِ قرارِ الهجومِ العامّ، وأصبحت الأسوارُ البيزنطيَّة داخل حلقةٍ مقفلةٍ من النار، فقد أُوقِدَت النيران في مقرَّات الجيش في إسطنبول وفي "بيْ أغلو" من غروب الشمس إلى منتصفِ الليل، واستمرَّ القصف المدفعيُّ على ضوءِ النيران المشتعِلَة، حتى لا يتمكَّن العدوُّ من ترميمِ الأسوار في ظلام الليل.

كان السلطان الفاتح يطوف على الجبهة كلَّ يومٍ عدَّة مرَّات، حيث يتقابلُ مع القادة والجنود، ويتفقّدُ الممرَّات للاطمئنان على سلامة أدائها العسكري ثمَّ يصدر أوامره إلى رجال المدفعيَّة لتوسيع فتحات الأسوار أضعافًا مُضاعفة.

صدرت الأوامر للجيش ليلة السادس والعشرين من مايو/أيّار من نفس العام بصوم اليوم التالي، وهذا من شأنه أن يحرِّك المشاعر الدينيَّة، ويرفعَ الروح المعنويَّة لدى الجنود، فسادت أجواءُ الفرح والسرور في الجيش العثمانيّ تلك الليلة.

توجيهات السلطان الفاتح إبان الفتح

ومساء اليوم التالي جمَع السلطان الفاتح قادة الجيش والأُسطول والولاة والأمراء، وأبلغهم أوامرَه التالية:

"أيها السّادة، الأمراء، القادة، ويا رفاق الدرب:

إنما دعوتكم لأقول لكم: إن ما قمنا به من أعمال، وما حققناه من نجاحاتٍ إنما هو نتيجة جهدكم وشجاعتكم بعد فضل الله ومنّتِه، ولِأُذكِّرَكم أنّ النصر القادم سيزيدُ من شرَف الدولة ومجدِها، فضلًا عن شرَفِنا ومجدِنا، وأنَّ هذا النصرَ العظيمَ ثابت بما نُقل إلينا من بشارات وأحاديث نبويَّة شريفة، قاتلوا دون أن تَنسَوا أنكم تَخدمون غايةً ساميةً جدًّا، قاتلوا قتالًا يليق بما حقَّقتموه في الماضي من بطولاتٍ عظيمة؛ احرصوا أن يمضي جنودكم في الطريق نفسه؛ حدِّثوا جنودكم أنَّ النصرَ في الحرب قرينُ المثابرةِ والشَّرَفِ والانضباطِ، وهذا ما سيضمنُ النصر بإذن الله، أما أنا فسأبدأ بنفسي أوَّلًا، وأعمل معكم يدًا بيد، وسأتابع أعمالكم".

القائد على خطّ النار

هُـرِع أهالـي القسـطنطينيَّة إلى الهـروب الجماعيِّ مـن المدينة عقِب سـماعِهم قـرارَ الجيـش العثمانـي بالهجوم العـامّ، واسـتخدموا القواربَ الصغيرةَ والكبيرةَ على ساحل "مرمرة"، وهربوا ليلًا إلى الجُزُر المجاورة، وإلى مناطقَ محيطة بهم يسكنها الرُّوم.

ونتج عن القصفِ المدفعيِّ المكثَّف فتحُ ثلاث فجوات كبيرة بالأسوار لا يمكن سـدُّها، بلـغَ حجمُ أكبرها أربعمائة متر، وهـي تلك الفتحة التي تقـع بجوار "طوب قابي" على الأسـوار الممتدّة حتى وادي "بيرام باشـا"، وحـاول رجـال المدفعية -من خـلال القصفِ المتواصِل- توسـيعَها أكثر فأكثر بحيثُ لا يُمكِنُ إصلاحها.

مـع إطلاق إشـارةِ الهجوم فجر اليوم التاسـع والعشرين من مايو/أيّار (١٤٥٣م)، بـدأت الوحـدات العثمانيَّة بالهجوم، وبـدأت كلّ فِرَقِ الجيش الموسـيقيَّة والمزاميرُ والطُّبول والدُّفوف في دقِّ مراسم الحرب تزامنًا مـع هجـومِ الجيـش العثماني، كانـت القـوات العثمانيَّة تنهالُ على الأسـوار، هاتفـةً ''الله أكبـر الله أكبر''، وبالرَّغم من نجاح البيزنطيِّين بصعوبة في صدِّ أوَّل هجومين، إلا أنَّ قُواهم قد خارت.

شـعر الفاتح بما دبَّ في عدوه من خور ويأس، فقرَّر النزول بالضربة الأخيرة القاضية؛ لذا أمر الجنود الإنكشاريَّة بالهجوم مع القوَّات الاحتياطيَّة، وتوجَّه بنفسه على رأس القوَّات إلى الخنادق، وكان لقيادة السلطان بنفسه قوَّاته الخاصَّة إلى الخنادق تأثير عظيم على الإنكشاريَّة خاصَّة، ولمَّا اشتدَّ

الوطيس صدر أمر الهجوم لاثني عشر ألف مقاتل من الإنكشاريَّة، الذين تلقَّوا أفضل التدريبات، وأُوكلت إليهم مهمَّة إحراز النصر.

استشهاد "حسن الأولوباتي (*Ulubatlı*)"

كان في كتائب الهجوم جندي إنكشاريٌّ، عِمْلاق البنية، ذو قوَّة عظيمة، يدعى "حسن الأولوباتي"، وقد تمكن هذا الجندي من تسلُّق السُّور، وكان يمسك دِرْعه بيده اليسرى يستر بها رأسه، ويقبض على مطرقته بيده اليمنى، وتعقَّبَ البطلَ ثلاثون من رفاقه تقريبًا، ولكنَّ الجنود البيزنطيِّين رموهم بالسهام والحجارة، فسقط ثمانية عشر منهم شهيدًا من فوق الأسوار؛ وقد أسهم "حسن الأولوباتي" في تسلُّق رفقائه السور رغم جراحه، فلم يستطع حماة السور منع ذلك الهجوم لقلَّتهم؛ على الرغم من ذلك فقد سقط عدد آخر ممن تسلَّقوا السور شهداء، وفي نهاية المطاف هوى "حسن الأولوباتي" من فوق السور إثر إصابته بحجرٍ كبير، سقط البطلُ شهيدًا تحت ضرَبات السهام والحجارة، ليخطَّ بدمائه رواية النصر التي حافظ عليها العثمانيّون من بعده، وما زال القتال على السور مُستمرًّا، ونجح جنود الإنكشاريَّة في الزحف داخل الأسوار محافظين على تقدّمهم شيئًا فشيئًا[١٣].

دخول المدينة

مالت كِفَّة الحرب لصالح العثمانيِّين تدريجيًّا؛ ففي نهاية المعارك الدامية تجاوز جنود الإنكشاريَّة الجرف الناتج عن القصف المدفعيِّ الثقيل، ودخلوا بين سورَين، فاختل نظام الجيش البيزنطيِّ، وفرَّ الإمبراطور

(١٣) دريمتكين، المصدر السابق.

"قسطنطين" هاربًا مع جنوده نحو البوَّابة الخلفيَّة، لقد سَحق الجنود بعضهم بعضًا لتدافعهم على الهروب عبر أبواب ضيِّقة، وكان الإمبراطور من بين هؤلاء المسحوقين.

دخلت القوَّات العثمانيَّة إلى القسطنطينيَّة في غضون فترة قصيرة، وكان السلطان الفاتح يتابع -من بُرْجٍ نُصبت عليه رايتُه- تقدُّمَ الجيش عند دخوله إلى المدينة.

قبيل الظهر أصبحت المدينة تحت السيطرة تمامًا، وانتهت المقاومة، وامتطى القائد الشابُّ ذو الثلاثة والعشرين ربيعًا حصانه الأبيض، ودخل المدينة من بوَّابة "طوب قابي" بموكب عظيم، يحيط به الوزراء، والأمراء، والعلماء، والقادة، وشارك في الموكب أيضًا الفُرسان والحُرَّاس والإنكشاريَّة والمشاة والخيَّالة، وحينما دخل السلطان من الباب، رفع سيفه بوقار كبير وصرامة، وهنَّأ الجيش بكلماته:

"الحمد لله أيها المحاربون، لقد فتحتم القسطنطينيَّة".

خرج أهالي القسطنطينيَّة، واصطفُّوا على الطُّرقات لاستقبال هذا السلطان العظيم، الذي حققّ نصرًا سجّله التاريخ، واستقبلوه بالزهور، وقدّموا له باقات الورد، كان السلطان يسلك الطريق بصعوبة مُتَّجهًا إلى "آيا صوفيا"، وحولَه معلِّموه "آق شمس الدين"، و"الملا جوراني"، و"الملا خسرو".

تبجيل الفاتح لمعلّمه

عندما رغِب الناس في تقديم باقات الورد إلى السلطان، رأوا "آق شمس الدين"، فهُرعوا نحوه مُعتقدين من لحيته البيضاء أنَّه السلطان؛

فاستحى "آق شمس الدين" وحاول كبح حصانه ليتراجعَ خلف حصان السلطان، وقال لمن يقدِّمون باقات الورد إليه -وهو يُشير إلى السلطان الشابّ-:

- هذا هو السلطان محمد، اذهبوا إليه.

فقال السلطان مبتسمًا:

- اذهبوا، اذهبوا إليه ثانية، صحيح أنا السلطان محمد، ولكنه شيخي[١٤].

كان السلطان محمد الفاتح سعيدًا بتفاني معلِّمه آق شمس الدين في عبودية الله، وبالتربية وسَعَة الأُفق اللتين ربّاه عليهما، حتى إنَّه كان يقول لمن يرى فرحته:

- لا تظنُّوني فَرِحًا بفتح القسطنطينيَّة، أنا فَرِح بمعاصرتي لـ"آق شمس الدين".

الأوامر الصادرة إلى الأمراء

لمَّا دخلت القوَّات العسكريَّة المدينة، ووصلت إلى "آيا صوفيا" التي احتشد فيها المسيحيّون من عامّة الشعب ورجال الدين، نزل الفاتح مِن على حصانه، وأخذ حَفنة تراب من الأرض ووضعها على رأسه، ثمَّ أشار إلى المسيحيين وهم على الأرض سجود باكون أن كفُّوا عن البكاء، ثم التفت إلى البطريرك، وقال بصوت يستطيع أن يسمعه الناس جميعًا:

(١٤) أونور، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ١٥٥.

- كلامي لك يا "أطاناسيوس" ولكلّ مَن يتبَعُك من الشعب، بدءًا من اليوم فصاعِدًا لا تَخْشَوا غضبي ولا الأسر ولا الموت".

ثم التفت إلى القادة وأمراء الولايات قائلًا:

- القادة والأمراء، بلِّغوا الجنود بأنني لا أسمحُ بالعدوان على أي شخصٍ ولا أجيزُ قتلَ النساء أو الأطفال أو حتى الرجال ولن نأسِرَ أحدًا أبدًا، ومن لن يمتثل لأمري فسأقتله كائنًا من كان.

ثم طلب الفاتح بعد كلمته أن يرجع المحتشدون إلى بيوتهم.

من الذي سلّم المدينة وخزائنها؟

وعندما دخل السلطان كنيسة "آيا صوفيا" وجال بها ورأى عظمتَها شعرَ مرَّةً أخرى بعظمة النصر الذي تحقَّق؛ فأمر أحد الأئمَّة الذين بصحبته برفع الأذان، ثم أمَّهم في الصلاة بنفسه.

أمر السلطان بتحويل "آيا صوفيا" إلى جامع دون الإضرار بعمارتها وزينتها، وأن تُقام فيها شعائر أوَّل صلاة جمعة، ثم جال بالقصر الإمبراطوريِّ، وعاد إلى معسكر جيشه، ودعا أعيان المدينة، ووزير الإمبراطورية "جراندوق نوتهاراس"، الذي تَعرَّف عليه من قبل، ثمَّ عاتبه قائلًا:

- لقد عمِلتم بكلِّ وسعكم لتمنعوا عنّي المدينة، أرأيتَ هذه الكارثة التي نجمت عن مُقاومتكم! يا لَلخراب الذي حلَّ بالمدينة، وبتلك الحشود الهائلة من الأسرى!.

ثم سأله قائلًا -وهو يتسلَّم الكنوز التي قدَّمها له "نوتهاراس"-:

- لماذا لم تنفقوها في الدِّفاع عن المدينة؟!

- كنتُ أُخفيها لكم.

غضب السلطان من جوابه؛ فهو يكره التملُّق، وسأله:

- من الذي منحني هذه المدينة وخزائنها؟

أدرك الوزير قصدَ الفاتح، فأجابَ قائلًا:

- الله.

- ما دام الأمر كذلك، فهذا فضل الله، لا منّتك.

ورغم هذا فإنَّ السلطان عاد زوجة "نوتاراس" التي أقعَدَها الهمُّ والحزن ليواسيها(١٥).

أصبح المستحيل ممكنًا

إن الفتح لا يعني الاحتلال كما يعتقد بعض الناس، وكلمة الفاتح مشتقَّة من نفس الجذْر -وهو الفتح-، وكلمة القائد في ثقافتنا لا تعني الذي يُدمِّر أو يُبيد، إنما تعني الفاتح، وتاريخنا حافل بكثير من الفاتحين، الذين سجَّل التاريخ أسماءهم بحروف من ذهب، أمثال "صلاح الدين الأيوبيِّ" فاتح "القدس"، و"طارق بن زياد" فاتح "الأندلس".

كان للسلطان محمد الفاتح إرادة لا تَتزعزع، وعزم جعله يقول: "إما أن أفتح القسطنطينية أو أهلك دونها"، وأفق واسع جعله يقول: "سيبلغ سلطاني إلى ما لا يبلغه خيالكم"، لقد وضع أهدافَه وأحلامَه في أماكنَ لا تطالُها خيالاتُ وعقولُ أفرادِ عصره، فتجاوز عصرَه إلى عُصورٍ أُخرى، وأصبح المستحيل مُمكنًا، وتحقَّق ما قيل "إنه لن يتحقَّق".

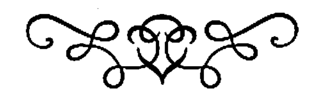
(١٥) أونور، المصدر السابق، المجلد الثاني ص ١٥٦.

إنَّ السلطان محمد الفاتح إنسانٌ عظيمٌ وسابِقٌ لعصرِه، فمن إنجازاته العظيمة صناعةُ المَدافع بحجم لم يُرَ له مثيل من قبل، وكان أوّل من اخترع مِدفع "الهَاون"، وسيَّر السفن على البرِّ، وإنَّ أكبر إنجازاته هو نجاحه وهو ما زال شابًّا يافعًا في إحراز هدفٍ حاول أسلافه مرارًا تحقيقه لكنَّهم عجزوا.

وفاةُ الفاتح

انتقل الفاتحُ الذي نال شرف بشرى النبي ﷺ إلى دار الآخرة في الثالث من مايو/أيّار (١٤٨١م) في مرج السلطان عند "مالتبه (*Maltepe*)" أثناء إعداده حملة جديدة، ودُفن أمام حائط القِبلة بضريح الجامع الذي بناه في الحيِّ المُسمَّى باسمه.

كان الفاتح قائدًا عظيمًا، ورجلًا واسع الأُفق مُثقَّفًا، أَطلق على أوّل أبنائه اسم جدِّه الأكبر "يلدريم بايزيد"، وأطلق على ابنه الثالث اسم الحاكم الفارسي الشهير "جام"، كما أَطلق على حفيده "أوغوز خان"، وهكذا اجتمعت في شخصيَّته جذور مُلكٍ عثمانيَّة، فارسيَّة، إسلاميَّة، رومانيَّة.



إنه الهمام المقدام، سلطان الأرض القائل:

"عرش هذه الدنيا أكبر من أن يتربّع عليه سلطانٌ واحدٌ،

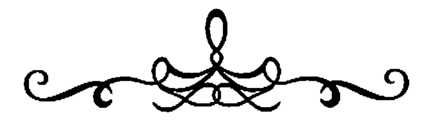
وأصغر من اثنين"

إنه رمز الشجاعة والإقدام، الصنديد الذي جندل الكماة وسبق الغمام، إنه عاشق العلم والمعرفة ومحيّر الأفئدة والأفهام القائل:

"حافظوا على دُرّاعتي هذه يا معلم"، وضعوها فوق نعشي عند موتي، فإنّ غبارَ نعلِ فرسِ العالِم وسامٌ عظيم لنا".

إنه السلطان العثماني: «ياووز سليم خان»





السلطان ياووز سليم خان

ولد السـلطان "ياووز سـليم خان" في مدينة "أماسـيا" عام (١٤٦٩م)، والتـي عُيِّنَ والدُه واليًا عليها من قبل، وهو الابن الرابـع للسـلطان "بايزيد الثاني"، واسـمه الكامل "سليم شاه"، أمّه "عائشة جُلْبَهار خاتون" من أسرة "ذولقادر (*Dulkadiroğulları*)"، عاش في إسـطنبول فترةً أثناء طفولته، كان مسـتدير الوجه، أسـودَ الحاجبين، عيناه عسـليّتين، كان يُشْـبِه جدَّه الأكبر السلطان محمد الفاتح في قَسَمَاتِ الوجه والجسد وأنفِ الصقر.

قضـى فترة إمارته في "طرابـزون (*Trabzon*)"، وتلقّى فيها تعليمًا على مسـتوى عـالٍ فـي العلـوم والفنـون و الإدارة؛ وله فـي كلّ ليلـة وردٌ عِدّةَ سـاعات يقـرأ فيه كتبًـا بالعربيّـة والفارسـيّة والعثمانيّـة، إذا رأيتَه وهو في اجتهاده الدؤوب هذا حسِبتَ أنّك أمام عالِم، ولـم يسـتطِـع أحدٌ الوصول إلـى مـا وصل إليه من تفريقٍ تامٍّ بين الوداعة في حياته الشـخصية الخاصّة والشّدة في الحكم والقيادة.

كان شـاعرًا مطبوعًا حتى إن له ديوانًا بالفارسـية، وكان قلقًا من وقوع الشـقاق بيـن هذه الأمـة، ومن زعزعـة وحدتها واسـتقرارها، وأعرب عن خواطره تلك بهذه الرّباعية:

أثـــرُ الفـــرقـةِ والشقــاق

يقلقلني ولـو كنـت رميمًـا

أمَّتِي مَتَى تتّحـدي تنتصـري

وإن تفترقي فالفراق ممزِّقي

لـم يكن ألبتّة يقبل مَن يُرسـل إليه من إسـطنبول ليعمـل "معلمًا" لديه إن لم يكن مؤهّلًا بامتياز، بل يردّه فورًا، حتى أنه دعا "حليم شلبي" العالم الشـهير آنذاك الذي تلقّـى العلم في مصر وإيران، وأنزلـه في "طرابزون"، وقرَّبَه واتخذه معلمًا له.

ياووز ونجله

كان "سـليم خـان" -الـذي لقبه العامة فـي إمارته بـ"ياووز"- متوسِّـطَ القامـة، عظيـمَ الشـأن، ذا شـاربٍ أسـود كثيف ونظـراتٍ حـادّة، لا يُعنَى بالمظاهـر ولا الزخـارف والزينة، يرتدي ملابس عاديّـة، وإذا ما طلب منه ارتداء ملابس فاخرةً كالحرير والتزيّن ولو بقليلٍ من الزينة، أجابهم:

"إنما يتزيّن المرءُ ويتأنّقُ لينالَ إعجابَنا، أما نحنُ فَلِمَنْ نتزيّن؟ النظافةُ هي أناقة كلّ أنيق".

وذات يـوم رأى ابنـه "سـليمان" -والذي اشـتهر بالقانونـي فيما بعد- يبالـغ في التزين، فلم يُخفِ دهشتَه وقال له:

"فلذةَ كبدي، تزيّنت وأسـرَفْتَ، وبالغت في الزينة، حتى إنك لم تدع شيئًا لأمك"[١٦].

---

(١٦) تحسين أونال، معركة الفضائل في الدولة العثمانية، أنقره ١٩٧٥م، ص ٧٣.

واشوقاه إلى وجهك يا أبتاه

كان السلطان "سليم" يهوى الرياضة، وكان ماهرًا في ركوب الخيل والمبارزة بالسيف ورمي السهام؛ وتدلّ المَسَلّات الحجريّة القائمة بحي "قاواق ميداني" في "طرابزون" أنه كان يستخدم تلك الساحة ميدانَ رماية.

كان يولي اهتمامًا بالغًا بقماش "طرابزون"، حتى أنه كان يواظب على ارتداء ملابس مصنوعة من قماش تلك المدينة، وقد كانت قوات الإنكشارية جميعًا يرتدون من القماش المصنوع في "طرابزون" على عهد ابنه "سليمان".

ولما تولى أبوه عرش السلطنةِ العثمانية، عين ابنه "سَلِيمًا" على ولاية "طرابزون" عام (١٤٨١م)، واستمرّ عليها حتى عام (١٥١٠م)، وبقي أمير سنجق -أي محافظًا- ثلاثةً وعشرين عامًا،، فأسّس قوّات الجيش النظامي من شباب "طرابزون" وما حولها، وأولى حماية المدينة اهتمامًا كبيرًا، ونظم حملات على "القوقاز" و"جورجيا" و"جركستان (*Çerkezistan*)"، وهذا ما حال بين الأمير سليم شاه وبين أن يرى وجهَ أبيه السلطان "بايزيد الثاني" مدّةَ ستّة وعشرين عامًا.

دعاء ياووز

في الرابع والعشرين من إبريل/نيسان (١٥١٢م)، تنازل الأب عن عرش الدولة العثمانية وهي أكبرُ قوّة عسكريّةٍ وسياسيّةٍ في العالم آنذاك، فتربّع ابنُه السلطان "سليم" على العرش، وقبّلَ يدَ أبيه، ونالَ بركةَ دعائه، وهنّأه كبارُ رجال الدولة وهيئة كبار العلماء، وقدموا له الولاء.

دعا السلطان "سليم" في ذلك اليوم بهذا الدعاء:

"ربِّ وليتني أمر البلاد بفضلك، فيسِّر لي إدراةَ شؤونها"، فقد كانت أمور الدولة شغلَه الشاغل، وهجر من أجلها الراحة والملذات.

ويُذكر أنه لم يطلق لحيته عندما تولّى العرش خلافًا لما كان عليه الحكام العثمانيون.

شهدت سنواتُ حكمه الأولى صراعًا بين الأمراء على السلطة؛ وفي الثالث والعشرين من أغسطس/آب عام (١٥١٤م) شنَّ هجومًا على "الشاه إسماعيل" الحاكم الصفوي الشيعي، الذي هدّد بالاستيلاء على حدود الدولة الشرقيّة، وأرسلَ أعوانَه إلى ربوع الأناضول لإثارة الفتنة بين الشعب، ومُنِيَ "شاه إيران" بهزيمة نكراء في "جالديران (*Çaldıran*)" أمام جيوش العثمانيّة، واضطرّ إلى الفرار تاركًا تاجَه وعرشَه وعائلته أيضًا، وتحققت بهذا النصر وحدةُ الأناضول، وفتحت السبيل أمام الدولة العثمانية نحو الجنوب، فأصبحت "وان (*Van*)" و"بيتلس (*Bitlis*)" و"ديار بكر (*Diyarbakır*)" و"أرزنجان (*Erzincan*)" و"بايبورت (*Bayburt*)" و"أرضروم (*Erzurum*)" و"مرعش (*Maraş*)" ومنطقة "البستان (*Elbistan*)" تحت الحكم العثماني، كما مهد له هذا النصر الطريق نحو الشرق الأوسط، فاتجه إلى مدينة "تبريز"، وفتَحَها.

القرار الإستراتيجي

في مطلع ربيع عام (١٥١٦م) كلف السلطان "ياووز سليم" الصدر الأعظم "سنان باشا" بحملةٍ عسكريّةٍ على رأس جيش قوامه أربعون ألف

جندي، وأمَره بالزحف نحو منطقة "نهر الفرات" عبر طريق ولاية "مرعش"؛ وعندما علم سنان باشا بالحشودِ والوحداتِ العسكريّةِ المصريّةِ التي بُعثت من قِبل سلطان مصر على الحدود بين البلدين رأى أنه من الأفضل عدم التقدّم بقوّاته نحو "الفرات"، فاجتمع "ياووز" بديوانه لدراسة ما ينبغي فعله -كان ذلك إثر ورود خبر من الصدر الأعظم عن مناصبة مصر العداء للدولة العثمانية-، واتّخَذَ الاستعدادات اللازمة للتصدّي للحِراك الفارسيّ والمملوكيّ ضدّ الدولة العثمانيّة.

وكان من الممكن السيطرة على مناطق الجنوب الشرقي لدولة المماليك؛ لذا كانت هذه الأمر في نظر السلطان "سليم" مهم يجب تنفيذه.

وفي تلك الأثناء قام "قانصوه الغوري" سلطان مصر بحبس كل من "زيرك زاده خوجه ركن الدين أفندي" و"قره جه باشا" اللذين جاءا إلى حلب لإيصال الرسالة من سلطان "سليم" إلى سلطان مصر، رغم منافاة ذلك للقوانين الدولية، ثم أفرج عنهما إثر معاهدة تم توقيعها بين العثمانيين والفرس، كان هذا التصرف من الخطورة بمكان حتى إنه ليعد سببًا للحرب بين الدولتين.

وفي تلك الحقبة كانت تسود في مصر حالة من النزاع، سواء بين ذوي المناصب العليا أم بين الأمراء، وكان الشعب يتشوّف لحاكم عادل، فكتب "خير بك" نائب والي حلب و"جانبردي الغزالي" وقضاة حلب رسالةً إلى ياووز سليم يدعونه فيها إلى مصر.

هذا علاوة على أن العلامة الأستاذ "محمد شلبي" من رجال الديوان كان يزعم أن الدولة العثمانية أحقّ بالخلافة والحرمين الشريفين -وهما

أهـم ما يميز القيادة الإسـلامية-، وكان العالم الإسـلامي على قناعة بهذا أيضًا فما كان من "ياووز" إلا أن اتخذ قرارًا بالحملة على مصر(١٧).

الرؤيا الصادقة

يُروى أنّ السـلطان "سـليمًا" لما قرّر الحملة على مصر رأى النبي ﷺ في المنام، ذَكَرَ "خواجة سـعد الدين" في كتابه "رسـالة سـليم خان" رؤيا نقلها عن والده "حسن جان" نديم السلطان "سليم"، قال:

- قـال لـي والدي "حسـن جان": إن السـلطان لم يكن ينـام الليل إلا قليلًا، إما أن يقرأ كتابًا أو يتفكّر في أحوال العالم، وذات يوم أخذني النوم فلم أستطـع أن أذهب لخدمته، ولما صليت الفجر أتيته فقال:

- لم أرك الليلة، أين كنت؟

فاعتذرت قائلًا:

- لم أنـم منذ أيام، وهذا ما منعني المجيء لجلالتك هذه الليلة.

فقال:

- هات ما عندك، ماذا رأيت الليلة؟

فقلت:

- لا شيء، أضغاث أحلام.

فقال:

(١٧) ضياء نور أقسون، التاريخ العثماني، إسطنبول ١٩٩٤م، المجلد الأول، ص ٢٢٠.

- أيعقل أنك لم تر رؤيا وقد أمضيت ليلك نائمًا؟ هات ما عندك.

فأقسمتُ أني لم أرَ شيئًا.

هز رأسه وقال:

- واعجبا!

وبعد قليل بعثني مولاي السلطان إلى الباب الذي يقف أمامه القائم بأعمال السلطان "حسن آغا[١٨]" لأمرٍ ما، نظرتُ فإذا "محمد آغا" رئيس الخزانة الذي تربطني به المودة ومسؤول المخزن يتحدثان مع آغا القصر؛ وقد كانت تظهر على وجه "حسن آغا" ملامح الدهشة والحيرة مطأطأً رأسه وعيناه تزرفان بالدمع، مع أنه كان رجلًا يتّسم بالهدوء، إلا أنني رأيتُه في حالة غريبة، فاستفسرت عما به وأنا أتساءل:

- هل تُوفّي أحدُ أقاربه يا ترى؟

أجابني:

- لا، لا شيء من هذا القبيل؟

وسرعان ما توجّه إليّ آغا الخزينة قائلًا:

- يا أخي، رأى آغا الليلة رؤيا، وهو في حيرةٍ منها!

ثم توجهت إلى حسن آغا وقلتُ متعجّبًا:

- أسألك بالله ماذا رأيت؟ فقد سألني السلطان بإلحاحٍ: هل رأيتُ رؤيا الليلة؟

---

(١٨) آغا:مصطلح من اصل فارسي يعني السيد أو المسئول، سهيل صابان.

ولما رأى "حسن آغا" إصراري رَجَانـي أن أعدل عن هذا وقال على استحياءٍ:

- وماذا ستكون رؤيا مذنبٍ مثلي حتى تُقَصّ على السلطان.

فما كان من "محمد آغا" إلا أن قال:

- كيف تُخفي رؤياك؟ لا بُدّ أن تقصّ ما رأيتَ، وإلا عُدّ الكتمانُ خيانةً.

عندئذٍ أظهر "حسن آغا" ما كان يُخفي، وقصَّ ما رآه فقال:

- بينما نحن جلوس عند العتبة إذ بالباب يُطرق، فذهبت لأنظر من بالباب، فإذا به يُفتح، ومِن ورائه جمٌّ غفير وجوهُهُم وضّاءة، وقَسَماتهم عربيّة، وهم وقوفٌ ينتظرون، وبأيديهم الراية والسلاح، وعند مدخل الباب أربعة نفرٍ وجوهُهُم وضّاءة، والراية بيد أحدهم، أمّا الطارق فكان يحمل بيده راية السلطان البيضاء؛ وقال لي:

- أتدري لم أتينا ههنا؟ هذا الجمّ الغفير الذي رأيت، هم صحابةُ رسول الله ﷺ؛ ونحن رسل رسول الله إليكم، وهو يُقرئ "سليم خان" السلام، ويقول له: هُبّ، وهلمّ، فقد وُهِبَت لك خدمة الحرمين، والنفر الأربعة الذين رأيت هم الخلفاء الراشدون، أوّلهم الصديق، وثانيهم عمر الفاروق، وثالثهم عثمان ذو النورين، وأنا علي بن أبي طالب، بلّغ "سليم خان" ما أخبرتك به.

وفجأةً غابوا عن الأنظار، وأيقظني أهلي وأنا أتصبّبُ عَرَقًا.

كان "حسن أفندي" يقصّ رؤياه ويبكي.

امتثلتُ لِما أمرني به السلطان، ولما عُدتُ إليه لم يُلقِ بالًا للمهمة التي أوكَلَها إليّ بل كرَّر سؤال الصباح قائلًا:

- ما أعجب أمرك! كيف انقضَت هذه الليلة ولم تر فيها رؤيا؟!

قلت:

- مولاي السلطان، إن خادمكم لم يرَ حلمًا ولكن خادمكم الآخر "حسن" رأى في هذه الليلة حلمًا، لا يُمانع أن أقصّه عليكم إذا أذنتم لي.

وما أن سَمِع السلطان هذه الكلمات حتى دَمَعت عيناه من الفرح، ولما سرَدْتُ له الرؤيا قال:

- كنتَ إذا ما مدحتَه أمامنا قلنا عنك: أنّك كلّما رأيتَ شخصًا عابدًا تعتقدُ أنه وليّ الله؟ لكنّنا الآن علمنا أن مدحك له لم يكن عبثًا ولا جُزافًا وإنما هو في محلّه ومكانه.

ثم قال:

- ألَمْ أقُلْ لك: إن مسيرَنا لن يتمّ أبدًا دون تأييدٍ؟ وقال مشيرًا إلى نفسه: كان لأجدادنا نصيبٌ من الولاية.

ثم أردف قائلًا: نحن لسنا مثلهم.

ثم بدأ بتجهيز الحملة على البلاد العربية.

وذكر "سولاك زاده" في إحدى رواياته؛ أن السلطان رأى في تلك الليلة أن رجلًا يُدعى "حسن" سيحمل إليه تلك البشرى(١٩).

(١٩) أقسون، المصدر السابق، ص ٢٢٠-٢٢١

وَرَعُ جيش ياووز

قد استراح الجيش العثماني بالقرب من "كبزة (*Gebze*)" بعد أن اجتاز الحدائق والبساتين المثقلة بالعنب الناضج والتفاح الأحمر والفاكهة النادرة.

قال السلطان "ياووز" سليم خان في نفسه: هل قطف جنودي -يا ترى- من التفاح والعنب دون إذن صاحب البستان؟

ثم استدعى قائد الإنكشارية، وأمره قائلًا:

- يا آغا أصدرْنا قرارًا بتفتيش أَخْرَاج عساكر الإنكشارية والسباهيّة[٢٠] والأُجَرَاء، ومن وُجِد في رحله فاكهة فأتوني به.

انطلق قائد الإنكشارية فورًا، وتمّ تفتيش أخراج الجنود، ثم عاد إلى السلطان، وقال:

- مولاي السلطان، تمّ تفتيشُ أخراج الجنود، ولم يُعثَر فيها على أية فاكهة، كما لم نعثر في الأشجار على أثرٍ للقطف.

ولما سمع السلطان هذا الخبر غمرته الفرحةُ والسعادة، ثم تنفّس الصعداء ورفع يديه يدعو قائلًا:

- اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، فأنت من أنعمت عليّ بجيش لا يأكل الحرام.

ثم التفت إلى قائد الإنكشارية قائلًا:

(٢٠) السباهية: هي فرقة من فرق الجيش وهي فرقة الخيالة والفرسان الذين يتقدّمون الجيش.

- يا آغا، لا يمكن لجيشٍ يأكل الحرام أن يفتح البلاد.

وأردف قائلًا:

- في عهد جدّنا السلطان "محمد خان" -أسكنه الله فسيح جناته- فُتحت إسطنبول وكان فتحها يبدو مستحيلًا، ونحن بإذن المولى سندخل مصر، لن يكون هناك حاكمان للأمة الإسلامية.

خادم الحرمين الشريفين

وقعت المعركة بين الجيش العثماني وجيش المماليك في "مرج دابق" في الرابعِ والعشرين من أغسطس/آب عام (١٥١٦م)، شاعت بين جنود العثمانيين أن جنود قوات المماليك تصل إلى ثمانين ألف جندي، أما الجنود العثمانيون فكانوا نحو ستين ألفًا، ومعهم نحو ثلاثمائة مِدفع، ولما بدأت الحرب اتّخذ السلطان المملوكي "قانصوه الغوري" مكانه على رأس جيشه، وكان عمره أربعةً وثمانين سنة، وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى وُجِدَ جثمانُه من بين القتلى، واستسلم الخليفةُ العباسيّ "المتوكل"، وأشهَرَ علماءُ مصر وقضاتُها أنّ السلطانَ "ياووز" خليفةً للمسلمين فنالوا بذلك المنح السلطانيّة.

وأسفرت هذه الحرب عن تحطيمِ أكبر دولة من دولتين كبيرتين تحالفتا ضدّ الدولة العثمانية في الشرق، وتعزيزِ الحكم العثماني الذي سيستمر أربعة قرون في سورية وفلسطين، وفتحِ طريق مصر والبلاد العربية أمام الدولة العثمانية.

وبعد أربعة أيام دخل السلطان "سليم" إلى حلب الشهباء، وبينما كان يؤدّي صلاة الجمعة في الجامع الكبير بحلب[٢١]، نعته الخطيب بـ"حاكم الحرمين الشريفين" -أي حاكم مكّة والمدينة-، فهبّ السلطان "سليم" من مقامه إثرَ هذه الكلمة، وقاطع الخطيب قائلًا: "أنا لست حاكم الحرمين الشريفين وإنما أنا خادمُ الحرمين الشريفين"، فتراجع الخطيب عن كلمته، وجرى في حديثه على نحو ما قال السلطان، فثنى السلطان سجادةً صغيرةً كانت على الأرض، وسجد على التراب سجدةَ شكرٍ، وحمد الله، ولما صلى الجمعة خلع قُفطانه الذي يساوي أكثر من ألف دوقة[٢٢]، وألبسه الخطيبَ.

وفي هذه الواقعة أشار المؤرخ الشهير "هامّر" إلى كمال إيمان السلطان قائلًا:

"إننا لا نبالغ إذا ما قلنا أنه كان مثالًا يُقتدى به في تديُّنه عبر التاريخ الإسلامي"[٢٣].

زيارة خليل الرحمن

ولما قضى السلطان "سليم" ثمانيةَ عشر يومًا في حلب اتّجه إلى الشام عن طريق حماة وحمص، وقوبل هناك باحتفالٍ باهرٍ، وزارَ الجامعَ الأمويّ وأضرحةَ الصحابة والمشايخ، وأمر بالبحث عن ضريح الشيخ "محيي الدين بن عربي"، وكان يكنُّ له محبّةً عظيمةً، وأمر ببناء ضريحٍ له يليقُ بمكانته.

---

(٢١) حسب ما ورد في المصادر التاريخية والروايات التي وصلت إلينا فإن هذه الواقعة حدثت في جامع السلطان الملك المؤيد بمصر.

(٢٢) الدوقة: اسم عملة ذهبية كانت تصك في البندقة قديمًا، وقيمة الدوقة تعادل الواحدة من (١٠-١٢) فرنكًا.

(٢٣) أقون، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٢٣.

وفي الخامس عشر من ديسمبر/كانون الأول (١٥١٦م) انطلق الجيش من الشام إلى "الرملة"، وبعد أن وصلوها؛ غادر السلطان مخيّمَ الجيش بهدوءٍ، مصطحبًا معه "إدريس البتليسي" أحد علماء عصره وبعض رجاله الأجلاء، وبجانبه نديمه "حسن جان"، وما حلّ الظلام حتى وصل إلى "القدس"، ورغم برودة الجوّ المتصاعدة إلا أنه قام بزيارة قبر سيدنا "إبراهيم خليل الرحمن"، ثمّ زار كل أضرحة الأنبياء والمقامات المباركة هناك، ثم دعا الله تعالى بقلبٍ مخلصٍ وإيمان عميق، ولو أنه يحبُّ الرياء والسمعة السياسيّة، لَمَا ذهب وأنهى زيارتَه ورجع قبل حلول الفجر، علاوةً على أنه لم يصطحب معه سوى بضعةَ أشخاصٍ قلائل.

وعندما قدم السلطان سليم إلى الشام، قام المماليك بتنصيب "طومان باي" رئيسًا لهم، فأرسل السلطان فرقة من السفراء برئاسة "مراد بك الشركسي" إلى "طومان باي"، وعرض عليه خطة سلام بشرط قبول الأخير أن تتمّ الخُطبة وصكّ النقود باسم السلطان "سليم"، وأن يكون طومان باي تابعًا له، وأعرب عن كراهيته لإراقة دماء المسلمين، لكن عندما انتهك المماليك القوانين الدولية وقاموا بقتل السفير صارت الحرب أمرًا محتّمًا لا بديل له.

لم نأتِ لمُصادرةِ الأموال

وفي تلك الفترة ظهرت الحاجة الماسّة إلى النقود في الجيش، فأرسل مسؤولُ المالية (الدفتردار) مذكّرة تقترحُ على السلطان ما يلي:

"أُتيحت لنا فرصةٌ لسدّ العجز المالي في الخزينة الهمايونيّة، حيث توفّي أحدُ الأمراء "الشركس" الأثرياء في الشام، وله تركة

كبيرة جدًا ولا يرثه إلا ابن واحد عمره ستة أشهر، فليُصدر سلطاني قرارًا بقتل الطفل وتحويل تلك الثروة إلى الخزينة".

قرأ السلطان تلك المذكرة، فذيل الرسالة بما يلي:

"انظر يا دفترداري[٢٤]، لم نأتِ إلى هنا لمصادرة أموال الناس، إنما جئنا لنحيطهم بالراحة والسكينة؛ الرحمة للمتوفَّى، والبركة لماله، والعافية لابنه، واللعنة على النمّام".

وتنفس "الدفتردار" الصعداء لأن السلطان اكتفى بالجواب، ولم يقطع رأسَه.[٢٥]

الخِلافةُ تؤولُ إلى العثمانيّين

جهّز السلطان "ياووز سليم" آلاف الجمال المحملة بالماء كي يُؤمّن ماء الشرب للجيش خلال عبور صحاري "التيه" و"سيناء" و"كاتيا" من ناحية، ومن ناحية أخرى راح يخطط للسيطرة على المواقع الإستراتيجيّة التي تعبر منها الجيوش.

اجتاز الجيش الهمايوني صحراء "كاتيا" في ظَرْفِ ثلاثة عشر يومًا، ووصل إلى "الصالحية" التي تُعتبر مفتاحَ مصر، وسرعان ما نجحَ السلطان في عبور صحراء محفوفة بالمخاطر، نهارُها جحيمٌ وليلُها زمهرير، لا يُرى فيها أحياء سوى العقارب والثعابين، ولم يتمكن أيّ مَلِكٍ من اجتيازِها حتى ذلك الحين، ومن عظيمِ لُطْفِ الله هطول المطر في هذه الظروف البيئيّة القاسية، فتصلبت الرمال، وخفّت وطأةُ الحرّ وسهل عراكُها، وبذلك توفَّرَ لديهم ما يحتاجونه من الماء.

(٢٤) وزير المالية في الدولة العثمانية.

(٢٥) أونال، المصدر السابق، ص ٦٨.

ورغم كل السلبيّات أثبت هذا النجاح أن الجيشَ العثمانيّ صاحبُ قدرةٍ كبيرةٍ في المعدَّات وفي الإمدادات العسكريّة.

أقام السلطان -الذي عبر الصحراء- مخيّمَ جيشِهِ في منطقة "الخانكة"(٢٦) قُرْبَ القاهرة، أما "طومان باي" فقد نزل أمام "الرضانية" بقوّةٍ قوامها ما بين ثلاثين إلى أربعين ألف مقاتل، ولما رأى السلطان "سليم" مدافعَ جيشِ المماليك المنصوبةَ أمامهم، التفَّ من وراء جبلِ "المقطّم" وهاجم "طومان باي" من الخلف، فوقّى جيشَه نيرانَ تلك المدافع، وأمطرت مدافعُ العثمانيّين -التي تتمتّعُ بقدرةٍ عالية على التحرّك في كل الجهات- الجيشَ المملوكيَّ بوابلٍ من النيران(٢٧)، بعد أن أصبحت مدافعُ "طومان باي" عديمةَ الجدوى لأنها لا تمتلك القدرةَ على التحرّك لشتّى الجهات. وكانت حربًا ضروسًا بدأت ضحى يوم الثاني والعشرين من يناير/ كانون الثاني (١٥١٧م) واستمرّت حتى المساء، وخسر فيها جيشُ المماليك خمسةً وعشرين ألفًا ما بين قتيل وجريح.

ولما وضعتِ الحرب أوزارَها، نزل السلطان "سليم" عند ضريح "قَايْتِبَاي"، وراح يُطارِدُ مع جيشه الفارين المنهزمين في شوارع القاهرة، وقاومت المدينة، فلَبِسَ السلطان درعَه وسار بنفسه على رأس الجيشِ حتّى تمكّنَ من فتح القاهرة إثرَ حربِ شوارع ضارية استمرّت يومين

(٢٦) مدينة الخانكة: من أقدم المدن المصرية التي لها تاريخاً طويلًا، وينسب اسم الخانكة إلى "خانقاه" التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون وهو مكان للعبادة

(٢٧) المدافع التي استعملها السلطان ياووز في حملته على مصر موجودة الآن في كنيسة "إريني" بحي "سلطان أحمد"، وقد يصل طول كل واحد من هذه المدافع إلى سبعة أمتار ونصف بينما يصل عرضها إلى ٢٥ سم، وقد استطاعت شركة "مروب" الألمانية صنع مثل هذه المدافع في عام (١٨٧٥م) أي بعد سنوات متأخرة من عهد "ياووز".

بلياليهمـا، وقد أسـفرتِ الحربُ عن مقتـل وإصابةِ عددٍ كبيـر من الجنود حيث لقيَ نحو خمسين ألف جنديّ مصرعهم من كِلا الجيشين العظيمين.

وهكـذا أنهى السـلطان "يـاووز" حكم المماليك، وجعـل مصر ولايةً عثمانيّةً ذات امتيازات خاصّة، وأقام أمير الحجاز المملوكي احتفالًا رسميًا للسلطان "سليم" سلّمَه مفاتيحَ الحرمين وآثار سيدنا الرسول ﷺ المعروفة بـ"الأمانـات المقدسـة"(٢٨)، وأعلنَ آخرُ خليفةٍ عبّاسـيّ "المتوكل على الله" بحضورِ علماء من بقاع العالم الإسـلامي كافّة أن الأُسرة العبّاسيّة سلّمت زِمام الخلافة إلى السـلطان "سـليم"، ثم خَلَعَ العباءةَ السـلطانيّةَ وألبسـها السـلطان "سـليم خان"، وبهذا انتقلـتِ الخلافةُ إلى السـلاطين العثمانيّين بدءًا من ذلك اليوم.

حنكة ياووز

وقـد جـرَّب الجيـش العثماني فـي هذه الحـرب لأول مـرّةٍ المدافـع المتحرّكة حيث استطاع الجيش إحراز نجاحات كبيرة في الجبهات بفضل تلك المدافـع المتطورة.

وبعد الفتح بأيام جيء إلى السلطان "ياووز سليم" بـ"قايتباي" أحد قادة المماليك الأسرى، فقال له السلطان:

- اسـمـع يا "قايتباي"، كم أعجبني ما رأيت من شـجاعتك وإقدامِك! ومـا علمتُ من مقاومتك لجيشـي وللصدر الأعظم "سـنان"! لكن ذهبَت شجاعتك وإقدامك سدى، وخسرتم مصر في نهاية المطاف.

(٢٨) كتاب "الأمانات المقدسة" نشرت بالعربية في دار النيل.

قايتباي:

- مولاي السلطان، إنَّ إقدامكم وشجاعتكم معروفةٌ لدينا، ولكنّ سببَ انهيارِ جيشِنا أمام جنودِكم هي مدافعُكم التي تدمّر كلّ شيءٍ ولا شكّ أن تلك المدافع هي سبب خسارتنا الحرب، وفي عهد السلطان "قانصوه الغوري" أحضر أحد البرابرة مدفعًا جديدًا من "البندقيّة" ليبيعه لدولتِنا، فأبى كبراءُ الدولة أن يشتروه متعلّلين بأن رسولنا محمّدًا ﷺ أمرَ بالقتال بالسيف والسهم، فصاح البربري قائلًا:

- سيرى من يعيش أن هذا الوطن سيُؤخذ من أيديكم من قِبَلِ أيِّ دولةٍ تمتلك تلك المدافع

ويا للأسف لقد أصاب البربري.

السلطان "ياووز":

- صحيح أن القوّة لله جميعًا، لكن ما دمتم تتّبعون القرآن والسُنة بهذا القدر فلِمَ غفلتم عن أمر رسولنا ﷺ بالاستعداد للعدو بما يدفع عدوانه وخطره؟ لقد مضت تسعمائة سنة على ما قاله سيدنا الرسول ﷺ في هذا الشأن، وكان عصرهم عصر السيف والسهم، أما عصرُنا فهو عصر المدفع(٢٩).

عودة "ياووز"

قضى الجيش في مصر سبعة أشهر، أي مرَّت سنةٌ وثلاثة أشهر على الجيش منذ أن غادر إسطنبول، فالجميع الآن في شوقٍ إلى

(٢٩) أونال، المصدر السابق، ص ٦٨-٦٩.

الأناضول، لكن لم يجرؤْ أحد على البوح بهذا للسلطان، فقد أورث طولُ الإقامة في مصر وجهاءَ الدولة وأرباب الديوان شوقًا إلى وطنهم الأُمّ، وبرّح بهم الشوق لهواء الأناضول وماثه، فقال بعض أصحاب المقامات الرفيعة لـ"كمال باشا زاده" قاضي عسكر الأناضول الذي كان السلطان يحبُّ مجالسته:

- حتى متى سنعاني أشواق الغربة في هذه البلاد؟ هلّا تكلّم السلطان وتحثّه على الأوبة إلى الأناضول؟

وذات يوم بينما كان السلطان "ياووز سليم" بصحبة الشيخ "كمال باشا زاده" على صهوة الجواد سأله قائلًا:

- ما أخبارُ الجنود أيُّها المعلِّم؟

فقال الشيخ "كمال":

- مولاي السلطان، سمعتُ عامّة الجند وهم يسقون حيواناتهم من النيل، وأحدهم يُنشد على لسانهم:

ما الذي بَقِي لنا من مُلك العرب
وكم قضينا بأرض الشام وحلب
وكلُّ أهل الدنيا في رَغَدٍ وطرب
هلمّ يا أخي إلى الأناضول ودع عنك العتب

غمرت السلطانَ الفرحةُ بهذا الحِدَاء، وقال مبتسمًا:

- لم يعد ثمةَ ما يستدعي البقاء، هيّا بنا نعود.

وتقـررت العودة نزولًا عند رغبة الجنـود، وغادر "ياووز" القاهرةَ يوم الثالث عشر من سبتمبر/أيلول (١٥١٧م)، واتجه فورًا ناحية الشام[٣٠].

هذا الوحل شرف عظيم لي

استغرق السفر أيامًا ولما بلغوا "أضنه" بدأ المطر يهطل بغزارة، وأوى الجميع إلى الخيام، وغدت المنطقة بحرًا من الوحل، ولما توقّف هطولُ الأمطار واصلوا سـيرهم من جديد، وكان السـلطان "سليم" يسير بمحاذاة المعلم "كمال باشـا زاده"، وبينما هما كذلك إذا بجواد المعلم يندفـع إلى الأمام قليلًا فتتعثر قدمه، ولولا أنّ العالِم لم يأخذ بلجام فرسه لَهَوى على الأرض، ولما وقـع بصره على قفطان السـلطان رأى عليه وحلًا تطاير من تحـت خفّ حصانه عندما تعثر، فارتعش المعلّم خوفًا، ولـم يدرِ ماذا عليه أن يفعل، وأخذ يعتذر من السـلطان مرارًا وتكرارًا؛ وهرع الندماء لتنظيفِ الوحل من على قفطان السلطان، ولما رأى السلطان الخوف والحزن على وجه معلمه نادى ندماءه آمرًا إياهم:

- لا، لا تنظفوه.

ثم التفت إلى مساعديه قائلًا:

- عليكم أن تحتفظوا بقفطاني هذا، ولتضعوه فوق نعشـي عند موتي، فالوحلُ المتطايرُ من خُفِّ فرس العلماء وسـامٌ كبيرٌ لنا، وإنّ هذا لَشـرف عظيم لي.

(٣٠) الأستاذ الدكتور أحمد أوغور، ياووز سلطان سليم، مدينة قيصري ١٩٩٩م، ص ١٠٦-١٠٧.

وبهذا أعرب ياووز عما يكنه من تقدير عظيم للعلم والعلماء، ثم عاودوا السير، ولما وصلوا إلى خيامهم، أرسل السلطان خمسمائة قطعة ذهبية عطيّة لكمال باشا زاده[٣١].

لم نفعل هذا من أجل الهتاف

كانت مكتبة السلطان الخاصّة تنتقلُ معه جنبًا إلى جنب خلال الحملة، وكان يقرأ بنفسه حينًا ويجعل ندماءَه يقرؤون وهو يسمع حينًا آخر، وفي الطريق كان السلطان يأمر إما بتأليف الكتب أو الترجمة أو النسخ، ويَتجاذبُ السلطان أطراف الحديث مع أهل العلم والسياسة[٣٢].

وعندما لاح وجه السلطان سليم خان في سماء إسطنبول عام (١٥١٨م) تزاحم أهالي المدينة على الطرقات تحملهم سعادة عارمة، وهم يهتفون لحاكمهم وأوشكوا أن يضموه إلى صدورهم، ولكن السلطان العظيم أراد أن يدفنَ غرورَ نفسه فقال:

- لم نصبر على تلك المشقّة من أجل الهتاف، إنما ابتغينا بذلك مرضاة الله سبحانه.

ولما خيّم الظلام عَبَرَ البحرَ وتسلّل إلى القصر بهدوءٍ دون أن يراه أحد.

المرض الخبيث

في عام (١٥٢٠م) بينما كان السلطان يتنزّه في حديقة القصر قبل أيامٍ

(٣١) أوغور، المصدر السابق، ص ١١٠.

(٣٢) أوغور، المصدر السابق، ص ١٠٩.

من توجّهه إلى "أدرنه"، ذَكَرَ لنديمه "حسن جان" أنه يشعر بألم في ظهره وقال له:

- كأن شوكة مغروزة في ظهري، تؤلمني.

فقال "حسن جان" جوابًا لشكوى السلطان:

- لعل شوكة سقطت من الشجر فعلقت بقميصكم.

لقد طلب "حسن جان" من السلطان الجلوس على المقعد، ثم أخذ يتفحّصُ ظهرَه بيده، إلا أنه لم يعثرْ على شيء، ثم اشتكى السلطان بعد فترةٍ قليلةٍ من الألم نفسِه، فكشف حسن جان ظهره كلّه وتفحصه، فرأى خرّاجًا صغيرًا جدًّا بزغ رأسه الأبيض من بين شعيرات ظهره، وكان ذلك الخراج يسبب له الأوجاع[٣٣].

ساعة الرحيل إلى المولى

كبر الخرّاج سريعًا وتعمّق بمرور الوقت، وأصبح يومًا بعد يوم يُهدّد حياة السلطان، ولما انطلق من إسطنبول إلى أدرنه في صيف (١٥٢٠م) ساءت صحته كثيرًا، واضطروا إلى التوقّف، ونصبوا خيام الجيش قرب منطقة "جورلي".

تنهد الحاكم العظيم وزفر ثم قال لمن حوله:

- لا سفرَ لنا بعد اليوم إلا إلى الآخرة.

(٣٣) صلاح الدين طنسال، ياووز سلطان سليم، أنقره ١٩٦٩م، ص ٢٤٩.

وهذه الكلمات الأخيرة قد أحزنت مَن في الخيمة حزنًا شديدًا، ولم يستطِع القادةُ المكوثَ بين يديه فانصرفوا، وعندئذ التفت السلطان إلى نديمه وقال:

- ماذا أصابكم يا "حسن جان"؟

فقال "حسن":

- مولاي السلطان، من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءَه.

لم يركن السلطان العظيم يومًا إلى الدنيا، لذا احتدّ قائلًا:

- ألا تعلم أننا ما عملنا عملًا إلا ابتغاءَ وجهِ الله تعالى وما قصّرنا في حبنا له، فماذا رأيت منا لتقول ذلك؟

فاستحى "حسن جان" وقال:

- حاشاك يا مولاي السلطان، لم أعنِ ما فهمتم، بل أقصد أن هذه ساعة على المرء أن يلجأ فيها إلى الله، ويستسلمَ له ويصبر.

رقود في سكينة

أفنى السلطان عمره الذى ناهز الخمسين عامًا في الجهاد على صهوة جواده وداخل خيمته المتواضعة، وكان حظّ السلطنة من عمره هذا ثمانية أعوام وأربعةَ أشهر وثمان وعشرين يومًا، وفارق الحياة في الثاني والعشرين من سبتمبر/ أيلول عام (١٥٢٠م) في يومٍ خريفيّ قارس.

يقع ضريح السلطان "ياووز سليم" أعلى تلّ يُطِلُّ على الخليج أمام محراب جامع سُمِّي باسمه في حيّ الفاتح بإسطنبول.

وقد ثُبِّتَ ضريحُ السلطان "سليم" فوقَ قاعدةٍ رخاميّة مُحاطَةٍ بسياج مزخرفة وسط مقبرته، ويظهر من خلف الزجاج المحيط بالتابوت قفطانُ السلطان الملوَّثُ بالوحل الذي تطايَرَ من خفِّ فرَسِ الشيخ "كمال"، ولونهُ يميلُ إلى الإصفرار.

وتشيرُ الكتابة المرقومة على لوحةٍ من الخزف الصينيّ إلى أنَّ اكتمالَ الضريح كان في يوم العشرين من نوفمبر/تشرين الثاني (١٥٢٢م) بعد وفاة السلطان بسنتين وشهرين تقريبًا بأمر ابنه السلطان "سليمان القانوني".

هذا البطل العظيم القائل "عرش هذه الدنيا أكبر من أن يتربّع عليه سلطان واحد، وأصغر من اثنين" يرقد الآن في هدوء تكلِّله السكينة في ضريح بهيّ وتُحيطُ به المروج والزهور وأشجار السرو في حديقة تحظى بعناية فائقة.



إنه نسـر البحـر الذي لا يُغلَب، إنه البطـل الذي دمّر بأسـطوله المكون من مائةٍ واثـنتين وعشـرين سفينة أسطولاً قوامه ستمائة سفينة يقوده «أندريا دوريا» الصليبيّ في «براوزة (Preveze)».

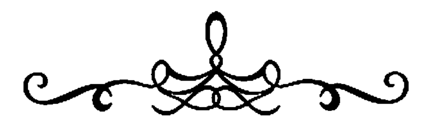
لقد كان يقول: "إيماننا هو أعظم ما نملكه من عتاد متفوّق".

إنه القائد الذي اقترح على الدولة العليّة غزوَ «أمريكا»، وأصبح اسمُهُ يُرعب أسـاطيل البحر الأبيض المتوسط، إلى أن فاز بلقب «أعظم بحّارة العالم»، وعندما مات نعاه التاريخ بأن "رئيس البحار قد مات".

إنّه أقوى بحارة العثمانيّين، وصاحب نصر «براوزة»،

إنه البطل «خير الدين باربـروس بـاشا».





خير الدين باربـروس بـاشا وانتصار "براوزة"[٣٤]

"خير الدين باربروس" هو قائد القوات البحرية العثمانية الذي أوصلها إلـى أوج قوتهـا، ولـد "خيـر الدين باربـروس" عام (١٤٧٨م) واسـمه في الأصـل "خضـر رئيـس"، وهو أصغـر إخوته، وقـد هاجر والـده "يعقوب آغـا" من "واردار ينيجه (*Vardar Yenice*)" إلى جزيرة "مدللي" أثناء توطين الأتراك فيها، وذلك بعد أن فتحها السـلطان الفاتح ومنحه منها مسـاحات كبيرة.

ولما بلـغ الخامسـة والعشـرين مـن عمره صنَـع سـفينة صغيرة، وبدأ يمـارس التجـارة ما بين جزر "مدللي" و"سـلانيك" و"أيريبـوز"، وكان هو وأشقاؤه تحت حماية "شهزاده كوركوت"، لكن لما تولى السلطان "ياووز سـليم" العرش عـام (١٥٢٠م) اضطربت أمورهم، إذ بدأ السـلطان يبحث عن "كوركوت" في كلِّ مكان، ويقتل بلا هوادةٍ كل من يساعده أو يخفيه، ويحرق الأخضر واليابس في سبيل العثور عليه إن جاز التعبير؛ لذلك قرَّر خضر رئيس وشقيقه الأكبر "أوروج" مغادرة مدللي.

(٣٤) براوزة: وتسمى أيضًا "بريفيزا" وهي مدينة تقع غرب اليونان.

في سبيل الله

اجتاز "خضر رئيس" البحر الأبيض المتوسط من الشمال إلى الجنوب على متن سفينة جديدة اشتراها من "براوزة"، ووصل إلى جزيرة "جربه(*Cerbe*)"، والتقى فيها بأخيه "أوروج"، وبحث الشقيقان عن ميناء آمن يرسو فيه أسطولهما الصغير الذي يتكوّن من سفينتين، فقرّرا التوجُّه إلى "تونس"، وهناك قدّما هداياهما إلى سلطان تونس "الحفصيّ"، وطلبا منه قائلين:

- امنحونا من دولتكم ميناءً آمنًا نؤوي فيه سفننا، ثمَّ نجاهد في سبيل الله ونبيع غنائمنا في أسواق تونس؛ فتزدهر التجارة ويستفيد المسلمون أيضًا، ونعطيكم الثُّمن من مال الغنيمة.

وافق سلطان تونس على هذا العرض، ومنحهم ميناء "خلق الوعد"، فقضوا فيه الشتاء، ثمَّ أبحروا في الربيع إلى البحر الأبيض المتوسط، فكانوا يستولون على سفن "إسبانيا" و"البندقيّة" ويعودون منهما بغنيمةٍ وافرةٍ إلى تونس، ولما كثرت سفنهم اتخذوا جزيرة جربه قاعدة لهم، وامتدّت غاراتهم حتى وصلت إلى سواحل إيطاليا، وازدادت شهرتهم في أوروبا يومًا بعد يوم وخصوصًا عندما هاجم أسطول "باربروس" سواحل "صقلية" هجوما قويًّا، بل إنهم أضحوا كابوسًا على السفن المسيحية.

وفي عام (١٥١٣م) سيطر الأَخَوان "أوروج" و"خضر" على مدينة "جيجيللي" المستقلة، وأحبَّهما أهل المدينة كثيرًا، ويُعدّ إعلان أهل

"جيجللـي" "أوروج رئيـس" سـلطانًا عليهم حجرَ الأسـاس فـي بناء دولة "إخوة باربروس" شمال إفريقيا.

دعاء السلطان سليم

وفي عام (١٥١٥م) أرسـل "إخوة باربروس" "محي الدين رئيس" إلى إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية بستِّ سفن لطلب الدخول تحت حماية السـلطان "ياووز سـليم"، ورسَـتْ السـفن أمام "سـراي بورنو"، وأطلقت مدافعُها النيرانَ تحيّة للسلطان.

اسـتقبل السـلطان "سـليم خان" "محي الدين رئيس"، ورحّب برسالة "خضر رئيس"، ورفـع يديه ودعا لـ"باربروس" وملّاحيه قائلًا:

- اللهـمّ بيّـض وجه رجـال أوروج وخيـر الدين في الدنيـا والآخرة، واجعل سـيوفَهم مسـلولة، وعدوّهم مقهورًا، ومعاركهـم منصورة في البرِّ والبحر، واجعل النصر حليفهم دائمًا.

ثمَّ أمر السـلطان بصناعة سفينتين من نوع "قادرغا"، وهي سفينة كبيرة مُسطَّحة تسير بالمجاديف على متنها سبعة وعشرون مقعدًا.

وما إن مضت مدّة حتى استقبل السطان سليم "محي الدين رئيس" مرّة ثانية وأهداه سيفين مِقْبضُهما من الألماس وحُلّتين وقُنْزُعَتَينِ، وقال له:

- أعط يا رئيس كلًّا من خير الدين وأوروج بك سفينةً وسيفًا وقُنْزُعَة، وأخبرهم بأنّني سعدت بهداياهم، ودمتم في رعاية الله وأمنه، ونصركم الله على أعدائكم، وإذا دعتكم الحاجة لشيءٍ فاطلبوه مني[٣٥].

(٣٥) يلماز أوزطونة، مذكرات بربروس خير الدين باشا، إسطنبول ١٩٨٩م، ص ٣١.

وهكذا قد نالت إخوة "باربروس" مساندة الدولة العثمانية.

استشهاد أوروج رئيس

وبعد أن فتح أوروج رئيس "الجزائر" ومدينة "شرشال" في الغرب ومدينة "بجاية"(٣٦) -الخاضعة لحكم الإسبان، والتي تقع ضمن حدود الجزائر-؛ تمّ تعيينه سلطانًا على مقاطعة الجزائر، ثمَّ أعقب هذا بفتح "تلمسان" و"تنس"(٣٧) عام (١٥١٧م)، إلا أنَّ الإسبان اتفقوا مع أبناء البلد الأصليّين، واستردُّوا تلمسان بعد عام واحد، وسقط "أوروج" شهيدًا أثناء مواجهتهم.

تأثر "باربروس" كثيرًا باستشهاد أخيه الأكبر "أوروج"، وصاح قائلًا:

- لو أعملتُ السيف في بلاد الفرنجة كلِّها، لما كفاني ثأرًا لإخوتي ورفقائي.

استتبَّ حكم "خير الدين باربروس" في الجزائر وتونس، وفي الأيام التي هيمن فيها على البحر المتوسط سمع بحّارته وهم يُنشدون:

فخرٌ وخيلاء قد وجب
لعدوِّنا لو أنَّ له بقًا كُتِب

لقد أقسم "باربروس" عقب استشهاد أخيه أن يشدَّ الخناق على العدوّ في ثغور إفريقيا والبحر المتوسط، وعندما سمع الأسطول الأسبانيّ بوفاة أخيه "أوروج" هاجموا الجزائر بجيش قويّ، إلا أن هذا الهجوم أسفر

(٣٦) بجاية: مدينة ساحلية في الجزائر.

(٣٧) تنس: مدينة تقع على بعد مائتي كيلو متر غرب الجزائر العاصمة، أي بين مدينتي "شرشال" و"مستغانم" على الساحل الغربي للجزائر.

عن مقتل ما يزيد عن عشرين ألفِ مقاتلٍ من الجنود الأسبانيّين، ثم لاذوا بالفرار، وتركوا خلفهم مئات الأسرى بينهم أربعة وعشرون قائدًا بحريًّا.

وقد صكّ باربروس النقود باسم السلطان "سليم خان"، واستقبل الأمراء العرب وخاطبهم قائلًا:

- إنَّ سلطان العالم "سليم خان" هو خليفة سيدنا رسول الله ﷺ، فكيف تدعون في الخطبة لسلطان المغرب وتصكّون النقود باسمه وتتركون سلطان الدنيا وخليفة المسلمين؟! كفُّوا عن هذا، وصكّوا النقود باسم سلطاننا؛ ففي هذا مستقبلكم وفلاحكم وسيادتكم، والويل لمن ينحرف عن هذا الطريق[٣٨].

خضر رئيس هو خيرٌ ونصرٌ للدين

أصبح "باربروس" وحيدًا بعد استشهاد شقيقه الأكبر، فأرسل في تشرين الأول عام (١٥١٩م) "حاجي حسين" إلى إسطنبول ليطلب مزيدًا من الدعم العثمانيّ؛ استقبل السلطان "سليم" "حسين آغا" في قصر "يالي" بحفاوةٍ كبيرةٍ، وأعرب عن سروره وسعادته لما حقَّقه "باربروس" من إنجازات في إفريقيا قائلًا:

- إنّ خضر رئيس نصرٌ وخيرٌ للدين.

وقد مكث "حاجي حسين آغا" واحدًا وأربعين يومًا في إسطنبول، ثمّ ودَّعه السلطان "سليم خان"، وأرسل معه رسالة إلى "باربروس" بخطِّ يده أعلن فيها تنصيبه أميرًا على الجزائر، ومنحه حقّ تجنيد المتطوعين

(٣٨) أزطونه، المصدر السابق، ص ٤٨.

من الأناضول، وأرسل له وحدةَ مساعدةٍ عسكريّة تتكوّنُ من ألفي جنديّ من الإنكشارية ورجال المدفعيّة، ومنذ ذلك الحين عُرف "خضر رئيس" بـ"خير الدين" باشا.

بناءُ حضارةٍ جزائريّةٍ جديدةٍ

وفي السنوات اللاحقة بسط "خير الدين" باشا نفوذه في المنطقة بأكملها ما عدا جزيرة صغيرة تابعة للإسبان، وأخذ يهدّد بأسطوله الذي تجاوز عدد سفنه خمسًا وثلاثين سفينة سواحل إيطاليا ومن بعدها سواحل إسبانيا.

شكّل "باربروس" دعمًا كبيرًا لمسلمي غرناطة (الأندلس) الذين عانوا ظلمًا كبيرًا وقهرًا عظيمًا، إذ نقلت سفنه هؤلاء الناس المظلومين إلى سواحل إفريقيا، حتى تجاوز عدد المسلمين الذين تمّ إحضارهم إلى الجزائر سبعين ألف نسمة، وعلاوة على ذلك فقد أصبحت الجزائر أغنى مدن البحر المتوسط بالغنائم التي تمّ الاستيلاء عليها.

إنَّ الكاتب الإنجليزي "لين بول" تحامَلَ كثيرًا على "باربروس" الذي ذكره بين طيات كتابه الشهير "قراصنة البربر"، حيث قال:

> "ما تولّى "خير الدين باربروس" أمرًا إلا نجح فيه، فقد قام مسلمو الأندلس -وهم سبعون ألف شخص هاجروا من إسبانيا إلى الجزائر- بإعمار الجزائر وإعادة مجدها القديم، وقد قام الفلاحون المهرة الذين تربوا في أحضان الحضارة الأندلسية العربية والفنانون الذين لم تنتفع منهم الحكومة الإسبانية؛ بالعمل على إثراء الحضارة الجزائرية والإرتقاء بمستوى الشعب الجزائري"[٣٩].

(٣٩) راغب شوقي يشيم، شخصية بربروس، موسوعة تاريخ الحياة، إسطنبول ١٩٦٩م، المجلد العاشر، ص ١٠ وص ٦١.

كانـت غايـة هـذا الحاكم القـويّ في تونـس والجزائر إعادةَ تأسـيس حضارة إسلامية في المنطقة، ونقل حضارة الأندلس إلى العالم الإسلاميّ.

فتح حصن "بانون (*Panon*)"

شيَّد الإسبانُ حِصْنًا منيعًا سمُّوه "بانون" على منطقة صخرية من ميناء الجزائر تبلـغ مساحتها ثلاثمائة متر، ووضعوا فيه مئات الحرّاس والمدافـع، وكان قائد الحصن قبل فتح الجزائر يأمر بقصف الميناء والمآذن بالمدافـع أثنـاء رفـع الأذان للتسـلية؛ لذلـك همَّ "باربـروس" بالاسـتيلاء على هذا الحصن لأهميته الإسـتراتيجية وطالب بتسـليمه، ولما رفض الإسبان هذا الطلب أمر بقصف الحصن بالمدافـع حتى سقط في التاسـع والعشرين من مايو/أيـار عام (١٩٢٩م)، ثمَّ أمر "باربـروس" بإحضار قائد المدفعية الذي حطَّم كثيرًا من المآذن وأطاح برقاب المؤذنين، وصرخ في وجهه قائلًا:

- أيُها الكافر! سمعنا أنك قنّاص لا يُخطئ الهدف؛ وقد حطَّمت بكلِّ قذيفة مِئْذنةً، والآن حان دورك لتُقْذَفَ كالقذيفة.

ثـم زجَّ بهذا الخائن في المدفـع، وقذفه باتّجاه البحر، وأعدم أعوانه، وأمـر بتفجير السـاحل الصخري بالألغام(٤٠)، ثمَّ أحضر ثلاثين ألف أسـير من السجون، وأمرهم بردم المسافة الواقعة بين السـاحل الصخري والميناء لكي يتمكن من صد هجمات الموج بهذه المتاريس.

دعوة السلطان "باربروس" إلى إسطنبول

تـرك "باربروس" عـرشَ الدولة التركية التي أسسـها شـقيقه "أوروج"

(٤٠) الألغام: طريق يشق على شكل نفق تحت الأرض. وطبقًا للقواعد يتم وضع بارود في مواضع عدّة بهذا الطريق ويتم إشعالها، لفتح ممر في الحصن المطلوب إسقاطه، أو لتدمير جزء من قوات العدو.

فـي الجزائـر، ممتثلًا أمر السـلطان ومتوجّهًا إلى إسـطنبول، وكان شـعب الجزائر قد أحبَّ "باربروس" كثيرًا، ولقّبه بسـلطان الجزائر، بعد أن انتصر فـي معاركـه البحريـة والبرية على إسـبانيا أقوى الدول المسـيحية آنذاك، ولُقِّب "ملك البحار"، وقد قام السـلطان "سـليمان القانوني" بإرسـال أحد مستشـاريه "سنان جاووش" برسالة إلى "باربروس" في الجزائر وذلك بعد أن رأى أنـه قد حان الوقت لإعادةِ هيكلةِ الأسـطول العثماني والاسـتعانة بهؤلاء البحارة العباقرة، وقد جاء في هذه الرسالة:

"أيهـا البطل "خير الدين" باشـا حاكم ولايـة الجزائر العربية،
اعلَـمْ أنني أرغب فـي الإغارة على ملك إسـبانيا، فعيِّن نائبًا عنك
وهلمّ إلى إسطنبول، وإن لم تجد مَن ينوبُ عنك فأخبرني".

وما إن قرأ "باربروس" رسالة السلطان حتى توجّه إلى "سنان جاووش" قائلًا:

- سـمعًا وطاعةً، سـآتي إلى إسطنبول في أسـرع وقت، وأُقدّم الولاء والطاعة للسلطان.

"خير الدين" باشا في إسطنبول

أناب "خير الدين" باشا ابنه من التبنّي "حسن آغا" في منصبه، ومضى إلى إسـطنبول بأسـطول قوامه ستّ وعشرون سـفينة، واستولى في طريقه علـى ثمانـي عشـر سـفينة، فأصبح لديـه أربـع وأربعون سـفينة، ووصل إسـطنبول في السابع والعشـرين من ديسمبر/كانون الأول عام (١٥٣٣م)، وتدفّق أهل إسـطنبول نحو السـاحل لرؤيته رَغْم برودة الشتاء القارس؛ إذ كان النـاس يتشـوّفون لرؤية "باربـروس" البطل العظيم، فأمـر "باربروس"

بإطلاق نيران مدافعه تحيّةً للسلطان الأعظم وأهل إسطنبول الأجلاء الذين خرجوا لاستقباله بهُتافات قويّة.

استقبل السلطان "القانوني" "باربروس" ومن معه في صباح اليوم التالي بحفاوة كبيرة، وقبّل كلٌّ منهم يد السلطان تقديرًا له، علمًا بأن ملوك أوروبا حينئذٍ لم يكونوا يحظون باستقبال السلطان لهم بل كان الصدر الأعظم هو من يقابلهم، ثمَّ عرض السلطان "القانوني" قراره على "باربروس"، فقال له:

- أريدُ منك أن تتولّى قيادة أركان البحرية العثمانية لأرى كيف ستديرها وتحقق لنا الانتصارات، ولن آخذ منك إمارة الجزائر وتوابعها، وليحكمْها من شئتَ نيابةً عنك، لكنّني أريد أن تُناقش هذه الأمور مع وزيري الأعظم "إبراهيم باشا" في حلب، فانطلق إليه، ثمَّ عُدْ لنتشاور مرّة أخرى"[٤١].

وهكذا تولى "باربروس" قيادة القوّات البحريّة وبالإضافة إلى ذلك ظلَّ واليًا على الجزائر.

انطلقَ "باربروس" إلى حلب في الشتاء البارد ليقابل الوزير الأعظم إبراهيم باشا الذي كان ينشغل بحملة على "إيراقين"، واستلم منه قرار تولّيه قيادة البحريّة العثمانيّة، ثمَّ عاد إلى إسطنبول في غضون عشرةِ أيام.

وعبَّر "خير الدين" باشا عن مشاعر فرحه باستلام الأسطول العثمانيّ فقال:

---

(٤١) أوزتونة، المصدر السابق ص ٨٤.

- مـا أعظمها من فرحة! لقد وُلِّيتُ قيادةَ أسـطولٍ تعجز كلُّ أسـاطيل الفرنجة عن مواجهته، ففيه مصنـع للسـفن البحريّة يعملُ فيه عشرون ألف جنـديّ، بل إنَّ كفار البندقيّة كانوا في أوقات السِّـلم مع سـلطاننا يطلبون منه أن يصنـع لهم السفن في ذلك المصنـع، وما النصر إلا من عند الله.

فكرة الحملة على "أمريكا"

وقد أفصح "خير الدين باربروس" باشا للصدر الأعظم "إبراهيم" باشا عن أفكاره تجاه العالم الجديد المكتشف حديثًا وهو "أمريكا"، فقال:

- لو أعددنا حملة إلى "العالم الجديد"؛ لاستفدنا كثيرًا من هذا العمل.

لكنَّ الصدر الأعظم رفض هذا العرض قائلًا:

- لا شـأن للدولة العليَّة بالبحار البعيدة، حسـبنا السـيطرة على البحر المتوسط والمحيط الهندي.

حملةٌ في موسِم الشتاء

كان تنصيـبُ "باربروس" قائدًا للقـوات البحرية العثمانية صدمةً كبيرةً للـدول الأوروبيـة، وخصوصًا "كارل الخامس" ملك إسـبانيا الذي عرض على "باربروس" التاج والعرش وغيرهما من الثروات مقابل رفضه منصب رئاسة الأسطول العثمانيّ.

وبعد أن نصّب السلطانُ "سليمان" القائدَ الجديد نسرَ البحرِ المتوسّط بقيادة الأسـطول العثماني حتى قـرّر "باربروس" الخروج بحملة في فصل الشتاء القارس، ولما سمـع السلطان بذلك قال له:

- أخشى أن يُصيبَك ضررٌ.

فأجاب القائد البحريّ العظيم:

- البحر المتوسط بيت خادمكم ومثواه، ولن يصيبني ضررٌ منه.

غادر "خير الدين" باشا إسطنبول على رأس ثمانين سفينة من الأسطول العثمانيّ في ربيع (١٥٣٤م)، وفتح ميناء "ريجو" و"مسينا" على سواحل مضيق مسينا جنوب إيطاليا، وكبَّلَ في سُفُنِهِ ستة عشر ألف أسير، حتى فاق عددُ الأسرى عددَ أفراد الأسطول، وأرسل إلى إسطنبول مفاتيح ثمانية عشر حصنًا ما بين صغير وكبير لضمِّها إلى الأملاك العثمانية، وستّةَ آلاف أسير على متنِ أربعين سفينةً، وأربعَمائةٍ وخمسةً وعشرين صندوقًا كبيرًا مليئًا بالغنائم تحمِلُها أربعون سفينة.

دخل "باربروس" تونس في الثاني والعشرين من سبتمبر/أيلول (١٥٣٤) بعد هروب سلطانها "مولى حسن"، ولكن "شارلكن" شنّ حملة على تونس بعد عام واحدٍ واستردّ المدينة في الحادي والعشرين من يوليو/تمّوز عام (١٥٣٥م)، وكان "باربروس" حينئذٍ قد عاد إلى الجزائر، ثمّ توجَّه إلى جزر "بلائير" باثنتين وثلاثين سفينة، فاستولى على جزيرتي "مايوركا" و"مانوركا" الإسبانيّتين، وسبى فيها خمسة آلاف وخمسمائة أسير، واجتاز جبل طارق مارًّا بخليج "قادس"، ودمَّر ميناء "فارو" الشهير جنوب البرتغال.

مائةٌ واثنتان وعشرون سفينة تواجه ستّمائة سفينة

بعد أن عاد "خير الدين باربروس" إلى إسطنبول والتقى بالسلطان "القانوني" مرة أخرى، خرج إلى البحر في ربيع عام (١٥٣٨م)، وفتح

ثمانـي وعشـرين جزيرة من جـزر "البندقية" جنوب "أغريبـوز (*Eğriboz*)" وأربعَ قِلاعٍ وجمـع عشـرين ألف أسـيرٍ وأرسـلهم إلى إسطنبول، وهكذا أصبحت هذه الجزر تحت الحكم العثمانيّ سوى جزر "صاقيز" و"كريت" و"قبرص"، وبذلك تمّ تأمين جميـع الطُّرق البحريّة أمام العثمانيّين.

في تلك الأثناء أُقيمت مُعاهدة جديدة بين كلٍّ من "إسبانيا" و"البابـاوية" و"البندقيـة" و"جنـوة" و"فلورنسـا" و"البرتغـال"، وجُهّـزت -علـى جنـاحِ السـرعةِ- أكثر من ستمائة سفينة مُعظمها سفنٌ حربيّة تابعة لدول مختلفة، وكان الهدفُ منه إنشـاءُ أسـطول قـويّ للقضاء على الأسـطول العثمانيّ، وعلـم "باربـروس" بتجمُّعها في جزيرة "كورفو" عند وصوله إلى مشـارف جزيرة "أغريبوز" في الثاني والعشـرين من سبتمبر/أيلول (١٥٣٨م)، وبلغه أنّها حاصرت قلعة "براوزة".

حملـتْ سـفن العدوّ علـى متنها ما يزيد عن ألفين وخمسـمائة مِدفـع وسـتين ألف جنديّ، وبالإضافة إلى ذلك كان أسـطولُ العدوِّ يضمُّ ما بين خمس عشرة إلى عشرين سفينة ضخمة تُسمّى "كراكا" وعلى متن كل منها ألفـي جنـديّ، وكان "أدريـا دوريا" هـو قائد هذا الأسـطول العظيم، وبعد يـومٍ واحدٍ من حصار الأعداء لقلعة براوزة وصل الأسـطول العثمانيّ إلى خليج "أرتا" من جهة براوزة؛ الذي كان يضمّ مائةً واثنتين وعشرين سفينةً عثمانيّةً، على متنها ثلاثمائة وستة وستون مدفعًا وثمانية آلاف جنديّ.

حمدًا لله على البشرى

قرّر المجلس العسكريّ برئاسة "باربروس" مُحاربة الأسطول الصليبيّ وحَسْم المعركة معه في تلك الليلة رَغْم تفوُّق العدوّ في العدد والعتاد.

بقـي "خيـر الدين" باشـا تلك الليلة مسـتيقظًا حتى مطلـع الفجر، ثمّ صلى وسـأل الله العـون والنصر والثبات في مواجهة العدوّ المحتشـد، ثم أسـلَم عينيه للنومِ قليلًا حتى يأخُذ قسـطًا من الراحة وعندما استيقظ قصّ الرؤيا على حاشيته قائلًا:

- بينما نحن على ساحل الميناء خرجت أسماك صغيرة إلى الشاطئ، وبينهـا سـمكتان كبيرتان، وبينما أنـا أنظر إليهما إذا برجـل يمتطي حصانًا أحمر قد انطلق نحوي مسرعًا، وقف أمامي وأعطاني مِئْزرًا مملوءًا بالسمك الصغير، وقال: خذ هذا يا "خير الدين"! هدية من السلطان "سليمان" خليفة الله في الأرض، وأعطاني معها أيضًا رسـالة، ثمّ غاب عن الأنظار، فتحت الرسـالة فرأيت آية قرآنية كُتبت بخطّ أخضرَ على ورقة بيضاء: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّـرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤٢)، قرأت الرسـالة ومسـحت بها وجهي وعينيّ، واسـتيقظت وأنا أقـول: "الحمد لله رب العالمين والحمد لله على البشرى".

ثم عبر رؤياه فقال:

- كانـت تلـك الأسـماك الصغيـرة -والله أعلـم- سـفن الأسـطول المسيحيّ، وأما جنوح سفن العدو إلى الشاطئ فهو إشارة إلى كثرة الغنائم التي سـتقع بيد الجنود المسـلمين، وأما السـمكتان الكبيرتان فهما إشارة إلى السفن الضـمخة، وأما السمك الذي يملأ المِئْزر فيشير إلى بُشرى فتح السـلطان سليمان خان "بوغدانَ"، وأما الرسالة التي فيها آيات النصر فهي بشارةٌ بالنصر على العدوّ بعون الله.

---

(٤٢) سُورَةُ الصَّفّ : ١٣/٦١

أوامر "باربروس"

بدأ "باربروس" بتوجيه الأوامِر لقوّادِ جيشه قائلًا:

- أعِدّوا سفنكم لمواجهة العدوّ، وتابعوا حركتي عن كَثَبٍ، ولا تخطوا خطوةً واحدةً إلا بأمري.

رأى "دوريا" عند طلوع الفجر توجُّه السفن العثمانية نحوه على شكل هلال، فانتابته الحيرةُ من إقدام "خير الدين" باشا وهمّته الخارقة.

كان الأسطول العثماني الحربيّ يتكّون من قلبٍ وميمنةٍ وميسرةٍ، وكان "باربروس" على القلب ومعه ابناه من النسب والتبنّي، وكلاهما اسمه "حسن"، وكان على الجناح الأيمن "قَازْدَاغْلِي صالح رئيس"، وعلى الأيسر "سيدي علي رئيس" عالم الجغرافيا والرياضيات، وعلى المؤخرة "طورغوت رئيس" قائد سِرْب المتطوّعين[٤٣].

أمّا سفن العدوّ فقد اصطفّت في ثلاثة صفوف متتالية، وفي مقدمتها السفن الحربية الكبيرة "القليون" و"الكاراكا"، أما قائد الأسطول "أندريا دوريا" فكان على رأس سفن "القادرغه" الكبيرة التي تقع في الصف الثاني من الأسطول.

الرياح والآيات

هبّت أثناء الحرب ريحٌ شديدةٌ من الجنوب، فقوّت العدو، ولاحظَ "باربروس" ما أورثته من إحباطٍ لمعنويّات جنود الأسطول العثمانيّ، فأمر بكتابة الآيات وتعليقِها على طرفي السفينة، وإذا بالريح تتوقّف.

(٤٣) بحري نيان، معركة براوزة، موسوعة تاريخ الحياة، إسطنبول١٩٦٩م، المجلد العاشر، ص ٩ وص ٨٤.

ويعقّب "كاتب شلبي" على هذه الحادثة، فيقول:

- عندما كتبت الآيات وعلّقت على طرفي السفينة، سكنت الريح وتوقّفت السفن، ويُستفاد من هذا أنّ على القادة العِظام أن يجمعوا في حروبهم بين الأسباب المادية والمعنوية ما أمكن[٤٤].

وعقّب عليها قائد البحرية الفرنسيّة بطريقة أخرى، فقال:

- كان رُبّان السفينة وَرِعًا شجاعًا، فلم يخُضْ حربًا قطّ قبل أن يُصلّي، وقد أمر جنوده بكتابة آيات قرآنية على أشرعة طويلةٍ، وربطها على جوانب سفينته التي تسمى بـ"القادرغه"، وإذا بالرياحِ تتوقّفُ فجأةً بشكلٍ عجيبٍ[٤٥].

وهناك روايات تفيد بأن "باربروس" قد أمر بكتابة الآيات على الرايات وتعليقها قبل تولّيه قيادة البحريّة العثمانيّة.

جمرة اللهب

حينما أعاق توقُّف الريح حركة سفن العدوّ الثقيلة، أمر القائد "دوريا" بقصف مدفعيّ كثيف من السفن الكبيرة الأماميّة، إلا أنّ القذائف كانت تسقط في البحر وتقصُرُ عن بُلوغ الهدف، أما المدافع العثمانية فكانت طويلة المدى، لذلك بدأ الأسطولُ العثماني بتدمير سفن العدوّ الأماميّة وعلى رأسِها "القاليون" وفي هذه الأثناء بادر "طورغوت رئيس" بالالتفاف إلى أسطول العدوّ من الخلف، ولم تعد مناورات "دوريا" تستطيع مقاومة ومواجهة مناورات "باربروس"، واستمرّت الحرب الضروس عدّة ساعات،

(٤٤) بخري نويان، المصدر السابق، ص ٨٥.

(٤٥) راغب شوقي بشيم، المصدر السابق، ص ٦١.

وأسـفرت عن تدمير سفن العدو الأماميّة تمامًا، وأمر "باربروس" باختراق صفوف العدوّ، فتشتّت الأسطول المسيحيّ تدريجيًا، وأصبح مُطوّقًا داخل حلقة.

في الثاني والعشـرين من تشـرين الأول عام (١٥٣٨م) اعترى "دوريا" يأس شـديد، وأمر أسـطوله بالانسـحاب ليلًا، وبدأت السـفن المسـيحية بالفرار مُسـتغلّة ظلام الليل، ولم يتعقّبْهم "باربروس"، بل عاد إلى سـاحة الحرب ليأمر بإحراق السـفن المتبقية فيها، وتحوّل بحر براوزة إلى جمرة لهَـب، وكأنّـه يحتفل بهذا النصر العظيم على أضواء نيران عظيمة تسـطـع في عنان السماء.

تكبّـد "أندريـا دوريـا" في هذه الحرب خسـائر فادحـة، حيث فقد ما يقرب من مائة وثمان وعشرين سفينة حربية كبيرة من طراز سفن "كاراكا" و"قاليون"، وقد كان هذا العدد الهائل من السفن المدمرة يفوق عدد سفن الأسـطول العثماني، وأما الأسـطول العثمانيّ فلم يفقد سفينة واحدة قطّ، بل أسـر ألفين ومائة وخمسـة وسبعين جنديًا مسـيحيًا، واستولى على ستّة وثلاثين قاربًا صالحا للإستخدام.

قوة الإيمان

يتحـدّث الكاتـب الفرنسـيّ "سـان دي فيللـه (*San de Ville*)"عـن "باربروس" قائلًا:

- كان "باربـروس" شـديد الـذكاء مَرِحًـا مِقْدامًـا، يحتـدّ فـي كلامـه إذا غضب، وكان شجاعًا يَقِظًا فَطِنًا وكان ينظر بعين ثاقبة لمجريات الأمور قبل بدء الحرب.

ويكشف "خير الدين باربروس" أسرار معركة براوزة البحرية في مذكراته التي استكتبها "سيد مرادي"، ويقول:

- رَغْم تفوُّق العدوّ كنا نتميّز عنه بأمور:

أولها: أنّني كنت مسيطرًا على سفن الأسطول بما فيها السفن الكبيرة، وكانت أوامري تُنفَّذ فورًا حتى في السفن البعيدة، أما العدوّ فكان بخلاف ذلك، فلم يكن "دوريا" مُسيطرًا على السفن القريبة منه فضلًا عن باقي أسطوله.

ثانيها: أنّ أسطول العدوّ مُكوَّن من أساطيل أُمم مختلفة، لا تتّفق مع بعضها، ولا تفهم لغة بعضها، كما أنَّ قائدَي سفن البابوية الإيطاليّين "كابللو" و"جيرماني" كانا يُبغضان "دوريا".

ثالثها: كانت مدافعنا تفوق مدافع العدوّ من حيث إصابتها الأهداف على بُعد، ولأني أعلم هذا فقد أبعدت أسطولي عن العدوّ، فاستطاعت قذائفنا تحطيم سفن الكفار، بينما كانت قذائفهم تسقط في البحر بعيدة عن سفننا، وكان قادة الكفار يضيقون ذرعًا ولكنهم لا يستطيعون تغيير مجريات الأمور لصالحهم.

رابعها: كانت سفننا أخفّ من سفن العدوّ في حركتها وأسرع منها، فكانت تحوم حول ميدان القتال بكل سهولة ويسر مما جعلها تدمر وتصيب سفن الكفار بقذائفها.

خامسها: ارتداء بحّارتي ملابس خفيفة وحملهم أسلحة خفيفة، وأما جنود العدوّ فكانوا يرتدون ملابس ثقيلة ويحملون أسلحة ثقيلة تُبطئ حركتهم، وهذا ما ساعدنا في التغلُّب عليهم.

وأما عن أعظم مزية لنا فهي قوة إيماننا ثم تبعيّتنا لسلطاننا الأعظم.

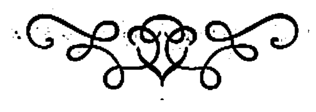
مات رئيس البحر

أرسل "باربروس" مع ابنه "حسن بك" إلى السلطان "القانوني" رسالةً بنصر براوزة، وكان السلطان في طريق عودته من حملة "بوغدان"، فأمر فورًا بعقد اجتماع طارئ استمع فيه إلى رسالة النصر مع قادته، وأمر بنشر هذا الخبر في كلِّ ولايات الدولة، وبإقامة الاحتفالات في كلِّ أنحائها.

كان "باربروس" يجيد لغات البحر المتوسط مثل الرومية والعربية والإسبانية والإيطالية والفرنسية لأنه قضى عمره في هذه البحار، وكانت آخر حملاته الكبيرة إلى "نيس".

وفي أيار من عام (١٥٤٣م) انطلق "باربروس" بأسطول من إسطنبول قوامه مائة وعشرة سفن، ثم عاد بعد أن قضى ستة أشهر في السواحل الجنوبية من فرنسا.

تفرّغ "خير الدين" باشا في آخر عمره لمصنع السفن، وكانت وفاته في الخامس من يوليو/تموز عام (١٥٤٦م) إِثْر مرض ألمَّ به، ودفن بجوار المدرسة التي بناها في "بشيكتاش".





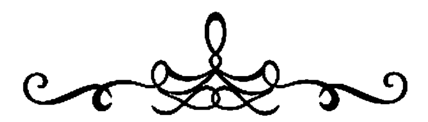
قدَّم «بيري رئيس» إسهامًا عظيمًا لتاريخ العالم الجغرافيّ، فعرَّف العالم أجمع بقارة «أمريكا»، حيث قام برسم أوّل خرائطها وأدقّها طبقًا لعصره رغم أنه لم يزرها ولم يرَها رأيَ العين.

وقدّم كتابُه المعروفُ «كتاب البحريّة» أثرًا فريدًا لحضارة العالم الجغرافيّ، وهو أقدم مرشدٍ ودليلٍ بحريٍّ لبحرَي «إيجه» و«المتوسّط».

إنه العالم النحرير والبحّار الشهير، قائد أسطول الهند، وفاتحُ «عدن» و«مسقط».

إنه «بيري رئيس».





"بيري رئيس" وأول خريطة لقارة "أمريكا"

يعتقـد أن "بيـري رئيس" قد ولـد في "غاليبولي" بيـن عامي (١٤٦٥-١٤٧٠م)، واسـمه الحقيقـيّ "محي الديـن بيري"، وهو ابن شـقيق "كمال رئيس" أحد أشـهر البحّارين آنذاك، وقائد من قادة الأسـطول العثمانيّ في البحر المتوسط.

يقول شـيخ الإسـلام "ابن كمال" عن الأطفال الذين يولدون ويتربون في "غاليبولي":

- الأطفال المولدون في غاليبولي، يتربون كالتماسيح، فالمياه مكانهم والقوارب مِهَادهم.

وجد "بيري" نفسـه بعد مرحلة الطفولة على متن سـفائن عمِّه "كمال رئيس"، ولما بلـغ الحادية عشـرة اشـترك في رحلات عمّه كلّها على مدى أربعة عشـر عامًا، وعاون عمّه "كمال رئيس" بين عامي (١٤٨٧-١٤٩٣م)

في نقل المسلمين واليهود بـ"غرناطة" الأسبانيّة إلى السواحل الشماليّة الإفريقيّة، فأمضى ستّ سنوات من عمره في القرصنة[٤٦] على السواحل الغربيّة للبحر المتوسط، وعدة جزر مثل "سيسليا"، و"صاردونيا"، و"قورسيكا"، وقاتل مع قراصنة الغرب آنذاك، واستولى على عدّة سُفُن غربيّة.

استشهاد "كمال رئيس"

انفرد السلطان العثمانيّ الثامن "بايزيد الثاني" بالحكم على إثر وفاة شقيقه "جم (*Cem*)" عام (١٤٩٥م)، ولتقوية الأسطول العثمانيّ دعا السلطان "بايزيد الثاني" القادة الأتراك البحاريين إلى الانضمام بسفنهم وبحّارتهم إلى القوات البحريّة العثمانيّة، فخاض "بيري" الصغير رِحلات البحر المتوسط مع عمّه "كمال رئيس" الذي التحقَ بالأسطول العثمانيّ، وكان أول ظهور له في تاريخ البحريّة العثمانيّة خلال معارك بحريّة دارت بين عامي (١٤٩٩-١٥٢٠م)، إذ كان رُبّانًا في تلك المعارك.

حُرِمَ بيري من أقوى عَضُد يدعمه حين فارق عمُّه "كمال رئيس" الحياة غريقًا إثر غرق سفينته بعاصفة عام (١٥١١م)، ولقد وصف البحّار الكبير "كمال رئيس" ذلك الحادث المأساويّ في كتابه بأبيات منها:

نَنْعَى كَمَالًا غَازِيًا فِي اللهِ سَارْ
صِرْنَا يَتَامَى بَعْدَهُ فِي كُلِّ دَارْ

---

(٤٦) كلمة القرصنة بجانب ما تحمله من معنى أعمال السرقة والنهب في البحار فهي تعني السفن التي تقوم بتعقب سفن العدو أثناء الحرب والاستيلاء عليها. محمد زكي بكالين، قاموس المصطلحات التاريخية العثماني، المجلد الثاني، ص ٢٩٦.

خريطة العالم

جاءت وفاة "كمال رئيس" بغتةً، فكانت ضربةً شديدة المرارة لـ"بيري رئيس"، إلا أنّ تجارب ملاحيّة خَبرَها ومعلومات اكتسبها من العمل بجواره قد صقلته ومنحته خبرة كبيرة، وعندما رأى تزايُدَ صِلات الدولة العثمانيّة ببحار العالم المعروفة، شعر بالحاجة إلى خريطة للعالم ترشد رفقاء المهنة، فابتعد مدّة عن البحار، وانزوى في غاليبولي.

في عام (١٥١٣م) أعدّ خريطته الأولى للعالم، وذلك بعد أن رجع فيها إلى المصادر المتوفّرة حينذاك، وليس في أيدينا الآن منها إلا ما يتعلّق بـ"أمريكا"، وفي أثناء حملة السلطان "سليم الأول" على مصر سنة (١٥١٧م)، دُعِي "بيري رئيس" للعمل في الأسطول العثمانيّ قائدًا لإحدى الفِرق البحريّة، وشارك في فتح الإسكندريّة، ثمّ انفصل بفرقتِه عن الأسطول، ووصل عبر النيل إلى القاهرة، ورسم خريطةً لدلتا النيل، وأورد معلومات تاريخيّة وجغرافيّة مهمّة عن تلك المناطق.

بعد فتح مصر سنحت لـ"بيري رئيس" فرصة اللقاء الشخصيّ بالسلطان "سليم الأول"، فأهدى السلطانَ خريطة للعالم أعدّها قبل أربع سنوات، فاهتمّ بها السلطان اهتمامًا شديدًا، وجاء في رواية أنّ السلطان العثمانيّ نظر إلى الخريطة قائلًا:

- يا لَه من عالم صغير!

ثمّ شطرها نصفين وأضاف:

- ولسوف نُحكِم قبضتنا على شرقه!

دِقّة "بيري رئيس"

يوضّح "بيري رئيس" في كتابه الشهير "كتاب البحريّة" أنّ رسمَ الخرائط عمل يتطلّب تحرّي الدقّة والعلم: "ولا تظننَّ هذا العمل هيّنًا، بل إنّ فيه ما فيه من الدقّة" كما أشار في الأبيات التالية إلى أن أبسط خطإٍ في عمل الخرائط يحول دون الاستفادة منها:

أمّا لو أصابها نقص قدر شعرة،

لغُدّت من سَقَط المتاع المبتذلِ(٤٧)

في إحدى ملاحظاته على خريطته، يبيّن رجوعه إلى أربع وثلاثين خريطة كي يتمكّن من رسمها، وأنّ تلك الخرائط كانت تحتوي على أسماء كثيرة جدًّا لبحّارة المسلمين.

يوضح "أوليا شلبي" -بعد مرور قرن من الزمان (القرن ١٧)- أنّ المشتغلين برسم الخرائط في إسطنبول يصل عددهم خمسة عشر شخصًا ويعملون في ثمانية ورش لإعداد الخرائط، وكان من بين هؤلاء من يجيد بعض اللغات لا سيّما اللاتينيّة، وقد رسموا خرائط جديدة بالاستعانة بآثار الباحثين القدامى وأطالسهم، ثمّ باعوها للبحّارة.

رسوم "كولومبوس"

من ملاحظات "بيري رئيس" نعرف أنّه استفاد أثناء إعداده خريطته من رسوم لـ"كريستوف كولومبوس" مكتشف أمريكا، فالكاتب خلال حديثه في "كتاب البحريّة" عن اكتشاف "كولومبوس" "أنتيليا" يوضّح وجود رسم تخطيطيّ أعدّه "كولومبوس"، بقوله:

(٤٧) الأستاذ الدكتور عائشة عافت إنان، سيرة حياة بيري رئيس ومؤلفاته، أنقره ١٩٧٤م، ص ٢٦.

- وقد وصلت إلينا خريطته.

ووفقًا لما ورد إلينا من معلومات فإنّ نُسَخ الرسم التخطيطيّ المرسلة مـن "كولومبوس" إلى إسـبانيا عام (١٤٩٨م) اسـتخدمها كثير من البحارة دليلًا، إلا أنَّ تلك الرسـوم كلّها قد اندرسـت فيما بعـدُ، والوثيقة الوحيدة الأصليّة بين أيدينا اليوم هي خريطة رسمها "بيري رئيس" فالغالبيّة العظمى مـن الكتّاب الأجانب ترجّح أنّ هـذا الأثر هو أكمل وثيقةٍ جغرافيّةٍ أعدّها تركي حتى الآن.

ورغـم أنّ "بيـري رئيـس" رسـم خريطـةَ العالـم كاملـةً مسـتفيدًا من المصادر المتاحة إلا أنّ الجزء الذي في أيدينا لا يشـير -مع الأسـف- إلا إلى الشـواطئ الشرقيّة لوسـط أمريكا وجنوبها والمحيط الأطلسيّ وبعض السواحل الغربيّة لقارتي أوروبا وإفريقيا.

وحجم هذه الخريطة ٩٠×٦٥ سم، مرسومة بالألوان على جلد رقيق، ومزيّنـة برسـوم ملوّنـة، عـلاوة على وجـود لوحتين تسـاعدان في تحديد اتجاهات الرياح ومنابعها وهما مقسمتين إلى اثنين وثلاثين جزءًا إحداهما في شـمال الخريطة والأخرى في جنوبهـا، وثلاث بُوصَلات، علاوةً على ذكـر أوصـاف ورسـوم توضـح النباتـات والحيوانـات الخاصّة بـكلّ قارة أو جزيرة، وكُتبت على الأجزاء البحريّة أو البريّة للخريطة نصوص بعضها مصحوب بالرسوم.

لم يستفد بيري رئيس من خريطة "كولومبوس" فحسب، بل من خرائط البرتغاليّين المرسومة بعد تلك الخريطة التي رسمها "كولومبوس"، وحدّد

في خريطته نتائج توصّل إليها "فسبوجي" و"سوليس" بسواحل أمريكا الجنوبيّة، وزاد عليها معلومات سطرها "كولومبوس".

تخطيطٌ لا غُبارَ عليه

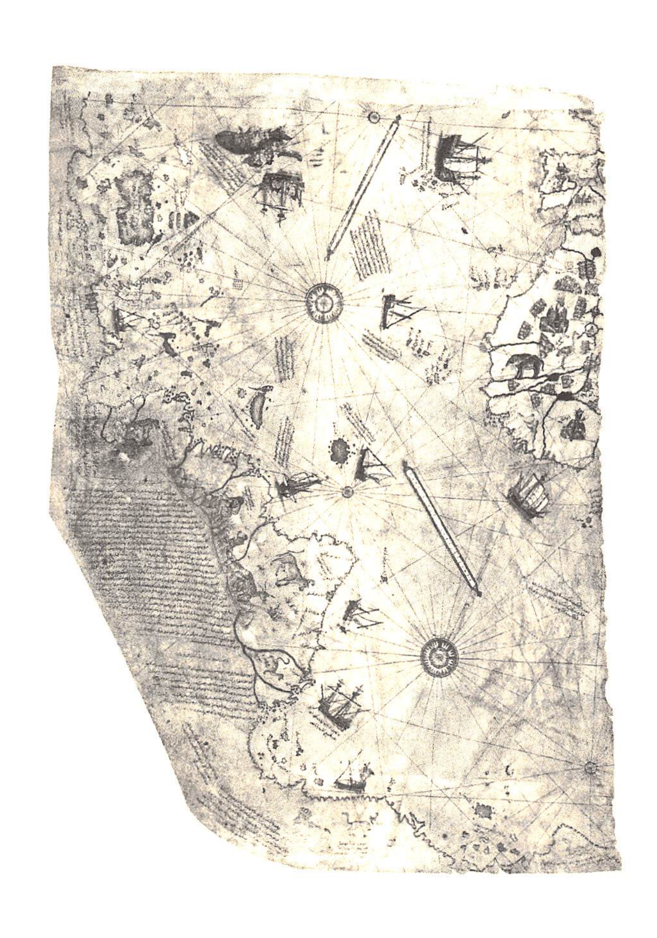
لم يكن من الممكن تحديد خطوط الطول والعرض تحديدًا صائبًا إلا بواسطة آلات حسّاسة، مثل: الكرونومترا والمساطر الخرائطية، وكان نقص تلك الأدوات آنذاك يصعّب من رسم الخرائط.

ولما كان الرصد الفضائيّ يستغرق وقتًا طويلًا، لم يكن من المتاح تحديد أماكن الجزر المكتشفة بتقنيّة سليمة، فخفيت تفصيلاتها الدقيقة.

كان رسم السواحل والخلجان اعتباطيًا بالمناقل حتى ذلك الحين، ورغم تلك الأحوال الصعبة كلّها المحيطة بـ"بيري رئيس" إلا أنّه استطاع أن يحدّد مداخل السواحل ومخارجها في مستوى مقارب لما هي عليه اليوم محدِثًا تجديدًا مهمًّا في هذا المجال، حتى رسم الأنهار أظهر فيه نجاحًا بالمستوى نفسه، وما زال الهيدروغرافيا(٤٨) أو علم وصف المياه إلى اليوم يشير إلى منطقة صخريّة تحت البحر -اكتشفها "بيري رئيس"- بعلامة (+).

ولو أنّ هناك عنصرًا آخر يثير الاهتمام في خريطة العالم لكان المسطرة المرسومة على الخريطة؛ إذ يُرى عليها مسطرتان، كلّ وحدة على المسطرة التي تقع في القسم الكبير من الخريطة يعادل ثلاثين ميلًا بحريًّا، أما الوحدة في القسم الصغير فتعادل ستّة أميالٍ بحريّةٍ.

(٤٨) المظهر الهيدروغرافي: يسمى المظهر الهيدروغرافي لأية دولة بخريطة التوزيع الجغرافي للمجاري المائية باختلاف أنواعها وأشكالها، ويختلف هذا المظهر من منطقة إلى أخرى تبعًا لعدة عوامل من بينها المناخ والتضاريس وطبيعة التربة وطبيعة الغطاء النباتي.



(خريطة "بيري رئيس" للعالم، تصف لنا الأجزاءُ المتبقيةُ منها الشـواطئَ الغربيةَ لإفريقيا والشواطئَ الشرقيةَ لأمريكا الجنوبية)

إن البوصـلاتِ والمقاييـس تعتبران من أهمّ مقاييس تقنيّة كلّ خريطة، فخريطـة العالـم هـذه لا تفتقر إلى شـيءٍ ألبتّة من حيـث التخطيط خاصةً أنّ دراسات كارتوغرافيّة قام بها "بيري رئيس" لا تختلف عمّا هو في وقتنا الحاضر(٤٩).

خريطة تفوق أمثالها بكثير

توضّـح لنـا خريطة "بيـري رئيـس" المداخـلَ والمخارج السـاحليّة، والأجراف البحريّة والخلجان، والجُزُر، وبعض الأنهار الكبرى بالتفصيل، أمّـا الخصائـص السـاحليّة خاصّـةً فلا يُرى ثمّـة فرق زائد حتّـى ولو عند الموازنة مـع الأطالسِ الحاليّة، فمثلًا السـاحل الممتدّ من "سـان توماس" حتـى خليـج "ماراجيبو" له المقياس نفسـه موازنة بخرائـط اليوم، ويمكن موازنة مسـتوى الدقّة والإحكام في سـواحل أوروبا وإفريقيا بما هي عليه اليـوم بالخرائـط الحاليّـة، إذ جـال بيري رئيس بنفسـه في تلـك المنطقة، وحدّد -بطريقة صحيحة وبواسـطة الرصد الفلكيّ- مكانَ عدّة نقاط مهمّة على البحر المتوسّط.

أظهـر "بيـري رئيـس" بواسـطة تلـك الخريطـة الأولـى للعالـم أولى المعطيـات المتعلقة بـ"أمريكا" و"أنتيليا (*Antilia*)"، وحدّد بشـكل صحيح يلفـت الانتبـاه بُعـد ذلك السـاحل عن سـواحل إفريقيـا، إذ أمكن تحديد مقدار ذلك البعد بفضل المسطرتين اللتين وضعهما الأميرال على خريطته، وباختصـارٍ: فـإن قيمةَ هـذه الخريطة تظهَرُ في تفوُّقِهـا الواضح والحقيقيّ على مثيلاتها في ذلك العصر.

---

(٤٩) ندوة بيري رئيس، الإدارة العامة للخرائط، ١٩٨٣م، ص ٢-٣٤.

كان من الطبيعيّ أن يستفيد "بيري رئيس" -الذي لم يَزُرْ أمريكا- من تجربة الرحالة الآخرين ورسومهم ومعلوماتهم وأَخْذِ رسوم "كولومبوس" بعين الاعتبار وهو يرسُم خريطَته، لكنّ الأخير لم يستطع أن يكشف عن سواحل أمريكا من "أورناق" حتى الجنوب فاكتشفها آخرون فيما بعد، وتلك الأجزاء -المرسومة على خارطة "بيري رئيس"- الساحليّة الممتدّة شمالًا من خليج "سانتوس" تتشابهُ مع نظيراتها بالخرائط الحديثة بدرجة لافتة للنظر.(٥٠)

خريطة "كولومبوس".

رغم أن خريطة "جان سفرزون (*Jean Severzoon*)" طُبعت في "أمستردام" عام (١٥٢٠م)، ورُسمت بعد سبع سنوات من خريطة "بيري رئيس"، إلا أنه لا يمكن ألبتّة المقارنة بين الخريطتين وذلك لوجود الفارق الكبير في المساحات في كلٍّ من قارات إفريقيا وأوروبا وحتى أمريكا، فمثلًا القارّة المشار إليها بـ"أمريكا" تبدو في خارطة "جان سفرزون" على غير الواقع الذي نراه اليوم تمامًا حيث تشبه قرن الثور وتبدو متاخمةً لقارّة إفريقيا، أمّا "أنتيليا" فلا أثر لها ألبتّة.

لو كان "كولومبوس" قد رسَمَ خريطة، لاستفاد منها سفرزون أيضًا، ولم يكن ليرسم أمريكا على هذا الشكل غير المقبول، ومثل هؤلاء الأشخاص الذين يسلّمون بصحّة كلّ ما يسمعونه؛ يقومون برسم الخرائط بشكلٍ خاطئٍ تمامًا، في حين أنّ بيري رئيس رسم خريطته بإتقانٍ ونجاحٍ يستحقّ لأجله كلَّ الاحترام والتقدير، مع العِلم أنه لم يذهب إلى أمريكا بنفسه.

---

(٥٠) ندوة بيري رئيس، المصدر السابق، ص ٢-٣٦

إنّ رسمَ "بيري رئيس" أدقّ الخرائط وأصحّها موازنةً بعصره -وفيها أماكن لم يرها هو نفسه ولم يذهب إليها- ووضعَه إيّاها بين أيدي العالم لهو مفخرةٌ بحقّ، لا للبحريّة التركية فحسب، بل للمعارف العالميّة أجمع وعلمه[٥١].

"كِتَاب البحريّة"

كان عهد السلطان "سليمان القانونيّ" يتميز في تحقيق الفتوحات العظيمة في الدولة العثمانيّة، إذ تولى العرش عام (١٥٢٠م)، وبعد ثلاث سنوات أمر بفتح "رودوس"، وشارك "بيري رئيس" في تلك الحملة العظيمة.

في أثناء السفر إلى مصر عام (١٥٢٤م)، تعرضت سفينة "بيري رئيس" -التي كانت تقوم بإرشاد سفينة الصدر الأعظم "المقبول إبراهيم باشا"- لعاصفة كبيرة في البحر المتوسط، ولم تستطع أن تواصل سيرَها، فاضطرَّ أن يلجأ إلى "رودس".

يصف "بيري رئيس" تلك الواقعة في الجزء الأخير من كتابه بقوله:

كنتُ أظنّ أنّ البحر تحوّل إلى طوفان نوح عليه السلام

لو أنّك كنت هناك لَصَدَّقت قولي.

وجد "بيري رئيس" في تلك الرحلة فرصة للتعرُّف إلى إبراهيم باشا عن كثب، وقد تعجب الصدر الأعظم بقدرة الأمير على الإبحار وقدرته على التأقلم والتناسب مع شتى الظروف في البحر بمساعدة ملاحظات كتبها من قبل، فأوصاه إبراهيم باشا بتنسيقها، وتحويلها إلى كتاب.

(٥١) ندوة بيري رئيس، المصدر السابق، ص ٢-٣٧.

ألحق "بيري" تلك الواقعة بنهاية كتابه، وذكر أن "إبراهيم باشا" قال له:

اجمع هذه الأوراق واجعل منها كتابًا

لتكون للقارئين دليلًا ومرشدًا

ولا تتوانَ في جمعها وتصحيحها

لنقدمها لسلطاننا الأعظم.

أثارت تلك الكلمات حماسة "بيري"، فعاد إلى غاليبولي، وأكمل كتابه، وقدّمه إلى السلطان "سليمان" بواسطة إبراهيم باشا.

يتناول "كتاب البحريّة" بصفة أساسيّة سواحل بحري "إيجه" و"البحر المتوسط" وجزرهما، حيث تجوّل "بيري رئيس" بسواحل إيجه والبحر المتوسط بدءًا من "جناق قلعه"، وسنحت له فرصة الاكتشاف في كلّ ميناء من موانئ تلك السواحل، فجمّع ملاحظاته، علاوة على جمعه معلومات -من حيث التاريخ والجغرافية والملاحة البحريّة- عن أحوال مناطق تجوّل بها قديمًا، ودوَّن مراقباته على شكل ملاحظات واعتمد عليها في تدوين كتابه، ورسم في كلّ قسم من أقسام كتابه الخرائط المتعلّقة بموضوعه عام (١٥٢١م).

رصد "بيري" في ذلك الكتاب كلّ معلومة رآها، ودوّنها بدقّةٍ وصدقٍ بالغَين، وأشار أنّ المعلومة إذا لم تدوّن فسوف يطويها النسيان:

"أيّة معلومةٍ بلا كتابةٍ تُنسى حتمًا، ويجبُ تدوينُها فورًا، لذا كنت أكتب ما أراه؛ فكنت الكاتب والبحّار في نفس الوقت!".

كان هذا الكتاب دليلًا بحريًّا، تتبّع فيه بيري رئيس السواحل المهمّة، ورسم لكلّ مكانٍ خريطةً كبيرةً توضح معالمه، وأوضح المعلومات

اللازمـة للملاحة البحريّة على الخريطة على شـكل ملاحظات مختصرة، حتـى صـار الكتـاب مرشـدًا بحريًا من جهـة، وبورتـولان[٥٢]، أو: أحدث تقنيّـة للخرائـط فـي عصـره من جهة أخـرى، وقـد احتوى الكتـاب على اثنتين وعشـرين ومائتي خريطة، فهو أثرٌ ضخمٌ مكوّنٌ من ثمانٍ وخمسـين وثمانمائة صفحة كبيرة.

مـن المعروف وجود نسـخ كثيرة لكتاب البحريّـة في مكتبات العالم، وتحتوي مكتبات إسطنبول على تسـع وعشرين نسخة منه.

خريطة أمريكا الشماليّة

رسـم "بيـري رئيس" خريطـة العالم الثانيـة عـام (١٥٢٨م) بعد مرور خمسـة عشـر عامًا علـى خريطته الأولى، وقد ترك عليهـا توقيعه كما فعل في الأولى، وبكلّ أسف لم يصل إلينا من تلك الخريطة إلا الجزء الأيسر العلـويّ منهـا، ونجـد فـي الخريطـة زخـارف ملوّنة فـي حوافهـا، وأبعاد الخريطة ٦٨×٦٩سم.

مـن حيـث تقنيّة الخريطة، يُعـدّ هذا العمل أحدث نمـوذج للخرائط البحريّـة، حيـث يحتـوي على كثير من أسـماء الريـاح واتجاهاتها، وهي أكبر من تلك المرسـومة عام (١٥١٣م)، والمنطقـة التي تغطيها الخريطة لدينا هي شـمال المحيط الأطلسيّ وسـواحل أمريكا الشماليّة والوسطى المكتشـفة حديثًـا آنـذاك، وقد رُسـم أيضًا فيهـا "مدار السـرطان" خلافًا لسابقتها.

---

(٥٢) بورتولان: هي الخرائط البحرية المكتوبة بخط اليد، والتي تحتوي على معلومات عن الموانئ والسـواحل، وكانت هذه الخرائط تُستخدم في أوروبا ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر ميلادية.

لم يرسم "بيري رئيس" في تلك الخريطة الأماكن التي لم يتمّ اكتشافها آنذاك، وترك مكانها خاليًا، ويشير رسّام الخريطة الشهير بيري رئيس بذلك إلى أنه يتصرّف وفق قواعد الأساليب العلميّة، لذا لم يرسم تلك المناطق، والخريطة الثانية لـ"بيري رئيس" تحمل قيمةً عظيمة لزمانها وللحياة العلميّة التركية أيضًا[٥٣].

قدّم "بيري رئيس" خريطته تلك لحاكم عصره السلطان "سليمان القانونيّ"، فحظيت عنده باهتمام عظيم، وهنّأه وأعرب عن تقديره.

فتح قلعة "عدن"

لا نصادف في المصادر أية معلومة عن حقبة استمرت تسعة عشر عامًا بدءًا من عام (١٥٢٨م) وقت أن قدّم "بيري رئيس" خريطته الثانية إلى السلطان حتى عام (١٥٤٧م) وقت تعيينه رُبّان الأسطول الهنديّ.

كانت عدن هي القاعدة العثمانيّة الوحيدة على ساحل المحيط الهنديّ، وعام (١٥٤٦م) استولى عليها أحد الرؤساء العرب المحليّين، فقرّرت الدولة العثمانيّة استردادها منه، وقامت بتعيين أشخاص أكثر تأهيلًا لمنصبي أمير أمراء اليمن وقيادة أسطول الهند، فتولّى بيري رئيس منصب رُبّان الهند وعمرُه آنذاك ثمانون عامًا، وانطلق "بيري رئيس" ليستردّ عدن بأسطول قوامه ستّون سفينة من مدينة "السويس" في التاسع والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول عام (١٥٤٧م)، ووصل مشارف عدن في التاسع عشر من يناير/كانون الثاني عام (١٥٤٩م)، وفي أعقاب معارك

(٥٣) الأستاذ الدكتور عائشة عافت إنان، المصدر السابق، ص ٣٩.

شديدة نجح في استرداد القلعة في الثالث من فبراير/شباط عام (١٥٤٩م)، ووصل خبر هذا الفتح العظيم إلى مصر فورًا، ومنها إلى إسطنبول، فسُرّ الجنود والبحّارة المشاركون في تلك المعارك بالمكافآت المتنوّعة على وفق رُتبهم.

محاصرة قلعة "هرمز"

في عامَي (١٥٥٠-١٥٥١م) كان البرتغاليّون نشطاء جدًّا في الخليج العربي، وتوغلوا حتى وصلوا إلى "البحرين" الخاضعة للنفوذ العثمانيّ، واستولوا على قلعة "القطيف" بالساحل الغربيّ للخليج، علاوةً على ذلك قاموا بتحريض الأهالي في المنطقة بالتمرّد على الدولة العثمانيّة، وحينما قرّرت الدولة العثمانيّة إخراجهم من هذه المنطقة، توجّه "بيري رئيس" -بعد ثلاث سنوات- في إبريل/نيسان عام (١٥٥٢م) من السويس بأسطول قوامه ثلاثون سفينة، وكان سيمرّ -طبقًا للأمر الصادر إليه- بجزر البحرين بعد أن يستولي على قلعة هرمز، ويفتح تلك الجزر أيضًا.

كان مضيق هرمز مركزًا مهمًّا في التجارة بين بلاد الهند ودول غرب آسيا، لذا كان أحد موانئ المحيط الهنديّ التي لا يمكن التخلي عنها.

بعد أن استولى "بيري رئيس" على قلعة "مسقط" في السادس من نوفمبر/تشرين الثاني عام (١٥٥٢م) أبحر قاصدًا مضيقَ هرمز، وحاصره بأسطولٍ يتألّف من ثمانٍ وعشرين سفينة وخمسين وثمانمائة جنديًّا، واستولى على مضيق هرمز بالإضافة إلى مجموعة الجزر الصغيرة المحيطة به، لكن القلق ساوره من مقاومة القلعة الداخليّة المستمرّة طويلًا، وانتابته مخاوف من حدوث هجمة مفاجئة من قبل أحد أساطيل

البرتغال التي تتَّسِمُ بالقدرة الفائقة، فرفع الحصار وانسحب إلى خليج البصرة في خطوة صائبة.

فعندما وصل الأسطول العثماني إلى البصرة كان هناك أسطولٌ برتغاليٌّ قويٌّ قد وصل إلى مشارف مضيق هرمز، وبعد مشادّة كلاميّة مع "قوباد باشا" أمير البصرة ترك "بيري رئيس" أسطوله هناك، وأخذ ثلاث سفن وأبحر مرّةً أخرى صوب مدينة السويس.

وفاة "بيري رئيس"

قدم "بيري رئيس" إلى السويس أولًا، ومنها إلى القاهرة برًّا، ولم يُحسِن "داود باشا" أمير مصر استقبالَه، حيث عاملَه على أنه قائدٌ تخلّى عن أسطولِه في البصرة، وترَكَ جيشَه وحيدًا في ميدان الحرب، فتمّت إدانته وحبسه، وأعدّ كلٌّ من "داود" باشا و"قوباد" باشا -أمير البصرة- تقريرًا ضدّ "بيري رئيس" وأرسلاه إلى إسطنبول، وفي النهاية أُدين سياسيًّا، وأُعدم بـ"مصر" عام (١٥٥٤م)، وقد تجاوز الثمانين عامًا.

ثمّة مزاعم متنوعة فيما يخصّ قتله، لكن "الكاتب شلبي" -أحد علمائنا الكبار- يقرّر حكمًا منطقيًّا بشأن "بيري"، ويعلّق بتعبيره التالي على الواقعة في أثره الشهير الذي يُعَدُّ أوّلَ تاريخٍ بحريٍّ:

> فيما بعد اتَّضح للعِيان أنّ إعدام "بيري رئيس" وقع ظلمًا، لعدّة أسبابٍ، أهمُّها أنه لم يدفع رشوة لـ"قوباد" باشا، ولقد كان "بيري رئيس" إنسانًا قلّما يجود الزمان بمثله، راح ضحيّة لغدر الزمان![٥٤].

---

(٥٤) جنجيز أورخونلي، القيادة البحرية في الهند وبيري رئيس، مجلة بلتن ١٩٧٠م، المجلد ٣٤، العدد ١٣٤، ص ٢٣٦-٢٤٧.

إنــه المعمار العبقـريّ، الذي ارتقى بفنّ العِمــارة العثمانيّة إلى عصرها الذهبيّ، وحفر اسمَه على نحو أربعمائة عملٍ فنّيٍ هندسيّ.

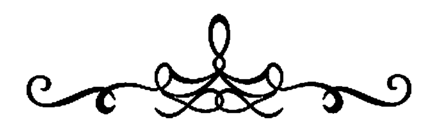
إنــه مـن بنـى سـتّةً وثلاثين ومائـة جامعٍ ومسـجد، وسـبعًا وخمسـين مدرسـةً، عـلاوة علـى الأضرحـة والمقـارئ والمستشـفيات والقناطـر والسـدود وجسـور مائية والحمّامات والجسـور والمسـتودعات والأنْزَال والقصور والتكايا...

إنــه المهندس العظيم الذي حقّق أمنيته حينما أبدعَ قبّة «السـليميّة» متفوّقًا بها على قبّة «آيا صوفيا» تفوّقًا باهرًا..

إنه الفنانُ والمبدِع العظيم «سنان»

كبيرُ المعماريّين العالميّين.





"سنان" العظيم كبير معماريي العالم

إن تاريخ ميلاد المِعمار "سنان" ليس جليّا بشكل قطعي، لكنّ أرجح الروايات في هذا الصدد أنه وُلِد عام (١٤٩٥م) أو بعد ذلك بسنوات، إذ يُعتقد أنّه انضمّ إلى الدوشيرمه [٥٥] ما بين عامي (١٥١٢-١٥١٤م)، حيث إنّ انضمام الأطفال إلى الدوشيرمه يكون في سنّ محددةٍ لا يسمح بتجاوزه، فيكون القول بميلاده في قرية "أغرناس" التابعة لمدينة "قيصري" حوالي عام (١٤٩٥م) في عهد السلطان "بايزيد الثاني" هو الأقرب إلى الصواب[٥٦].

وفي عام (١٥١٢م) أُخذ من أسرته وهو في السابعة عشرة من العمر إلى إسطنبول، وقد تحدّث في السنوات اللاحقة عن أنه كان سببًا في هداية أخيه الصغير، وهو ما يشير إلى أنّه كان طفلًا لأسرة مسيحيّة، وتزعمُ الغالبيّة العظمى من المصادر أنّه ألبانيُّ الأصل.

(٥٥) "دوشيرمه (Devşirme)" مصطلح عسكري وإداري، كان يطلق على أطفال المسيحيين الذين يتم جمعهم من البلدان المسيحيّة للعمل في السراي وجيش الإنكشاريّة، وكان يتم اختيارهم من سن (٨-١٨) سنة من أُسَر محترمة؛ ولا يؤخذ الأتراك والمسلمون واللقطاء؛ وكان يشترط فيهم حسن الخلق والمظهر العام، وكان لها قانون عام يعرف بقانون الدوشيرمه يتعلق بشروط جمع الأطفال كتجنب أخذ الغلام الوحيد، والمتزوج.

(٥٦) كاظم شيشان، منشآت معمار سنان وكركجشمه، إسطنبول ١٩٨٨م ص ٣٤.

كان يتـمّ تجميـع الدوشـيرمه مـن منطقة الروملي فقـط إلى أن اعتلى السلطان "ياووز سليم" العرش عام (١٥١٢م)، إذ جُمعت الدوشيرمة ذلك العام من وسـط الأناضول أيضًا، وقد جمـع الأطفال من منطقة "قيصري" أيضًا بموجب التعليمات.

بعـد أن جُلب "سـنان" إلى إسـطنبول تلقى تعليمًا مميّـزًا مدّة طويلة، فالتحق بمدرسـة العجم هناك، ثم بقسـم النجارة في المدرسة نفسها، ولم يكن العاملون يُسـجّلون بمعسـكر الإنكشـاريّة قبل مرور سـبع أو ثماني سنوات على الأقلّ.

ساق الفرجار الثابتة

عمـل "سـنان" فـي تشـييد الآثـار المعماريّـة كالجوامـع والخانـات والحمّامـات ومياه السـبيل بإشـراف حِرَفيّيـن مهرة، فخطَـا أولى خطواته في مهنته هذه.

فـي أثناء ذهابه إلى "جالديـران (*Çaldıran*)" عام (١٥١٤م) إنضـم إلى "عجمـي أوغلانلر" [٥٧] ضمن جيش السـلطان "ياووز"، شـاهد الأناضول طـوال سـفره، ووجد الفرصـة كلّما اسـتراح الجيش في المناطـق المهمّة ليتفحـص كثيرًا من الآثار المعماريّة، وصادف مباني كثيرة جدًّا بُنيت على طُرُز مختلفة في إيران بعد فتح تبريز[٥٨].

(٥٧) عجمي أوغلانلر: الأطفال العجم الذين يتم جلبهم من الدوشيرمه أو من الأسرى بغية استخدامهم في الجيش الإنكشاري، وكانوا يقومون بتنظيف الثكنات وتقديم الخدمات والأعمال الميريّة.

(٥٨) تبريز: هي إحدى أهم وأبرز المدن في إيران وعاصمة مُحافظة أذربيجان الشرقيّة.

أمّا في أثناء الحملة على مصر عام (١٥١٧م) فقد تحرّى دراسة أكبر قدر من الآثار الإسلاميّة العتيقة، وتجوّل بمنطقة الأهرام.

يوجز "سنان" تلك الواقعة في كتابه "تذكرة البنيان" على النحو الآتي:

"بفضل خلقتي الجميلة من بين أطفال مدرسة "عجمي أوغلانلر"، ولعتُ بحرفة النجارة، وعملتُ في خدمة معلّمي بحزم كساق الفرجار الثابتة تمامًا، فراقبت منطقتي وما حولها، ثمّ اهتممت بالتجوال في البلاد الأخرى كساق الفرجار المتحركة أيضًا، فجلْتُ وطفْتُ بلادَ العرب والعجمِ خلال خدمتي للسلطان، فما تركتُ زاويةً عاليةً ولا تكيّة خربة إلا طفت بها وتجوّلت، ثمّ عدت إلى إسطنبول"[٥٩].

ثلاثُ سفنٍ من نوع "القادرغه" [٦٠] على ساحل بحيرة "فان"

سُجِّل اسم "سنان" في معسكر الإنكشاريّة في السنوات الأولى من حكم السلطان "سليمان"، واشترك بحملتي "بلجراد" عام (١٥٢١م) و"رودوس" عام (١٥٢٢م)، وعام (١٥٢٦م) اشترك في حرب ميدان "موهاج" جنديًّا في كتيبة الفرسان "آتلي سكبان" المسمّاة بسلاح الفرسان في عهد الإنكشاريّة، وبفضل اجتهاده وما بذله من جهد فائق في تلك الحرب، لُقِّب بـ"زَمْبَرَكْجِي باشي"[٦١]، وفي أثناء حصار "فيينّا" عام (١٥٢٩م) عمل في مشروع لتحويل بعض كنائس "بودين" إلى جوامع.

(٥٩) ساعي مصطفى شلبي، "تذكرة البنيان" بلغتنا المعاصرة، إسطنبول ٢٠٠٢م ص ٣٩.

(٦٠) القادرغه: نوع من السفن في الأسطول العثماني، وكان أكبرها؛ ولكل واحدة منه خمسة وعشرين مقعدًا وتسعة وأربعين مجدافًا، يحرك المجداف الواحد أربعة أشخاص أو خمسة... كانت تعمل بالمجداف والشراع، وتحمل الواحدة منها مدفعيْة كبيرة وأربعًا وسطى وثماني صغيرة. سهيل صابان: ص ١٧٢.

(٦١) أي: رئيس خطة السهام.

عندما وصل الجيش ساحل بحيرة "فان" أثناء حملة إيران عام (١٥٣٣م) أراد الوزير "لطفي باشا" معرفة حالة جنود العدوّ بالضفة الأخرى من البحيرة، وكان من المفترض أن تُجتاز البحيرة بالسفن، لتتمّ عمليّة الاستكشاف، فاستدعى "سنان" وأمره بصنع عدّة سُفُن، ورغم نقص الآلات والموادّ إلا أنّ "سنانًا" نجحَ في صناعة ثلاث سُفُن في وقت قياسيّ؛ فعُهد إليه بتولي قيادتها، وقد أدّى تلك المهمّة أيضًا على أكمل وجه، وأنجز مهمّة الاستكشاف وعاد أدراجه، ورُقّي لذلك النجاح إلى رتبة "خاصكي"(٦٢).

وتُروى تلك الواقعة في كتاب "تذكرة البنيان" على النحو التالي:

"أمر الوزير "لطفي باشا" على نحوٍ صارم بالعمل قائلًا: اصنع عدّة سفن، ورغم عدم توفّر الأدوات والموادّ اللازمة لصناعة السفن بسبب الحرب، فقد شمّرتُ أنا ورفقائي عن سواعدنا، وصنعنا بفضل الله ثلاث سفن حربيّة -قادرغه- في وقت قصير، فأعددنا أشرعتها ومرساتها ومجاديفها وجهزناها باللوازم الحربيّة، وحينما أمر الوزير قائلًا: تولّ أنت قيادتّها؛ أبحرتُ أنا وزملائي استجابةً لأمره، وعلِمنا حالة جنود العدو، فسُرّ أشدّ السرور، ومدح هذا الفقير"(٦٣).

هل يُهتم بالجسر إلى هذه الدرجة؟

نرى "سنانًا" على أسطول "باربروس" في حملة "كورفو"(٦٤) عام

(٦٢) كلمة خاصكي: لقبٌ فخري يُطلَق على من تقدم به العمر في وظيفة معينة، وكان يُطلَق على أصحاب المناصب القديمة في مختلف وظائف المؤسسات الحكومة لتربية وتنشئة الموظفين لدوائر الدولة.

(٦٣) ساعي مصطفى شلبي، المصدر السابق، ص ٤٠.

(٦٤) كورفو: جزيرة يونانية تقع في البحر الأيوني في شمال غرب اليونان بالقرب من سواحل ألبانيا حيث يفصلها عن ألبانيا اثنين كيلومتر.

(١٥٣٧م)، وأُتيحت له في تلك الحملة الفرصةُ لتقصّي الآثار المعمارية على سواحل إيطاليا، وفي المدّة نفسها رُقّي إلى رتبة ضابطٍ بحريّ لخِدْماته الجليلة.

وفي الحادي والثلاثين من أغسطس/آب عام (١٥٣٨م) اتّجه السلطان "القانونيّ" بحملة على "قره بوغدان (مولدوفا)"، وعند وصولهم ساحل نهر "باروت" كان لا بدّ من جسرٍ لعبور الجيش إلى الجهة المقابلة؛ فبذل المعماريون كلّ ما بوسعهم لإنشاء جسرٍ، وعملوا أيامًا إلا أنّ الجسر لم يصمد وهوى بعد مدّة قصيرة في الوحل، فأعيتهم الحيل وعجزوا عن بنائه؛ لأنّ المنطقة عبارة عن مستنقع، فرشّح الوزير "لطفي باشا" "سنانًا" للسلطان قائلًا:

- مولاي السلطان، يمكن بناء هذا الجسر لو تولى أمره خادمكم الضابط البحري المدعو سنانًا، فلتأمر، وليتولَّ العمل مع رفقائه، فهو معماريٌّ حاذقٌ وماهرٌ جدًّا.

بناء على اقتراح الباشا؛ تمّ تكليف "سنان" ببناء الجسر بأمر من السلطان "القانونيّ"، ورغم أنّ الأرض كانت مستنقعًا، إلا أنّه استطاع أن ينال إعجاب السلطان ببنائه جسرًا سليمًا على متنِ "نهر باروت" في مدّة قصيرةٍ لم تتجاوز ثلاثة عشر يومًا.

بعد عبور الجيش، أبدى "لطفي باشا" اهتمامًا كبيرًا بالجسر، فاقترح على الصدر الأعظم قائلًا:

- هلّا نبني برجًا لحماية هذا الجسر العظيم، ونكلّف مجموعةً من الجنود لحمايته لكيلا يحطّمه الكفّار بعد رحيلنا!

فسأل الصدر الأعظمُ "إياس باشا" "سنانًا" عن اقتراح "لطفي باشا":

- يفكّر "لطفي باشـا" بإنشـاء قلعة بجوار الجسر لحمايته من الأعداء، فما قولك يا "سنان"؟.

فردّ "سنان" بذلك الجواب التاريخيّ:

- هـذا رأيٌ غيرُ مناسـبٍ قطعًـا، فلـو اقتحـم الكفـار واسـتحوذوا على البرج ببضعة رجال، فسـيعدّون أنفسـهم قد سيطروا على القلعة، فلا ينبغـي لنـا أن نولي الجسـر اهتمامًا أكثر من اللازم، علمًـا أنّ من الممكن إنشاء جسر جديدٍ في دولة مولاي السلطان أينما ومتى لزم الأمر.

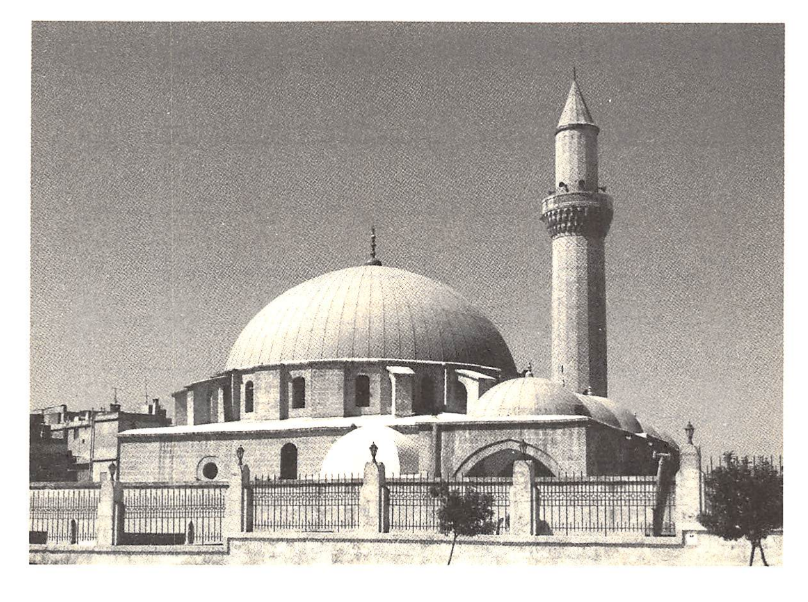
كان "صوفـي محمـد باشـا" -أميـر أمـراء روملي- آنذاك فـي مؤخّرة الجيـش، وأراد الصـدر الأعظـم استشـارته حول مسـألة الجسـر، فانتظره إلى أن جاء، ولما طُرحَ عليه الموضوع لخّص رأيه بشأن الجسر قائلًا:

- قديمًا أحرق العثمانيّون سـفنهم بعـد أن عبروا روملي، فكيف نبني نحن برجًا يتّخذه أعداؤنا ملجأً لهم، فينبغي أن نهدمَ جسرنا بأنفسنا.

وهكـذا رضيَ المعمار الشـهير بتغييبِ إنجـازه، وتدمير عمله ليحفظ كرامةَ الدولة.

مساجد في قمة الروعة

تُوفـي نقيب المعماريّيـن "عجم علي -علاء الدين علي بك-"، وبعده بقليـل فـي الثالث عشـر من يوليو/تمـوز (١٥٣٩م) تُوفـي الصدر الأعظم "إياس باشـا"، وتولى الوزير "لطفي باشـا" منصب الصـدر الأعظم، وحارَ



(مجمّع وجامع "خسرو باشا" في حلب)

رجال الدولة حينئذ في إنشاء ضريح يليق بـ"إياس باشا"، وأعربوا عن حزنهم قائلين:

- فقدنا كبير المعماريين، يا ليت لنا معمارًا مثله في علمه وكفاءته!

فقال الصدر الأعظم "لطفي باشا":

- أرى أن "سنان باشا" الذي هو كبير موظفي القصر هو أجدر الناس بمنصب كبير المعماريين.

فدعا آغا الإنكشاريّة "سنانًا"، وقال:

- قرّر الباشا تعيينك نقيبًا للمعماريين، والأمر إليك، فما رأيك؟

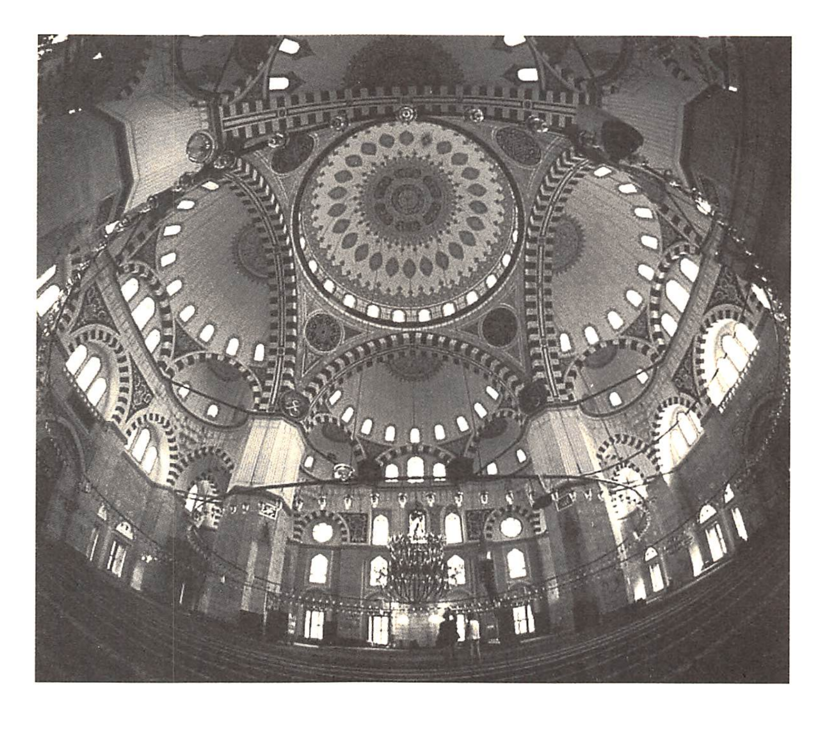
ويعرب "سنان" عن جوابه في "تذكرة البنيان" بقوله:

"شعرتُ بالضيق، وقلتُ: لقد استاء منّي "لطفي باشا" لأنّي خالفت رأيه، وتصرّفت على نقيضه في مسألة الجسر، فتوجستُ منه خيفةً لأنه ربما يتحيّنُ فرصةً لإيذائي، لكنّ حكمة الله سارية، فلم يحدث ما كنتُ أخشاه، ورغم أنّ فكرة الانفصال عن معسكر الإنكشاريّة كانت مؤلمة، إلا أنّني قبِلت المنصب في النهاية مفكرًا بتشييد عدّة جوامع ومساجد، وأنّها ستكون وسيلة للفوز بالدنيا والآخرة".

وقد ترقّى المعمار سنان إلى منصب نقيب المعماريين وهو في الرابع وأربعون من عمره، وتحقّقت له في حياته مآربه حيث شيّد مساجد رائعة من حيث البناء.

ونُقِشَ على خاتم سنان عبارة:

"الفقير سنان، نقيب المعماريين الخواصّ".



(صورة توضيحيّة للقباب الدائريّة التي يكمّل بعضها بعضًا،
التُقطت من داخل جامع "شهزاده محمد")

أما بعد أن ذاعت شهرته فأصبح نَقْشُ خاتمه:

"نقيب معماريّي ومهندسي العالم".

وبعد أن قام ببناء السليميّة، اشتهر بـ"ممدوح العالم، المعمار الفريد سنان آغا"(٦٥).

ويعتبر مجمع "خسرو باشا" -المشيد على اسم خسرو باشا- في حلب عام (١٥٣٧م) من أهم المساجد التى تجذب الاهتمام بشدّة لكونه أول الآثار العِماريّة لـ "سنان" قبل تعيينه نقيبًا للمعماريّين.

بعد عام من تولّيه الوظيفة -عام (١٥٤٠م)- كلفته السلطانة "خُرَّم" زوج السلطان "سليمان القانونيّ" بتشييد مجمّع "الخاصكي" المكوّن من جامع ومدرسة وكُتّاب -مدرسة أطفال- وتكيّة ومستشفى، وكان هذا أول عمل ينجزه بصفته نقيب المعماريين، ولقد حمل هذا المبنى عناصر ثقافة العمارة العثمانيّة المتأصّلة في نفس سنان من ناحية، واحتوى من ناحية أخرى على أولى لمساته المعماريّة الخاصّة به(٦٦).

وفي عام (١٥٤٢م) بدأ بإنشاء مجمّع باسم السلطانة ابنة السلطان "القانونيّ"، وهو مجمع السلطانة "مِهْرِماه" بحيّ "أسكودار"، وهو يتألّفُ من جامع -يُعدّ أحد معالم أسكودار المهمّة- ومدرسة وكُتّاب وحمّام ودار للمُسنّين وتكيّة ونُزُل ولم يتبقَّ منه إلى الآن إلا الجامع والمدرسة فقط(٦٧).

(٦٥) شيشان، المصدر السابق، ص ٣٥.

(٦٦) تورغت جان سوار، معمار سنان، إسطنبول ٢٠٠٥م، ص ١١٣.

(٦٧) جان سوار، ص ١٢١.

جامع "شهزاده محمد" هو عمله التدريبي

بينما أوشك مجمّع السلطانة "مهرماه" أن ينتهي، قرّر السلطان "القانونيّ" بناء جامع باسمه يليق بمجده، وفي ذلك الوقت فقد السلطان ولده العزيز "شهزاده محمد" في الخامس من نوفمبر/تشرين الثاني عام (١٥٤٣م) على إثر مرض مزمن، فغيّر وِجهته في بناء الجامع وسمّاه باسم فقيده، وتقرّر بناء الجامع على ربوة وسط قطعة أرض منبسطة تحاذي الخليج من الحدود الغربيّة لـ "إسكي سراي" حتى الحدود الغربيّة لشبه الجزيرة، أمام حيّ "إسكي أوده لر" [٦٨]، هذا الموقع الجغرافيّ المتميّز بين مسجدي "آيا صوفيا" والفاتح أضفى جمالًا بارعًا ورونقًا خاصّا لهذا الجامع[٦٩].

افتُتح هذا الجامع عام (١٥٤٧م)، وبلغت تكلفته خمسة عشر مليون آقجة[٧٠]، وكان سنان يصف مدّة عمله هذه بأنّها مدّة تدريب وتعليم وتحصيل.

أكثر سمة تلفت الانتباه في جامع "شهزاده" أنّه من طراز القباب الدائريّة التي يُكمّل بعضُها بعضًا والتي لم تُعرَف في الآثار العثمانيّة القديمة إلى أن جاء سنان وطور فن العمارة والبناء[٧١].

(٦٨) إسكي أوده لر: هي الساحة الممتدة أمام جامع "شهزاده باشا" من بناية بلدية "بيوك شهر" حتى حمام "عجم أوغلو"، وكانت تتواجد في تلك الساحة الثكنات التابعة للإنكشارية.

(٦٩) جان سوار، ص ١٣٧.

(٧٠) الأقجة: هي نوع من أنواع النقود في العصر العثماني، وهي قطعة صغيرة من الفضة، ضُربت لأول مرة في عهد السلطان أورخان عام (٧٢٩هـ) (سهيل صابان، ص ٢١).

(٧١) جان سوار، ص ١٤٣.

مجمع السليمانيّة:

أراد السلطان "القانونيّ" تشييدَ مجمّعٍ عظيمٍ يملأ صِيتُه العالم، فاستدعى المعمار "سنانًا" فور انتهائه من مجمع شهزاده محمد (الأمير محمد)، فسارع "سنان" متحيّنًا يوم جمعة فجاء موافقًا للثالث عشر من يونيو/جزيران عام (١٥٥٠م)، وفعلًا بعد أن ذُبحت الذبائح، ووزعت صدقات كبرى بين الصالحين والفقراء والمحتاجين؛ وحضر الحفل رجالُ الدولة، وعلى رأسهم السلطان "سليمان"، وجمعٌ غفيرٌ من الناس؛ وَضع حجرَ الأساس شيخ الإسلام "أبو السعود أفندي".

إنّه لَقرار عبقري من "المعمار سنان" أن يُنشئ مجمّع "السليمانيّة" على حافّة التلّ المطلّ على سواحل الخليج، ويُرى منه قصر "طوب قابي"، و"البوسفور"، وجزء من بحر "مرمرة" أيضًا، هذا الاختيار الأمثل جعل السليمانيّة مَعْلمًا مهمًا من معالم المدينة، وأتاح رؤية روعتها من مناطق كثيرة جدًّا.

أنت أحقّ بافتتاح بيت من بيوت الله

لما اكتمل بناء القبّة العظيمة للجامع المبارك وأروقته، نَقَش كبير الخطاطين "حسن قره حصاري" على قبّتِه الشبيهةِ بالسماء آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾[٧٢] بخطّ غاية في الإحكام والجمال، ونقش خطوطًا فريدة على أبوابٍ حُقّ لها أن تكون أبوابًا للفردوس[٧٣].

---

(٧٢) سورة فاطر: ٣٥ /٤١.

(٧٣) ساعي مصطفى شلبي، ص ٦٦.

يصف سنان افتتاحَ جامع السليمانيّة في كتابه "تذكرة البنيان" قائلًا:

"غادر السلطان قصرَه يوم الجمعة الخامس عشر من أكتوبر/ تشرين الأول عام (١٥٥٧م)، وطلت طلعته البهيّة، فسلَّمتُه بيده النبيلة الميمونة مفاتيح الجامع المبارك وأنا أبتهل إلى الله، دعوتُ وأسبلْتُ يديّ احترامًا، وانتظرت، فالتفت صاحب السعادة إلى "أوضه باشي"[٧٤] فورًا وقال:

- مَن الأولى والأحقّ بفتح باب الجامع؟

فأجاب مدير المراسم:

- مولاي السلطان، خادمكم "سنان" شيخ جليل، وقد بذل في هذا الأمر أقصى الجهد، كأنّه "لقمان الحكيم" في همّته.

فقال مولانا السلطان:

- أخي العزيز، أقبل، فمن الأفضلِ أن تفتح أنت بيتَ الله بالإخلاص والدعاء والتضرّع إليه.

وأعطاني المفتاح وراح يدعو لي ويثني عليّ.

فتحتُ الباب قائلًا:

- يا فتّاح!

ونلتُ من السلطان إحسانًا ورعاية لا يُوصفان".

أخّاذ أكثر من "آيا صوفيا"

اكتسب سنان خلال تشييد جامع السليمانية خبرة واسعة، حيث تلافى فيها ما وقع في "آيا صوفيا" من قصور، وقد شغلت "آيا صوفيا" موقعًا جغرافيًا متميزًا عند شبه جزيرةٍ وِجهتُها نحو الشرق، ورغم ذلك كان فيها نقاط ضعف هندسيّة وبنائيّة وعِماريّة لا تتفق مع موقعها الجغرافيّ،

(٧٤) ضابط في تشكيل الإنكشارية، كانت وظيفته تنظيم وتوجيه المراسم الاحتفالية في المواكب.

وفي سبيل تجاوز نقاط الضعف تلك تَمَّ تدعيمها في مطلع القرن الخامس عشر بحائط أقامه معماريون عثمانيّون تمّ استدعاؤهم من أدرنه، وما يزال "آيا صوفيا" قائمًا إلى يومنا هذا بفضل دعائم عظيمة أنشأها "سنان"(٧٥).

لقد صنع "سنان" منظرًا مشرقًا وفسيحًا مستغلًّا الإضاءة الطبيعيّة بوفرةٍ في أروقة السليمانيّة، فبنى مسجدًا مفعمًا بالحياة يقدّم لمن يدخله السعادة ونشوة الحياة، بخلاف "آيا صوفيا"؛ فضوؤها خافت معتم قليلًا.

عندما زار "تشارلز ديهل (*Charles Diehl*)" العالِم البيزنطيّ الشهير جامع السليمانيّة، لم يستطع أن يتمالك نفسه، وقال:

"عظمة فريدٌ نوعُها، ومقدرة خارقة، إنّ للسليمانيّة سحرًا يفوق "آيا صوفيا""(٧٦).

قنوات مائية

قُدّر عدد سكّان إسطنبول في نهاية عهد السلطان "الفاتح" بمائة ألف نسمة، وفي عهد السلطان "القانونيّ" ارتفع هذا العدد إلى ما يقرب من مائة وستّين إلى مائة وسبعين ألف نسمة، ومع زيادة عدد سكان إسطنبول بهذا الشكل الهائل لم تعد مياه العيون والآبار كافية، وظهرت بوادر أزمة المياه في المدينة، وقلّت أيضًا مياه "قيرق جشمه"(٧٧) القديمة منذ العصر الرومانيّ، وقد أعيد تشغيلها بعدما أصلحها السلطان الفاتح، حتى إنها مع العيون الأخرى لم تعد تكفي.

بينما كان السلطان القانونيّ يتنزّه قربَ منطقة "كاغد خانه" أثناء

(٧٥) جان سوار، ص ٢١٥.

(٧٦) أنييس كورتان، مكانة معمار سنان في العمارة التركية والعالمية، ص ٨.

(٧٧) أربعون صنبورا.

الصيد، لمح مياهًا تنضح من قناة مائية قديمة، فبدأ يبحث عن إمكانيّة سحب المياه من تلك المنطقة إلى إسطنبول، فشكّل اللجان وحصل على معلومات حول كيفيّة سحب المياه إلى إسطنبول قديمًا، وفي ضوء ذلك عُهد إلى المعماري "سنان" بتلك المهمّة.

بعد أن تفحص المعماري "سنان" المياه والقنوات المائية القادمة من "غابة بلجراد"، أبلغ السلطان بإمكانيّة سحب المياه منها إلى إسطنبول؛ فأمر السلطان بإنشاء القنوات فورًا، وجمع بين يدي سنان أمهرَ الحرفيّين والمتقنين لهذا العمل آنذاك وذلك للعمل تحت إشرافه(٧٨).

يروي "سنان" تلك الواقعة في كتابه "تذكرة البنيان" على النحو التالي:

"قال السلطان صاحب السعادة:

- لكل صنعة خبيرها، فلا بدّ أن نستشير رئيس المعماريين في هذا العمل، وعلينا التنفيذ لا التخطيط.

وأصدر أوامره لهذا العبد الضعيف:

- أريدك أن تستهدف وصول الماء إلى إسطنبول، وتبذل كلّ عناية به، وتنتهي من القيام بهذا العمل الخيّر منقطع النظير.

وهكذا كلّف خادمه هذا بإنشاء القنوات المائيّة"(٧٩).

وفي وقت آخر سأل السلطان "سليمان" خان المعمار "سنانًا":

- كيف يمكن سحب هذه المياه؟

---

(٧٨) شيشيان، المصدر السابق، ص ٣٤.

(٧٩) ساعي مصطفى شلبي، المصدر السابق، ص ٤٧.

- مولاي السلطان، يكمن تحقيق هذا العمل بطريقتين:

إحداهما: أن يكون العمل تطوّعيًا بأمر صارمٍ من سيادتكم.

ثانيتهما: أن تعطوا كلّ شخص أجره، وتخصّصوا مزيدًا من المال للعمال، ولا يضرّكم كثرة الإنفاق على هذا الأمر!

أجاب السلطان:

- دعنا من الإجْراء الأول؛ فالثاني هو الأنسب، وهذا العمل سيتمّ مقابل أجر من مالي الخاصّ، ولن يُبخس أحد مثقال ذرّة من حقّه[٨٠].

كانت الجسور أولى أعمال "سنان" الهندسيّة، فشيد مرافق المياه قبل بناء قناطر المياه لـ"قيرق جشمه"، وفي أثناء شروعه في البناء قال للسلطان:

- مولاي السلطان صاحب السعادة، إنّ لعبدكم الفقير تصورًا خاصًا بإنشاء القنوات المائيّة، فلا داعي للقلق حيال ذلك، وإنني على ثقةٍ تامّةٍ أنه سينال إعجابكم.

بدأ البناء، وانتشرت معه شائعاتٌ عدّة، فسعى بعض الناس إلى إثناء السلطان عن قراره مدعين أنّ "سنانًا" لن يستطيع القيام بهذه المهمة، وأنّ النقود ستذهب سُدًى، وأنّ الماء الذي سيجلبه سنان من خلال بناء الجسور ليس كافيًا ويستحيل وصوله إلى إسطنبول.

وقتئذٍ قال أحد حُسّاد المعمار:

- مولاي السلطان، "سنان" لا يبني سدًّا، وإنما يبني أحواضًا صغيرة ليسلي فؤاده، ويتلهّى بإحضار الماء من هنا ليفرغه هناك.

(٨٠) شيشيان، المصدر السابق، ص ٣٧.

ضاق صدر السلطان "القانونيّ" جدًّا بهذا الحديث، وذهب إلى المكان الذى ينشأ فيه القنوات المائية مع ثلة قليلة من الناس، وعندما وصل إليها كان "سنان" بالفعل مشغولًا ببناء أحواض صغيرة، فسأله محتدًّا:

- ماذا تفعل؟

- أحسب مدى قدرة الجدران على حمل المياه يا مولاي.

وأظهر "سنان" أدوات اخترعها لحساب قوّة ضغط المياه، فهدأ السلطان قليلًا، لكنّه لم يقتنع، فسأله مجدّدًا:

- حسنًا، أين المياه المطلوبة؟ هيّا، أرني!

فانطلق "سنان" يشرح للسلطان خطوات هذا المشروع، وحينما رأى السلطان تجمُّع المياه بوفرةٍ هنالك وانسيابَ الماء الزلال شديد النقاء، تهلّلت أساريره وهدأ، وأمر المحيطين به بإلباس سنان الحلّة السلطانيّة، ثمّ أصدر أمره قائلًا:

- أنزلوا أقسى العقاب بأولئك المفترين!

وأسرع سنان ليشفع قائلًا:

- مولاي السلطان، فلنتركهم لكيلا يتلطّخ ذلك العمل الخيريّ بالدم، وليظلّ هذا الماء طاهرًا.

هكذا صفح "سنانٌ" عن حسّاده ومبغضيه بكل شهامةٍ ورحابة صدرٍ.

خمسون مليون آقجة

بدأ إنشاء قناطر "قيرق جشمه" عام (١٥٥٤م) واستمرّ العملُ فيها

تسع سنوات لينتهي إنشاؤها تماما عام (١٥٦٣م)، وقد تكلّف هذا الإنشاء ما يزيد عن خمسين مليون آقجة، وخلال الأعوام نفسها كان "سنان" يشرف على إنشاءات كثيرة جدًّا منها جامع "السليمانيّة"، وإذا ما وازنّا بين ما أُنفق على جامع السليمانيّة وملحقاته وبين ما أُنفق على مشروع "قيرق جشمه"، ظهر لنا أن الأول أقلّ من الثاني بنسبة ٣٠٪.

أما من حيث حجم العمل المنجَز، فيُعدّ ذلك الإنشاء أعظم ما حقّقه "سنان"، وكان طول خطوط الأنابيب تصل إلى خمسة وخمسين ألفًا وثلاثمائة وأربعة وسبعين مترًا بالإضافةِ إلى ثلاثةٍ وثلاثين جسرًا مائيًا (قنطرة) على خطّ المجرى.

وأكثر هذه القناطر المائيّة أهميّة من الناحية الهندسيّة والعِماريّة هو قنطرة "ماغلوفا"، ومن القناطر التذكاريّة أيضًا قنطرة "أوزون" (١١٧م)، وقنطرة "كوزلجه"، وقنطرة "الباشا".

علاوة على ذلك، تمّ إقامة أربعة سدود على المجاري المائيّة أطلق عليها "قارانلق بنت"، "بيوك بنت"، "قيرازلي بنت"، و"أيواد"، ومن تلك المنشأة تمّ إقامة ما يزيد على ثلاثمائة صنبور تُلبّي حاجة المدينة من الماء.

جسر "ماغلوفا *(Mağlova)*"

يبدو لنا المقطع العرضي لجسر "ماغلوفا" كجذع شجرة، فهو بنيّة مخروطيّة، هذه الهيئة تُجسّد أفضل طريقةٍ لمواجهة أضرار الزلازل، وقوة الرياح، وقوة تدفق المياه؛ فسلامة هيكل الجسر ومتانته ليست محلّ نقاش، إذ تبرهن على نفسها بنفسها، أما ما نريد أن نؤكّده، فأنّ الجسر



(جسر ماغلوفا الذي بُنيَ بين عامَي(١٥٥٤/١٥٦٢م) على وادي "علي بك"
في إسطنبول، بالقرب من حي السلطان غازي حاليًا)

كلّه مصمَمٌ على طرازٍ سليمٍ من الناحية الهندسيّة، واتخذت قواعده شكل مقدمة سفينة تشقّ المياه، وتمّ تصميمه كتمثال له بنية ثلاثيّة الأبعاد.

يمتـد الجسـر بهذا النحو أمام الناظرين كأنه جسـم جمالـيّ ديناميكيّ حيويّ، وخلاصة القول أنّ الجسر ليس مجرّد أداة وظيفيّة عمليّة فحسب، بل هو كيان جماليّ يؤدّي بنجاحٍ وظيفة جماليّة نفسيّة في الوقت نفسه[٨١].

بأمر من الرسول ﷺ

بعـد وفـاة السـلطان "القانونـيّ"، تولّـى ابنه السـلطان "سـليم الثاني" (١٥٦٦م) العـرش، وورث عن والده ثروة طائلة، فحثّه المقربون منه على بناء جامـع جديد كبير، خاصّة بعد فتح اليمن وقبرص، وكان سـنان باشـا من بين هؤلاء الذين أشـاروا على السـلطان بذلك، وكان التفكير المبدئيّ لديهم هو إنشـاء مجمّـعٍ بإسـطنبول يحاكي عظمة مجمّـع السليمانيّة الذي أمر بإنشـائه السـلطان "القانونـيّ"، لكن لم يتمكّنوا مـن العثور على مكانٍ مناسبٍ.

وقتئـذٍ بـدأت فكـرة بنـاء جامـع أكبر مـن "آيا صوفيـا" تداعب أحلام السلطان "سليم"، وفي حين كان "سنان" يبحث عن مكان مناسب للجامـع، اسـتدعاه السـلطان، وأبلغه بأنّه رأى سـيدنا الرسـول ﷺ في منامه، وأمره بإنشاء جامـع باسمه في مدينة "أدرنه" والاستعداد لهذا الأمر.

عند مجيء السلطان إلى "أدرنه" بصحبة سنان رأى رؤيا أخرى مفادها أنّ سـيدنا الرسـول ﷺ يأمره قائلًا: "شيد الجامـع بميدان "قواق"، فذُبحت

(٨١) كورتان، المصدر السابق، ص ٨.



(جامع السليميّة في أدرنه)

مئات الذبائح، وحُفر أساس الجامع مصحوبًا بالدعوات وتلاوة القرآن، ووُضع حجر الأساس[٨٢].

يقول سنان في "تذكرة البنيان" أيضًا عن جامع "السليميّة":

"كان المعماريّون الغربيّون يفتخرون قائلين: لنا الغلبة على المسلمين، فلم تُبن قبّة في الدولة الإسلاميّة مثل قبة "آيا صوفيا"، وكانوا يزعمون أنّ من الصعوبة البالغة إقامة قبّة كبيرة بهذه الدرجة، ويقولون: ولو كان بإمكانهم عمل مثلها، لفعلوا هذا من قبل، كانت هذه الكلمات تؤلمني كثيرًا، وبفضل الله استطعت في عهد السلطان "سليم خان" تشييد تلك القبة العظيمة، أعلى من قبة "آيا صوفيا" بستّ أذرع، أما محيطها فأوسع بأربع أذرع"[٨٣].

بدأ تشييد جامع السليميّة عام (١٥٦٨م)، وعند الانتهاء من بنائه عام (١٥٧٤م) كان المعمار "سنان" قد بلغ الثمانين من عمره.

ثلاثمائة ألف فسيلة من الورود

في شهورٍ شارَف فيها بناءُ الجامع على الانتهاءِ، أنشأ سنان ما بين عشرة إلى خمس عشرة نزلًا في مدينة "أدرنه" حتى يكتمل المنظر العامّ للمدينة، علاوة على أنّه جلب ثلاثمائة ألف فسيلة من الورد من أدرنه لزرعها حول الجامع، واستأذن السلطان في شراءِ مائتي ألف فسيلة من زهور إسطنبول النادرة، وغرسها في فناء الجامع، ولقد كان توزيع الورود بين صفوف المصلين كل صباح يدل دلالة واضحة على العناية الفائقة بهذا العمل.

(٨٢) أندار بلار، جامع معمار سنان و جامع سليمية، أدرنه ١٩٩٤م ص ١٥ - ١٦.

(٨٣) ساعي مصطفى، المصدر السابق، ص ٨٩.

وعند النظر إلى مكان اختيار السليميّة، ندرك أنّ "سنانًا" لم يكن معمارًا فحسب، بل في الوقت نفسه كان ماهرًا متخصّصًا في تخطيط المدن.

كان "سنان" يعدّ السليميّة أكثر أعماله مثاليّة، ويطلق عليها "أثري الاحترافيّ"، إذ نجح في تغطية الساحة كلّها بقبّة واحدة فقط، وأنشأ أربع مآذن على الجوانب الأربعة للقبّة المركزيّة وجعلها قريبة جدًّا منها بحيث تبدو عند النظر إليها كأنها عمودية الشكل.

يكتب "أوليا شلبي" قائلًا:

"إن المسجد يشتمل على أربع مآذن كل مأذنةٍ لها ثلاث شرفات، هذه الشرفات تُكوِّن اثني عشر طابقًا، وهي إشارةٌ إلى كونِ السلطان سليم الثاني هو السلطان الثاني عشر".

لم يكرّر "سنان" تصميماته السابقة ولم يقلّد أو يحاكِ غيرَه، وأصبح بميزته تلك باحثًا مبتكرًا، يسعى في كلّ أثرٍ له إلى تحقيق التفوّق على سابقه، إلى أن نجحَ في ذلك.

فجامع "شهزاده محمد" قال عنه "سنان":

- بنيتُه في بدايةِ مرحلة التعليم والتحصيل.

وجامع "السليمانيّة" -الذي يتفوّق على سابقه- قال عنه "سنان":

- بنيتُه في مرحلةٍ متوسّطةٍ من الخبرة والمهارة.

وأما جامع "السليميّة" -الذي تفوّق على سابقَيه بسماتٍ بارزةٍ- فقد قال عنه "سنان":

- بنيتُه في مرحلة الذروة من المهارة والخبرة[٨٤].

السليميّة وشهادة "فرديناند"

جامع السليميّة شاهد على آثار بعض الكوارث في تاريخ أدرنه، فلقد استخدم البلغاريّون أثناء حرب البلقان عام (١٩١٢م) السلاح في الجامع، وأطلقوا النيران في داخله، مما أدى إلى إلحاق الضرر في الأماكن القريبة من قبّة المحراب، وفي القبّة الصغيرة جانب مقصورة السلطان.

وفي أثناء انسحاب الجيش البلغاريّ من أدرنه، قام بالتخطيط والتدابير اللازمة لتدمير السليميّة، فلمّا عُرض الأمر على قيصر البلغار "فرديناند" قال:

- كلّا، لا أستطيع أن أتحمل مسؤوليّة كهذه أمام التاريخ، ولا أستطيع أن أصدر أمرًا كهذا[٨٥].

وفاة "سنان" العظيم

توفي المعمار "سنان" كبير المعماريين في العالم في التاسع من أبريل/ نيسان عام (١٥٨٨م) عن عمر يناهز ثلاثة وتسعين عامًا، وضريحه يقع خلف جامع السليمانيّة، وتبلغ أعماله أربعمائة أثر، وهي ستّة وثلاثون ومائة جامع ومسجد، وسبع وخمسون مدرسة، وأضرحة مختلفة، ومقرأة ومستشفى وجسور مائيّة وينابيع وحمّامات وجسور ومستودعات وخانات وقصور وتكايا.

---

(٨٤) كورتان، المصدر السابق، ص ٩.

(٨٥) نريمان كولو أوغلي، جامع معمار سنان وجامع سليمية، أدرنه، ١٩٩٤م، ص ٢٧.



إنــه رجــل الدولــة العنيــد، والقائــد الذكــي الشــجاع، ذو العزيـمــة والإقدام..

فاتح قلعة «أويوار» التي تُعدُّ من أبرز القلاع الغربية المحصّنة..

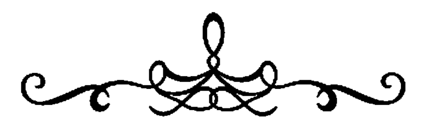
وهو القائد الذي استطاع فتح «كانديه» بعد أن حاصرها القوّاد من قبله طيلة اثنين وعشرين عامًا...

اعـترف المؤرّخـون المحليّون والأجانـب كلّهم بكونه واحدًا مـن أذكى وأفذّ الشخصيّات التي تقلّدت منصب الصدارة العظمى لدى العثمانيّين..

إنه الفقيه والمتكلّم والخطاط، إنه أبو الفنانين والحرفيين

«فاضل أحمد باشا»





فاضل أحمد باشا وفتح جزيرة "كريت"

ولد "فاضل أحمد باشا" في مدينة "وزيركُوبْرُو" عام (١٦٣٥م)، وهو الابن الأكبر للصدر الأعظم "كوبرويلو محمد باشا"، وأمّه السيدة "عائشة بنت يوسف آغا" من مدينة "حَوْضَا"، كان والده رجل دولة تربى في مدرسة الحياة، ولم يتلقَّ تعليمًا، وكان يرغب في أن يكون ابنه من أرباب العلم والمعرفة عند بلوغه سنّ الشباب، فاستصحبه إلى إسطنبول وسنّه لم تتجاوز السابعة، وألحقه بالتعليم المدرسيّ، فتلقى "أحمد" الدروس من أشهر رجال العلم هناك، وأظهر تقدمًا بارزًا في غضون مدّة قصيرة، وأصبح مدرسًا وهو في السادسة عشرة، وعند بلوغه الثانية والعشرين تم تعيينه مدرسًا في مدرسة "صحن ثمان" (٨٦)، والتي كانت من المؤسّسات التعليميّة العالية آنذاك، وكان ذلك عام (١٦٥٧م).

(٨٦) مدارس "صحن ثمان": المدارس العالية التي أنشأها السلطان محمد الفاتح في إسطنبول عقب فتحها، منها ثماني كنائس حولها إلى مدارس، سميت بمدارس "صحن ثمان"؛ وكانت توازي كليات الآداب وأصول الدين في الوقت الراهن. سهيل صابان: ص ٢٠٥.

اشـتهر "أحمد باشـا" بلقب "باشـا زاده"، وكان ارتقاؤه السـريـع سببًا فـي فتـح الباب لانتقاده فـي الأوسـاط العلميّة المحيطة بـه، حزن فاضل أحمد جدًّا لما يتردّد عن شـخصه، وانزعـج بشـدّة، ولم يعد يطيق العمل، فقـام "كوبرولـي" بعـزل ابنه عن فئـة العلماء وعينه برتبـة وزير على ولاية "أرضـروم"، وبعـد أن خـدم "فاضـل أحمد" هنـاك عامًا، أُرسـل في العام القابل إلى ولاية الشام، وأثناء عمله بـ "الشام" أجرى حملات ناجحة على الـدروز، ورفـع عن الأهالـي مجموعة من الضرائب التي فرضت في عهد الـولاة السـابقين، ونال رضا والده والسـلطان "محمد الرابـع" بما أظهره مـن كفايـة ومهارة عاليـة في الإدارة، ونتيجـة تلك الجهـود الناجحة التي حققها في الشام؛ تمّ تعيينه أميرًا على حلب.

الصدر الأعظم ابن السادسة والعشرين

عندمـا بلـغ الصدر الأعظم "كوبرويلو محمد باشـا" الثالثة والثمانين، أصابـه المـرض، وحينما اشـتدّ عليه المـرض في صيف عـام (١٦٦١م)، تخوّفوا من فراغ منصب الصدر الأعظم، ولما سألوه عن الرجل المناسب لكي يخلفه في تلك المهمّة قال:

- لو أردتم أن يستتبّ الأمر، ولّوا ابني "فاضل أحمد باشا" أمير حلب مقام الصدر الأعظم.

لـم تكن رغبة الباشـا تلـك مجرّد أمنيـة مبتذلة أو حتى سـاذجة على سبيل المحاباة لابنه، بل كانت نابعةً من إدراكه أنّ ابنه سيكون اليد القادرة على إدارة البلاد[٨٧].

(٨٧) سميحة أيوردي، الأب البطل ونجله، مجلة تاريخ اللغة التركية، مجلد ٦، ص ٣٩ و ٧٢.

لم يستطع "فاضل أحمد باشا" أن يبدأ وظيفته في حلب، إذ استُدعي بقرار سلطانيّ عاجل للحضور إلى إسطنبول، وانتقل الباشا الشابّ في غضون مدّة قصيرة إلى إسطنبول، وبعد استدعائه لمقابلة السلطان "محمد الرابع"، تمّ تعيينه قائمًا بأعمال الصدر الأعظم، أي: نائبًا عن رئيس الوزراء في يوليو/تموز عام (١٦٦١م).

وبعد ذلك بحقبةٍ زمنيّةٍ وجيزةٍ، بدأت تتدهور تدريجيًا صحّة الصدر الأعظم "كوبرويلو محمد باشا" الذي رافق السلطان إلى أدرنه، وفي النهاية توفي الباشا في الحادي والثلاثين من أكتوبر/تشرين الأول عام (١٦٦١م)، وأصبح "فاضل أحمد باشا" -القائم بأعمال الصدر الأعظم- الصدر الأعظم وهو في السادسة والعشرين من عمره بناء على وصيّة والده.

إقالة شيخ الإسلام

كثرت الأقاويل، فمَنْ كان يقدحُ في الأب من قبل لكِبَرِ سنِّهِ بدأ الأن يقدح في الابن "فاضل أحمد باشا" لصِغَرِ سنِّه وقلّة خبرته.

استقبل السلطان "محمد الرابع" الصدر الأعظم الشابّ، وقال له مسرّيًا عنه مطيّبًا خاطره:

- لقد سَعِدتُ جدًّا بالخدمات التي قدّمها والدك للدولة، ولا تستطيع أن تعرفَ مدى حزني على فقدي رجلَ دولة دؤوبًا وهو من الثقة بمكان، إن شاء الله ستكون أنت أيضًا مثله!

كان شيخ الإسلام "محمد أفندي صنعي زاده" متواجدًا في القاعة، ولم يكن يحبّ "كوبرويلو محمد باشا" ألبتّة، فاستأذن السلطان، وتحدّث

عن والد الصدر الأعظم الجديد، وذكر أنّه كان شديدًا، وأراق دماء الناس قائلًا:

- والدك أراق دماء كثيرين، لكن أرى أنّك من الفضلاء، وأنك تعرف أحكام العدالة، وأتمنّى ألا تُشبه أباك، نسأل الله السلامة!

دُهِشَ الصدر الأعظم الشابّ الذي يعرف بانضباطه وعدالته من كلام شيخ الإسلام، وكشف المستور عنه حيثُ كان يتملّق والده فيما مضى، فوبّخه قائلًا:

- إن كان والدي قتل أحدًا، فقد قتله بفتواك أنت! فلمَ أفتيت؟

فوجئ "صنعي زاده" بهذا الجواب فقال:

- فتاواي كانت خوفًا من ظلمه!

عندئذٍ ردّ الباشا قائلًا:

- سيدي! أتطلب رضا الناس بمعصية الله تعالى؟ فماذا تقول إذا وقفت بين يديه؟

فأثلج هذا الردُّ المفحمُ صدرَ السلطانِ، أما شيخُ الإسلام الذي لم يَحِرْ جوابًا، فقد أُقِيل من منصبه ونُفِي إلى رودس(٨٨).

سار كوبرويلو زاده على نهج والده الملتزم المتوازن نفسه، وقمع محاولات التمرّد في بدايتها.

(٨٨) مصطفى جزار، التاريخ العثماني، المجلد الثالث، إسطنبول ١٩٦٠م، ص ٢١٠٧.

قلعة "أُويْوَارْ"

تسبب النزاع الحاصل حول إقليم "أردل" بحملةٍ عسكريّةٍ على النمسا شنّها "فاضل أحمد باشا"، حيث حاصر قلعة أويوار -واسمها عند الألمان "*Neuhausel*"- في الثامن عشر من أغسطس/آب عام (١٦٦٣م)، وقد استغرق فتح قلعة أويوار مدّة قصيرةً لا تتجاوز سبعةً وثلاثين يومًا، وهذا النصر قد أكسبه صيتًا كبيرًا، لأنّها كانت محصّنةً جدًّا، وتمتلك وسائل دفاعيّة جيّدةً، فوصلت قوة العثمانيّين في الغرب إلى ذروتها، وما لبث أن شاع بين شعوب أوربّا فتح الأتراك لقلعة أويوار وعمّهم القلق والخوف.

يروي المؤرّخ النمساويّ "هامّر" أن إحراز فتح أويوار في سبعة وثلاثين يومًا قد أصاب أوربّا بالدهشة والخوف، وتسبّب في إشاعة استيلاء الأتراك على بلاد أوربّا بأكملها وهذا ما أثار القلقَ والخوف الشديدين لدى أبناء القارّة جميعًا.

في يوم الحصار السابع والثلاثين حينما أُجبر "فورجاجس" قائد قلعة أويوار على تسليمها، لوّح من داخلها بالراية البيضاء طلبًا للأمان، ووافق الصدر الأعظم على بعض شروط العدوّ، وكان الطلب التالي من ضمن ما طلبه قائد القلعة:

"دقُّ الطبول، ورفع الأعلام عند مغادرة القلعة".

فكان ردّ "فاضل أحمد باشا" للرسول على هذه المادّة:

"إن لم تستحوا، فدقّوا طبولكم، وزمّروا بمزاميركم، وارفعوا راياتكم!"

ميناءٌ تجاريٌّ مهمّ

حينما عاد "فاضل أحمد باشا" من حملة النمسا، دعا السلطان "محمد الرابع" إلى الاجتماع كلًّا من الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وقضاة الجيش والوزراء والقادة جميعًا، وأخبرهم أنّ جميع القلاع في جزيرة كريت في يد الدولة العليّة عدا قلعة "كَانْدِيَه"، وقد طلب من الصدر الأعظم فتح تلك القلعة معربًا عن قلقِهِ حيالَ المسلمين المتجهين إلى الحج وإلى مصر جراء المضايقات التي قام بها جنود تلك القلعة.

كانت جزيرة كريت آنذاك موقعًا لا غنى عنه للسفن التجاريّة؛ فهي أكثر محطّات الاستراحة أهمّيّةً في نقل بضائع الشرق الأقصى والهند إلى أوربّا وفي تجارة البندقيّة مع سواحل الأناضول، وكانت جزيرة كريت تُشكّل تهديدًا مستمرًّا للعثمانيّين؛ لأنّها تقع على مسارات بحريّة تُنْقَل عبرها موادّ غذائيّة من مصر وتونس والجزائر وطرابلس إلى إسطنبول.

قلعةٌ مُحاطَةٌ بالخنادق

إن حروب كريت تُعدُّ واحدةً من أطول حروب الدولة العثمانيّة في القرن السابع عشر، حيث بدأت الحرب عام (١٦٤٥م)، وتمّ فتح "هانيا" و"ريسمو"، أمّا قلعة "كانديه" فلم يتمكن من الاستيلاء عليها ألبتّة، وبدأ الاستعداد للحصار إبان وصول الأسطول المكون من سبع وأربعين سفينة إلى ميناء "هانيا" بكريت في الثالث من نوفمبر/تشرين الثاني عام (١٩٦٦م)، فتوجّه "فاضل أحمد باشا" فورًا إلى قلعة كانديه، وقام بعمليّة استطلاع، ثم وَضَعَ خطَطه بناءً عليها، ولم يَبُح بنتائج الإستطلاع لأحد تعتيمًا على أهل البندقيّة لئلّا يأخذوا حذرهم.

أمضى الباشا ذلك الشتاء في هانيا، وأرسل أوامره إلى بقاع أراضي الدولة لتوفير الجنود والذخيرة اللازمة للحصار.

كانت قلعة كانديه محاطةً بحصونٍ منيعةٍ تحتوي على مستودعات غنيّةٍ بالذخيرة بها مئاتُ المدافع، وأمامها خنادق عميقة واسعة، كان طول الخنادق المحيطة بالقلعة يصل إلى ثمانمائة ألفٍ وثمانمائةٍ وتسعة عشر ذراعًا(٨٩) أي: أكثر من خمسة كيلومترات.

هذا علاوة على أنّ أهل البندقيّة منذ أن بدأت حروب كريت عام (١٦٤٥م) حتى عام (١٦٦٧م) -أي قرابة اثنين وعشرين عامًا- قد حفروا أنفاقًا على أطراف القلعة، وكانت طرقات تلك الأنفاق تتألف من ثلاثَ طبقات متتالية، وتمتدّ للأمام مسافة ثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة.

بدأ الحصار بالفعل بإقامة المتاريس في الثامن والعشرين من مايو عام (١٦٦٧م)، وأمر القائد "فاضل أحمد باشا" بوضع مدافع كبيرة أيضًا على السواحل؛ لكي يتمكن من قمع مدافع أسطول البندقيّة، هذا بالإضافة إلى المدافع أمام متاريسِ العدوّ على البرّ، وصُفّت المدافع أيضًا بجزيرة "إنجيرلي" المطلّة على البحر المتوسط.

حروب الأنفاق

اشتهر حصار كانديه بحروب الأنفاق، فلقد خطّط البندقيّون لإنزال خسائر فادحة بالجيش العثمانيّ بإشعال النيران بالخنادق العثمانيّة، وأمر الصدر الأعظم بتدمير أنفاق البندقيّين وذلك بحفر أنفاق ذات ثلاث

(٨٩) الذراع: وحدة طول تمتد من طرف المرفق حتى طرف الإصبع الأوسط، وتقدر بحوالي ٦٠سم.

شعب، وأصدر تعليماته بعد الانتهاء من ذلك باستمرار المضيّ قدمًا بالأنفاق، فكان الجيش العثمانيّ يقضي على أنفاق العدوّ بحفره طرقات تحت الأرض، وإقامةِ المتاريس على تلك الطرقات، وكان البندقيّون -حين يشعرون بوجود حفر في أيّة جهة- يقومون بإضرام النيران في الأنفاق بتلك الجهات، مما أدّى إلى سقوط أغلب الجنود العاملين بحفر الأنفاق خلال تلك الحرب شهداء أو جرحى.

في غضون ثلاثة أشهر من تاريخ بدء الحصار، فجّر العثمانيّون ثلاثة وخمسين ومائة نفق، وأما البندقيّون فقد فجّروا اثنين وثمانين ومائة نفق، واستشهد "حسن باشا" أمير أمراء الروملي هو وعدد كبير جدًّا من الجنود نتيجةَ انفجار نفقٍ أشعله البندقيّون أمام سواتر لجنودِ ولاية الروملي في سبتمبر/أيلول عام (١٦٦٧م)، وبحلول فصل الشتاء تجاوز عدد أنفاق فجرها الطرفان ستّمائة نفق.

في حين كانت حرب الأنفاق مستمرّة بمنتهى السرعة، كانت أيضًا طلقات المدافع والبندقيّات مستمرّةٌ بشكلٍ عنيف، وكابَدَ الطرفان خسائر فادحة، ولأجل ذلك أخبر الصدر الأعظم السلطانَ بالموقف، وطلب ذخيرة مع حلول الربيع، ومعدَّات مختلفة وعددًا كبيرًا من الجنود وحفّاري الأنفاق.

قرّر "فاضل أحمد باشا" أن يقضي الجيش الشتاء في الخنادق حذرًا من بناء البندقيّين ثغورًا جديدة وشقِّهم أنفاقًا جديدة إذا ما غادر الجنود الخنادق، فبنى الجنود العثمانيّون غُرَفًا من الطوب اللّبِن في طرقات الأنفاق، وبعضُها في السواتر، وأقاموا سوقًا في تلك الطرقات، فكأنّ

معسكر الجيش قد تحول إلى مدينة تحت الأرض، وتمّ توزيع الرواتب بين الإنكشاريّين وقابي قولي[٩٠] بالخنادق[٩١].

أمضى الجيشُ الشتاء في الحصار، وقضى الصدر الأعظم أيضًا الشتاء في حجرتين صغيرتين مبنيّتين في مدخل النفق، وتشير تلك الواقعة إلى قوّةِ الجيش العثمانيّ المُذهِلة في مجال التشييد والبناء، وتفوقه الكبير في تخطيط الحصار.

يتحدث الجنرال "فرانسيسكو موروسيني" قائد قلعة كانديه في رسائل أرسلها إلى ملك البندقيّة عن قوّة الجنود العثمانيّين وصلابتهم، ويروي أنّ قضاء الجيش الشتاء في الخنادق أمرٌ لم يُسمع بمثله حتى يومنا هذا[٩٢].

قذائف العدوّ غير المتفجّرة

في فصل الشتاء نفسه نقلت السفن إلى الجزيرة ذخيرةً وعتادًا ومعدًّات تكميليّة ومعدًّاتٍ حربيّة مختلفة تم تجهيزها في سواحل الأناضول وروملي.

أما في الجزيرة فقد تمّ صنعُ مدافع جديدة لاستخدامها في الحصار، في البداية صُنع ثلاثة مدافع من طراز مدافع العدوّ لإعادة إطلاق القذائف التي أطلقها البندقيّون من القلعة ولم تنفجر وقد بلغت حوالي خمسين ألف قذيفة، ثمّ صُنع أحد عشر مدفع بَلْيَمَزْ[٩٣] بدار المدفعيّة في

---

(٩٠) قابي قولي: لفظ مركب بمعنى عبيد الباب، ويطلق على مجموع جنود الدولة العثمانيّة الذين يشكلون فرق المشاة والخيالة العاملين بأجر. د.سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانيّة التاريخيّة ص ١٧٢.

(٩١) د/ أرسين كلسوي، فتح كريت، إسطنبول ٢٠٠٤م، ص ١٣٤-١٣٩.

(٩٢) كرسوي، المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٩٣) مدفع قديم ذو مدى بعيد.

قلعة "إناديه"، كما جُهّز معمل القنابل العثمانيّ لصنع ألف قنبلة يدويّة من طراز "همبرا"(٩٤) في اليوم الواحد.

وقد أنشؤوا متراسًا محصّنًا يرتفع عن سطح البحر بنحو ثلاثين ذراعًا في مواجهة حصن "فيزل"، ولم يُسمح ولو لِزَورق واحدٍ بدخول القلعة، إذ وُضعت المدافع على الجهة الشرقيّة والغربيّة للقلعة على حدٍّ سواء.

في أثناء الحصار انفجر مستودع ذخيرة في "كانديه" نتيجة قذيفة أطلقتها المدفعيّة العثمانيّة، فأهدر ألفي قنطار من البارود، كما لقي عددٌ كبيرٌ من الجنود حتفه.

بعد أن تواصلت الحرب في العام الثاني بنفس حدتها؛ تقدمت كتيبة قوامُها مِن خمسمائة جنديّ إلى ستّمائة بقيادة "دوق (*Noailles*)" صوب ثكنات الجيش العثماني في الخامس والعشرين من يونيو/حزيران عام (١٦٦٩م)، وهاجمت الخنادق العثمانيّة، إلا أنّها اضطرت للتراجع إلى القلعة نتيجة دفاع الجنود المكلّل بالنجاح، وأثناء تلك العمليّة التي قام بها جنود البندقيّة بالاشتراك مع الفرنسيّين قُتِل كثير من النبلاء الفرنسيّين ورُبّان أسطول البابويّة، وبعد أن فشلت خطّتهم حدثت مشاجراتٌ بين الفرنسيين والبنادقة، وعلى إثر ذلك قرر الفرنسيون الرحيل والعودة إلى بلادهم.

وصرّح دوق البندقيّة في رسالة أرسلها إلى ملك فرنسا أنّهم لو ساعدوه في رفع الحصار عن كانديه، لترك لهم القلعة.

(٩٤) نوع من القنابل اليدوية.

أهميّة "كانديه"

لقد تحولت مسألة كانديه إلى مسألة كرامة لأهل البندقيّة والعالم المسيحيّ كله، كما كانت المسألة بنفس الأهمّيّة بالنسبة للعالم الإسلاميّ، ولقد أعرب السفير -رسول أهل البندقيّة إلى الصدر الأعظم- أنّهم سوف يدفعون الجزية والتعويضات الحربيّة مقابل تنازُلِ الجيش العثمانيّ عن كانديه؛ لأنّها بمنزلة كرامة العالم المسيحيّ، فأجاب فاضل باشا غاضبًا:

- لم نأتِ هنا للتجارة، فالحمد لله دولتنا في غنىً، ولا تحتاج إلى المال، ولن نساوم على كانديه بأيّ ثمنٍ أبدًا.

وأفصح أنّ فتح القلعة للعالم الإسلاميّ يُعدّ مسألةَ كرامةٍ أيضًا.

يرى "هامّر" أنّ ما أُنفق على كانديه من مال وما بُذل من جهد في سبيلها لم يُبذل مثله لأجل أيّة قلعة في العالم حتى ذلك الوقت، والسبب في هذا هو تحول مسألة تلك القلعة إلى مسألة كرامة للعالمين المسيحيّ والإسلاميّ(٩٥).

رفض "فاضل أحمد باشا" لمقابلة سفراء البنادقة

وقد اضطر البنادقة توقيع معاهدة السلام مع العثمانيين وتسليم القلعة بعد أن فشلت القوات الفرنسية والمالطاوية والقوات التي أرسلتها البابوية في صدّ الهجمات المتتالية للجيش العثماني والدفاع عن القلعة.

(٩٥) أكسون، المصدر السابق، المجلد الثاني ، ص ٢٢٦.

أخيرًا في التاسع والعشرين من أغسطس/آب عام (١٦٦٩م) خرج من القلعة رسولان للبندقيّة، واقتربا من الساحل الذي انتصبت عليه المدافع العثمانيّة، وأعربا عن رغبتهما في مقابلة الصدر الأعظم، فأرسل "فاضل أحمد باشا" "قره كولاق أحمد آغا"، وأمره بما يلي:

- لو كان السفيران القادمان من الفرنسيين، فلا تستمع إليهما وردّهما، وأمّا إن كانا من أهل البندقيّة، فسلْهما عن سبب مجيئهما، فلو قالا: معنا رسالة، فأرسلهما إلى قلعة "صوده"، ولو جاءا لشأنٍ آخر فأخبرني.

عندما علم أحمد آغا أنّ القادمين هما القائم بالأعمال التحريريّة لـ"موروسيني" قائد القلعة، ووكيل الحراس، سأل عن سبب مجيئهما، فأجابا:

- جئنا للحديث في أمر ميمون.

قال آغا:

- لو جئتما لتسليم القلعة، فبها ونعمت! أما إن جئتما للحديث عن شيء آخر، فلن يُؤذن لكما بمقابلة الصدر الأعظم!

وبناءً على ذلك صرّح السفيران أنّ أمرَ تسليمِ كانديه ليسا هما المعنيان به، وعادا مرّةً أخرى إلى القلعة للتباحث مع الضابط "موروسيني"، إلا أن السفيرين نفسيهما عادا مرّة أخرى بعد ساعتين ليوضحا أنّهما سيبدآن في مباحثات السلام من أجل تسليم القلعة في اليوم التالي.

مائة ألف شهيد خلال اثنين وعشرين عامًا

كلّف الصدر الأعظم "قره كولاق أحمد آغا" و"بانيوت أفندي" مترجم المجلس الشوريّ بمقابلة السفيرين في الثلاثين من أغسطس/

آب عام (١٦٦٩م)، وبعد يومين بدأت مباحثات السلام، واستغرقت تلك المباحثات ستّة أيام ثم وُقّعت معاهدة السلام التي تضمّنت سبع عشرة مادّة في السادس من سبتمبر/أيلول من نفس العام.

وهكذا انضمت كانديه إلى أراضي الدولة العليّة، بعد أن كانت عصيّة على الجيش العثمانيّ لمدّة اثنين وعشرين عامًا، وقام الجيش العثمانيّ أثناء الحرب بنحو مائة هجومٍ على القلعة، ففجّر خمسمائة وثلاثة آلاف نفق، وأطلق ثلاثين وسبعمائة ألف قنطار بارود، وفقد ثلاثين ألف شهيد، فقد رُوِي أنّ عدد الشهداء في معارك كريت على مدار اثنين وعشرين عامًا تجاوز مائة ألف.

تحقّق فتح كانديه بمثابرة "فاضل أحمد باشا" وجهده بوجه خاصّ، وببسالة الجيش العثمانيّ وعزمه.

بعد الفتح

طبقًا للمعاهدة، كان أهل البندقيّة سيخلون القلعة في السابع عشر من سبتمبر/أيلول عام (١٦٦٩م)، فاستدعى الصدر الأعظم الفريق الأول "موروسيني"، ورحّب به ومنحه الهدايا الثمينة، ثمّ ركب قائد القلعة وأهل البندقيّة الآخرون بالقلعة المراكبَ الشراعيّة الكبيرة واتّجهوا صوب قلعة "إستنديا"، واستقبل سكان كانديه الرومان -الناجون من ظلم البندقيّة الكاثوليكيّة- الفتحَ بفرحةٍ عظيمةٍ، وأعربوا عن ارتياحهم بفتح القلعة من قِبل العثمانيّين، وعين الصدر الأعظم قائدًا لضمان سلامة ما يقرب من سبعين إلى ثمانين يهوديًا في القلعة.

قام "فاضل باشا" بكتابة تلخيص[٩٦] الفتح في الثالث من أكتوبر/تشرين الأول عام (١٦٦٩م)، وأرسله إلى السلطان وكان آنذاك بمدينة "يني شهر"، وبعد استقرار الجيش تمامًا بالقلعة تمّ تحويل أربع عشرة من كنائس كانديه الكبيرة إلى جوامع، حمل أكبرها اسم جامع السلطان "محمد الرابع"، وحملت الأخرى أسماء "السلطان إبراهيم"، و"السلطانة الوالدة طورخان"، و"فاضل أحمد باشا" وسائر الوزراء والقادة، وأقيمت شعائر الجمعة الأولى للفتح في جامع "خنكار" في الرابع من أكتوبر/تشرين الأول من العام نفسه، وأُلقيت الخطبة باسم السلطان، وفي العشرين من أكتوبر/تشرين الأول جاءت هدايا من السلطان إلى الصدر الأعظم مثل: الخطّ السلطانيّ وفِراء وسيف وخنجر كما خُصّص قصرُ فريق أوّل لإقامة "فاضل باشا".

الصدر الأعظم ووالدته

بعد أن تلقّى الصدر الأعظم التهاني من العلماء، وقادة الجيش وعلى رأسهم شقيقه "مصطفى بك"، مرّ على قلعة "إناديا (*İnadiye*)"، فزار والدته وحظي ببركة دعائها، وجهزها لتحجّ مع شقيقه، ووَفقًا للمصادر التاريخيّة أنّ أمّ أحمد باشا سيّدةٌ لا نظيرَ لها في العفّة والتعبّد، وكانت تقوم الليل كلَّه.

كتب أوليا شلبي في مذكراته أنّه تم الاستيلاء على معدَّات حربيّة من ذخيرة القلعة، وأربعمائة ألف بندقيّة ومائتي ألف سيف وخمسة آلاف

(٩٦) تلخيص: الكتابة المختصرة، وقد اصطلح على استخدامه في عهد الدولة العثمانيّة على الملخصات التي كان يدون فيها الصدر الأعظم ملخص الموضوع الذي يود عرضه على السلطان بغية تحصيل موافقة السلطان، فيقوم السلطان بتدوين ما يراه تجاه ذلك على أعلى الورقة فتسمى حينئذ الخط السلطاني. سهيل صابان: ص ٧٥.

قنطار من البارود وثلاثة آلاف غِرارة من ملح البارود وسبعة آلاف قنطار من الرصاص وأعداد كبيرة من الفؤوس والسهام والأقواس والدروع والسلاسل.

وتشير يوميّات "طوبجي باشا" رئيس المدفعيّة أنه تمّ الاستيلاء على خمسة ومائة مدفع بعيد المدى وخمسة وخمسين وخمسمائة مدفع صالح للاستخدام وخمسة وثمانين مدفع هاون وسبعة عشر مدفع "شايقة" -مدفع كان يستعمل في الحصار- وألفي مدفع رشّاش.

أمضى الصدر الأعظم الشتاء في كانديه، ثمّ أبحر في السابع والعشرين من مايو/أيار عام (١٦٧٠م) بأسطول قوامه ثمانون سفينة إلى ساحل "تكيرداغ"، ومنه إلى أدرنه حيث يقيم فيها السلطان.

لا ريبَ أن لـ "فاضل أحمد باشا" جهودًا فائقة في فتح قلعة كانديه؛ إذ نجح في فتح القلعة بمحاولته إقناع السلطان -الذي سيطر عليه القلق من طول الحصار- بأنّ فتح القلعة قد أوشك أن يتحقّق، وسعى مسعًى دبلوماسيًّا مع أهل البندقيّة واستطاع إفشالَ الصلح الذي أراده البنادقة وأجبرهم على تسليم القلعة.

عزيمة الباشا

وقفت فرنسا مع أهالي البندقيّة في مواجهة صريحة ضدّ العثمانيّين؛ حيث أرسلت ستّة آلاف جنديّ إلى الجزيرة أثناء حصار كريت، لكنها لما تيقّنت بأنّ نتيجةَ الحرب لصالح الدولة العثمانيّة رغبت في استعادة صداقتها القديمة المزعومة؛ فأرسلت سفيرًا جديدًا إلى الدولة العليّة.

فـي أكتوبر/تشـرين الأول عـام (١٦٧٠م) وصـل "ماركـي دي نوتيل" إسـطنبولَ ثـمّ أدرنـه، وقابل الصدر الأعظـم، كان هدفُه تجديـدَ امتيازات أجنبيّـة انتهت مدّتها، وإمكانيّة اسـتمرار التجارة من وإلى الهند عن طريق مصر والبحر الأحمر، إلا أن الصدر الأعظم استقبله بفتورٍ؛ فدُهش "ماركي دي نوتيـل"، وأرخى "كوبرويلـو" زاده عمامته على عينيه، ورفـع قَبَّةَ الفرْوِ حتى غطّت وجهه، ومدّ قدميه واضعًا إحداهما على الأخرى، باسطًا يديه علـى ركبتيـه، وكان "كوبريلـي زاده" وقورًا جدًّا حيث أنـه لم يُكثر الكلام بل كان يكتفي بقوله "حسنا" للرد على كلمات السفير، وعندما قال السفير الفرنسـي "ماركـي دي نوتـل (*Marki de Noitel*)" أن هنـاك علاقـةً وطيدةً تجمعُ بين الفرنسيّين والعثمانيّين تغيّرت ملامحُ وجهِهِ وانعقدت قائلًا:

- نعم، الفرنسيّون أصدقاؤنا، إلا أنّنا نراهم بصحبة أعدائنا دائمًا!

أخذ السفير يراوغ، وحينما تحدّث عن نفوذ ملك فرنسا وقوّته، غضب الباشا وأجابه قائلًا:

- ربّما كان ملككم حاكمًا قويًّا، إلا أن خبرته ليست كافية لمواجهتنا.

كان "فاضل أحمد باشـا" يتّسم بشـخصيّةٍ متواضِعة، لكنه كان في هذا الموقف حادًّا وشديدًا لكي يواجه السفيرَ بأخطائه، والذي حمله على ذلك هو نفاق الفرنسيّين.

وحينما رأى الصدر الأعظم السفيرَ وهو مُصِرٌّ على مطالبه، قال له:

- إنَّ صاحـبَ الفخامـة مولانـا السـلطان لا علاقـةَ لـه ألبتّـة بالكفّار الآخريـن، ولا يُبرِمُ معاهدات أو اتفاقيّاتٍ تجاريّة معهم...، وإنما يسـمحُ بمثل تلك الامتيازات لأصدقائه فقط إحسانًا ولطفًا منه؛ فامتيازات الدولة

العليّة للأجانب لا تُمنَح أبدًا قسرًا، بل تتفضّل الدولة وتحسن دائمًا باللين والمسامحة، وإذا لم ترغبوا في تجديد الاتفاق، فانصرفوا.

فلم يستطع السفير أن يغادر المجلس طبعًا.

رجل دولة متديّن

في حملة بولندا عام (١٦٧٢م) ضمّ "فاضل أحمد باشا" "بودوليا" إلى الأراضي العثمانيّة، وفتح قلاعًا كثيرة، وقد أمضى الباشا حتى اليوم خمسة عشر عامًا ونصف العام في منصب الصدرِ الأعظم يعمل على تصحيح مسار النظام الفاسد وإصلاحه، ووصلت الدولة العثمانيّة في عهده إلى مجدِها وعظمتِها مجدّدًا.

أُنهكَ "فاضل أحمد باشا" كثيرًا بعد أن قضى تسعة أعوام في ميادين القتال في جبهات النمسا والمجر وكريت وبولندا، وعلى الرغم من إصابته بمرض الاستسقاء في أعقاب الحملة الثانية على بولندا، شارك في سفر السلطان من إسطنبول إلى أدرنه رغم رفض السلطان نظرًا لظروف مرضه، إلّا أنّه أصر على الخروج مع الجيش لاعتقاده بأن الموت على الفرش مذلّة، لكنّه نتيجة لتفاقم مرضه تُوفي في الثالث من نوفمبر/تشرين الثاني عام (١٦٧٦م) عن عمر يناهز الواحد والأربعين عامًا في مزرعة "قره بيبر" قرب منطقة "جورلي".

ويذكر المؤرِّخون المحليّون والأجانب أنه كان رجل دولة، صَموتًا، ذكيًا، ممعنًا في النظر إلى الأمور، صبورًا، ذا عزم، بعيد النظر، سخيًا، زاهدًا، عطوفًا، تقيًا.

كتب المؤرخ النمساوي الشهير "هامّر" عن خِصاله تلك، فقال:

"كان يصل إلى الحقيقة من أقصر الطرق، ويكره لغوَ الحديث؛ لذا كان متحفِّظًا في قوله، صموتًا، لا يتكلم من دون تفكير، وكان عالمًا منتسبًا إلى زمرة العلماء"(٩٧).

إنه عالم في علم الكلام وخطّاط رائع

"محمد خليفة" هو المؤرخ الوحيد الذي يدعي أنّ "فاضل أحمد باشا" قد اعتاد شرب الخمر بغواية من بعض مقرّبيه، فأُصيب بمرض الاستسقاء ومات فيه.

استغلّ خصوم الدولة العثمانيّة هذا الزعم، وسَعَوا للقضاء على شعبيّة الباشا والدولة العثمانيّة كلّما سنحت الفرصة، إلا أنّ الصدر الأعظم -الذي قضى في جبهات الحرب تسع سنوات من خمسة عشر عامًا في رئاسة الوزراء، وتوفي في ريعان الشباب، وعانى الوصب والسهر في ميادين الحرب- كانت له مساعٍ توضِح تحريم شرب الخمر حتى في الأحوال المناخيّة القاسية، وهذا يبيّن لنا أنّ ما سبق محضُ افتراءٍ قبيح عار تمامًا عن الصحّة، مصدره من الأعداء وحساد الباشا.

كان الباشا فقيهًا متكلّمًا، وخطّاطًا ماهرًا، وعالمًا راعيًا للفنّ، وأُطلق عليه لقب "فاضل" لتمتُّعه بالفضيلة، وأسّس مكتبةً بجوار ضريح ومدرسة والده بشارع "ديوان يولو"، وتبرّع بكُتبه لها.

أُحضر نعش الصدر الأعظم إلى إسطنبول، ودُفن بضريح والده "كوبرويلو" بشارع "ديوان يولو".

---

(٩٧) أكسون، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٢٣٢.



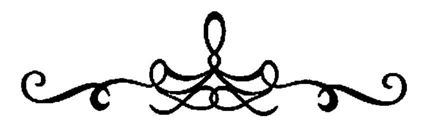
رغم وفاته في سنٍّ مبكّرةٍ إلا أنّه ألّف ما يزيد عن عشرين أثرًا أشهرها كتاب «جهان نُما» و«كشف الظنون»..

لقد ترك بصمتَه الخاصّة والمؤثّرة على الحياة الثقافيّة والعلميّة في القرن السابع عشر، ونال بذلك عظيم التقدير والاهتمام والإعجاب والاحترام من كِلا العالمين الغربيّ والإسلاميّ..

ولقد وصفه الباحث الغربيّ الشهير «بابينجر (Babinger)» بأنه «سيوطيّ العثمانيّين».

إنه العلامة النحرير «كاتب شلبي»





كاتب شلبي[٩٨] وكتابه (جهان نما)[٩٩]

وُلِدَ "كاتب شلبي" في فبراير/شباط عام (١٦٠٩م) بحيّ الفاتح بإسطنبول، وكان والدُه رجلًا ورِعًا، تخرّج في مدرسة الأندرون[١٠٠]، وعمل في القصر، وكان يلازم مجالس العلماء والشيوخ، شغل ليله بالعبادة، وعندما بلغ ابنه الكاتب شلبي -واسمه مصطفى- الخامسة، اتخذ له والده مدرسًا، فتلقى عنه العلوم الدينيّة الأولى، وعلّمه اللغة العربيّة والخطّ العربيّ؛ حفظ شلبي في تلك المدّة جزءًا من القرآن الكريم، ولما بلغ الرابعة عشرة عمل محاسبًا مبتدئًا في إدارة حسابات الأناضول؛ فتعلّم قواعد المحاسبة وخطّ "سياقت (*siyakat*)"[١٠١]، وهو نوع من الكتابة

(٩٨) كاتب شلبي: يعرف بين العرب باسم حاج خليفة أو حاجي خليفة.

(٩٩) جهان نما: أي وصف العالم.

(١٠٠) الأندرون: اسم أطلق على القسم الذي يبدأ من الباب الثالث من أبواب قصر طوب قابي، وهو باب السعادة، ويشمل غرفة العرض، والغرفة الكبيرة، والخزينة الهمايونيّة، والمستودعات، وغرف الأمانات المقدسة، والمطبخ السلطاني، ثم الباب الذي يؤدي إلى الحرم السلطاني، والدور الذي كانت تؤديه أكاديمية الأندرون لا يقل أهمّيّةً عن الدور الذي تؤديه اليوم كليات العلوم الإدارية من تنشِئة الموظفين وتهيئتهم لإدارة المناصب، واستلام الأماكن الحساسة في الدولة . سهيل صابان: معجم المصطلحات العثمانيّة التاريخيّة، ص٤٠.

(١٠١) نوع خاص من الخط المستخدم في الدوائر المالية بالدولة العثمانية، كان يخلو من النقاط، وكان الحرف أو الشكل الواحد مختصرًا من عدة أحرف، ولم يكن يلم بقراءته إلا المتخصصون، وكان الهدف من استخدامه عدم تمكين كل واحد من قراءته، وقد قيل إنه وجد في العراق في عهد العباسيين، ثم انتقلت إلى الأناضول في عهد السلاجقة. (صابان، ص ١٣٧).

الاختزاليّة تستخدم في حفظ السجلّات الماليّة وأسانيد الملكيّة العقاريّة، واجتهد في عمله حتى تفوق على معلمه في غضون مدّة قصيرة.

في عام (١٦٢٤م) خرج مع الجيش العثمانيّ في حملة "ترجان (*Tercan*)" ، وهو ما زال في الخامسة عشرة من عمرِه، فسنحت له الفرصةُ في تلك الحرب بمراقبة -عن كثبٍ- مدى الألم الذي تُسفِر عنه الحروب، وفي عام (١٦٢٦م) شارك في حملة "بغداد"، وخلال حصار استمرّ تسعةَ أشهُرٍ أصبح شاهد عِيان على مُجريات الحرب كلّها وفقد والده في الموصل، وبعد شهرٍ فقد عمّه في "نُصيبين"[١٠٢]، وبمساعدة أحد أصدقاءِ والده التحق بوظيفةٍ في شؤونِ محاسبات الفرسان.

وفي عام (١٦٣٠م) شارك مع "خسرو باشا" في حملتي "همدان" و"بغداد"، وبين عامي (١٦٣٣ و١٦٣٤م) خرج مع جيش يقوده الصدر الأعظم "محمد باشا" إلى حملة الشرق في المرّة الثانية، وعند تراجُعِ الجيش إلى حلب لقضاء الشتاء استأذن قائد الجيش وذهب إلى الأراضي المقدّسة لأداء فريضة الحجّ، واشتهر بعد تلك الزيارة بالـ "حاجّ خليفة" أو "حاجي خليفة"، وكان عمره آنذاك ستّة وعشرين عامًا، وفي عام (١٦٣٥م) شارك مع السلطان "مراد الرابع" في الحملة على "روان (*Revan*)".

ميراث أُنفق على الكتب

شارك الكاتب "شلبي" في حملاتٍ عديدةٍ مع الجيش على مدار عشر سنوات، ثمّ وقف نفسه للدراسات العلميّة، فقد عاد -على حدّ قوله- من

(١٠٢) نصيبين: مدينة تاريخية في الجزيرة الفراتية العليا ومنطقة إدارية تقع حاليًا ضمن حدود تركيا وتتبع محافظة ماردين.

"الجهـاد الأصغـر إلى الجهاد الأكبر"، وكان "شـلبي" بتعبيره هذا يعني أنّه يعدّ تلك الحياة الشاقّة بين الخنادق على مدى عشر سنوات من عمره هي الجهـاد الأصغـر، وكان يقصد بالجهـاد الأكبر تلك الحـرب التي خاضها للقضاء على الجهل.

فـي عام (١٦٣٩م) توفّي أحدُ أقاربه الأثريـاء؛ فورِث عنه عدّة أحمالٍ مـن النقـود[١٠٣]، فأنفق منها ثلاثة أحمال على شِـراء الكتـب، وقام بترميم منزلـه بحـيّ "الفاتح جارشـمبا" بالمبلـغ الباقي، ثـمّ تزوّج وتفـرّغ تمامًا للعلـم، وانـزوى إلى ركنٍ متواضـع عازفًا عـن المنصِب والراتب، ووهبَ نفسـه تمامًا للعِلم والتأليف، واستمرّ على ذلك بقيّة عمره، فكانت النتيجةُ أنّه ألّف آثارًا نفيسة سبقت عصره.

عصر الكاتب شلبي

واظـبَ "الكاتـب شـلبي" على دروس علمـاء عصره، ولطالما سـعى لتلقـي العلـم مـن أهلـه، ولـم تتنـاولْ كتبُـه موضوعًـا معيّنًا، بل اشـتملت على مسـائل علميّة شـتّى مثـل: التاريخ والجغرافيـة والرياضيات والفلك والسِّيَر والتعريف بالكتب والتربية والفلسفة وإدارة الدولة.

وقد ألّف "الكاتب شلبي" نحو عشرين كتابًا، يكفيه أحدها لتخليد اسمه.

كما أنه أتقن اللغتين العربيّة والفارسيّة حتى إنّ له مؤلفات بهما، وألّف كتبًـا قيّمةً بالعربيّـة منها: "فذلكة التواريخ" وهو يُعدّ مـن الآثار التاريخيّة، و"سُـلَّم الوصـول إلى طبقات الفحـول" وهو من أمّهـات كتب الفهارس، و"كشف الظنون" المعتنى به إلى الآن بوصفه أحد المنابـع الرئيسة للعلم،

(١٠٣) الحمل: تعبير يستخدم بدلًا من مائة ألف آقجة في التاريخ العثماني.

وتُرجم إلى اللاتينيّة أواسط القرن التاسع لقيمته العظيمة، ولم يكتفِ في دراساته بالمصادر المكتوبة بتلك اللغات الثلاث، فتعلّم اللاتينيّة للاستفادة من الكتب الكثيرة المتداولة في عصره، وترجم بعض الكتب ذات القيمة العلميّة؛ لتُعرِّفَ الغربَ وتاريخه بصفة خاصّة(١٠٤).

يُعدّ "الكاتب شلبي" من نُخبة علماء القرن السابع عشر ومؤلّفيه من حيث فكره وآثاره، حتى إنّ بعض الكتّاب يطلقون على القرن السابع عشر من حيث تاريخ العلوم والثقافة عصر "الكاتب شلبي"، بل إنّ كتب تاريخ الدولة العثمانيّة -وهي تتحرّى عن تاريخ العثمانيّين السياسيّ والعلميّ والثقافيّ في القرن السابع عشر- تُفرِدُ أقسامًا خاصّة لـ "كاتب شلبي".

لقد استطاع "الكاتب شلبي" أن يقفَ نفسَه للعلم والتفكّر وتأليف الأعمال رغم كونه يعيش في عصرٍ تعاني فيه الدولة العثمانيّة عدّة أزمات واضطرابات حادّة مع مختلف مؤسّساتها ومنظماتها، وأحرز بآثاره تفوُّقًا على كتّاب عصره وباحثيه رغم أنه لم يتلقَّ التحصيلَ المدرسيّ، ولم يلتحق بفصول العلم(١٠٥).

عزلة الكاتب شلبي

حان وقت ترقية الكاتب شلبي أثناء حملة كريت بين عامي (١٦٤٥-١٦٤٦م)، إلا أنّ العلاقة بينه وبين رئيسه لم تكن على ما يرام، ولما قال لرئيسه:

---

(١٠٤) أورخان شايق قوكياي، كاتب شلبي، أنقره ١٩٨٦م، ص ٨.

(١٠٥) حوريه بكلف، كاتب شلبي وكتابه سلم الوصول، أنقره ١٩٩٦م، ص ٢٦٧.

- عملت في الوظيفة نفسها عشرين عامًا، ألم يحن الوقت لأكون رئيس المحاسبين؟

ردّ عليه رئيسه:

- لن تنال هذه الوظيفة أبدًا حتى نهاية عمرك!

وعلى إثر ذلك ترك وظيفته ثلاث سنوات، وانعزل عن الناس، وشُغِل بتدريس تلاميذه خلال تلك المدّة.

كان شيخ الإسلام "عبد الرحيم أفندي" صديق "الكاتب شلبي" وبيتَ سرِّه، فكان يشاوره في قضايا كثيرة، منها أن شيخَ الإسلام سأله يومًا:

- هل من المناسب تعيين "فاضل باشا" قائدًا، وإرساله إلى "صاقيز" بعدّة سفن حربيّة لنقل جنود الأناضول إلى كريت؟

فأجابه:

- إجراءٌ في محلّه، وأنا معجَب بهذا القرار!

يرجع الفضل في تولي "الكاتب شلبي" وظيفته من جديد إلى أن "عبد الرحمن أفندي" قد أطلَعَ الصدر الأعظم "محمد باشا" على كتاب "تقويم التواريخ" لـ"شلبي" ممّا أثار إعجاب الصدر الأعظم وقلّده منصب محاسب ثاني في الباب العالي، على الرغم من الجهود التي بذلها المعارضون له لإثنائه عن هذا العمل.

دستور العمل

عام (١٦٥٢-١٦٥٣م) استُدعي "الكاتب شلبي" للانضمام إلى الهيئة

المجتمعة لتصحيح الموقف الماليّ للدولة، وتحرّي أسباب نقص مواردها وزيادة نفقاتها، والعمل على إيجاد حلّ لذلك العجز في الميزانيّة، فألّف حاجي خليفة -شلبي- كتابه "دستور العمل"، وقدّمه إلى الديوان؛ ليصلح الخلل ويوضح ما يجب عمله؛ إذ أشار إلى دخول الدولة العثمانيّة حالة من الركود، وأنّ على الإداريّين الوقوف على هذا الأمر واتخاذ الإجراءات اللازمة.

تُعدّ نصائح وتوجيهات "الكاتب شلبي" في تقريره أُسُسًا خالدةً لكل مَن يتسلّمُ أماكن حيويّة بإدارة الدولة؛ فيقول:

> "رغم علمي من الآن أنّ تقريري سيُغفل، وأنّ قولي سيُهمل، إلا أنّ مبعث خوفي هو أنّ الله تعالى سيسألني غدًا يوم القيامة، وسيقول، كنتَ من النخبة المثقفة في هذا الوطن، لماذا لم تبُح بالحلول عندما رأيت ذلك الفساد؟ ولماذا تقاعست عن دورك؟؛ لذلك أديت واجبي بهذا التقرير لأبرَأ إلى الله، وأؤكد أني إنما كتبته انطلاقًا من هذا المبدأ"[١٠٦].

وقد حافظ "شلبي" على حياده وهو يوضّح ويُحارب الفساد الذي تغلغلَ إلى إدارة الدولة، وأسبابَه وعلاجَه، ولم يقع تحت أيّ تأثير، ولم يتوان عن ذكر الحقائق التي يعرفها؛ فتصرُّفه هذا يُعدُّ من أهمّ الدروس والعِبر التي تُتّخذ من حياته.

يَقبَلُ "الكاتب شلبي" -المُشَبِّه حياة المجتمع بحياة الإنسان- فكرةَ أنّ كلّ مجتمع مُعرّض لحِقَب من الازدهار والضعف، ورغم قبوله ذلك إلا أنه يقول:

---

(١٠٦) قوكياي، المصدر السابق، ص ٩.

"عُمر أيّة دولة سيطول -بإذن الله- لو توافر لها المهَرَةُ من الإداريّين، مستشهدًا بالحكمة العثمانية:

"العالَم لا ينهار بالكفر، بل ينهار بالظلم"(١٠٧).

ثلاثُمائةٍ وألفُ مجلّد

كان "الكاتب شلبي" مولعًا بقراءة الكتب؛ حتى إنّه يسهر في قراءة الكتاب حتى الصباح، واهبًا نفسه أكثر من عشر سنوات للبحث والدراسة ليل نهار، وأحيانًا كان ينسى نفسه أمام الكتاب، فيشعل الشمعة في غرفته من غروب الشمس حتى شروقها من دون أن يشعر بملل.

كان أثناء رِحلاته يزور بائعي الكتب القديمة، ويجمع كتبًا لا تُعدّ ولا تُحصى، وذكرنا آنفًا أنّه أنفق على الكتب جزءًا كبيرًا من ميراثٍ آل إليه، وكان يُعرِب عن شعوره بالفخر دائمًا لكونه يمتلك كتبًا يظنّها بعض الناس قد فُقدت، وكان يسعى جاهدًا ويبذل ما يستطيع من المال من أجل الاطّلاع على الكتب التي يسمع بوجودها في أيّ مكانٍ آخر حول العالم.

أولى اهتمامًا كبيرًا بالأعمال التاريخيّة، وجمع كثيرًا من الآثار التاريخيّة، وقرأ كتبًا كثيرة لكي يستوضح أيّة جزئيّة يجهلها تاريخيًا، وذكر أثناء حديثه في كشف الظنون عن كتابه "فذلكة التواريخ" أنّه اطلع على ثلاثمائةٍ وألف من الكتب التاريخيّة، وكرّر ذكر ذلك في كتابه "تقويم التواريخ".

لقد أكّد "شلبي" على ضرورة قراءةِ رجال الدولة والقائمين على السلطة كُتُبَ التاريخ، وادعى أنّ أخطاء القادة في الحروب إنّما نبعت من جهلهم بالتاريخ.

---

(١٠٧) قوكياي، المصدر السابق، ص ٣٧.

يقصّ المؤرخ الشهير "شهري زاده" -كما رُوي عن الثقات- واقعة عن تعلُّق "شلبي" بالكتاب، فيقول:

- ذات يوم استضاف شيخ الإسلام "يحيى أفندي" "كاتب شلبي"، فتجاذبا أطراف الحديث ثم سأله "يحيى أفندي":

- يا "شلبي"، قد نمى إلى مسامعنا أن في منزلك ما يزيد على ألف مجلد عن تاريخ الدولة العثمانية، أصحيح هذا؟

أجاب "الكاتب شلبي":

- نعم هذا صحيح.

ولما أحسّ في نظرات شيخ الإسلام الشكَّ، أتاه في الغد بعشرة بغال محملة بألف وثلاث مائة مجلد مختلفة؛ دَهِش "يحيى أفندي" حينما رأى الكتب على البغال، فقال "الكاتب شلبي":

- سيدي، تلك هي الكتب المجلّدة، وفي المنزل ما يزيد عنها من غير تجليد.

"الكاتب شلبي" والغرب

كان "الكاتب شلبي" يهتمّ أيضًا بالعلوم الأخرى غير التاريخ، وكان كلّما قرأ كتب الجغرافية رأى سبق الأوربيّين فيها، فقرّر كتابة "جهان نما" لسدّ ذلك النقص، وكان يقول:

> "قرّاء الكتاب يمتلكون معلومات أكثر ممّن يقضون أعمارهم في التجوال، ويستطيع الإنسان بفضل الجغرافية أن يلفّ العالم".

كان "شلبي" يرى كتب الجغرافية المكتوبة بالعربيّة والفارسيّة والتركيّة كتبًا مختلطة لا تَفِي بالغـرض؛ فهمّ بتأليف كتابٍ يحاكي تلك المؤلّفات، أسـماه "جهـان نُما"، وبدأ تأليـف كتابه عام (١٦٤٨م)، إلا أنه لم يسـتطع إتمام عمله نظرًا لعدم التوفر المصادر الكافية.

يُعـدّ "الكاتب شـلبي" أول باحث عثمانيّ فكّـر بالرجوع إلى المصادر الغربيّـة، فهـو الـذي فكر في الاسـتفادة منها لكي يسـدّ أوجـه النقص في الآثـار التركيّـة والعربيّـة، فتعلـم اللاتينيّة جيّـدًا كي يتمكّنَ من الاسـتفادة مـن الأعمـال المكتوبة بها، واطّلـع بطريقة أو بأخـرى على كتاب "لوامع النـور فـي ظلمـات أطلـس مينـور (*Atlas Minor Gerardi Mercantoris A. S. Hondio plurimis aenis Atque Illustratus*)" للكاتبيـن (*G. Mercator*) و(*L.Hondius*)، فقام بترجمته إلى التركيّة بمساعدة الشيخ "محمد إخلاص" الفرنسيّ الأصل الذي اعتنق الإسلام في مارس/ آذار (١٦٥٤م).

استأنف كتابة "جهان نُما" في ديسمبر/تشرين الثاني من العام نفسه بعد أن أكمـل ثلثي الترجمة، واسـتفاد هذه المرّة من عدّة آثـار لكتّاب غربيّين أثناء إعداد كتابه.

العمل الذي لم يكتمل

بعـد المقدمـة والمدخل تـمّ ترتيـب دول العالم المذكـورة في كتاب "الكاتب شلبي" "جهان نُما" على النحو التالي:

"جـزر آسـيا بـدءًا مـن اليابـان، وجـزر الهنـد والصيـن مثل غينيـا الجديدة، ومولق -مدينة في شـمال إيـران-، وجزر الفلبين، وجاوا، وسومطرة، وبورنيو، وسيلان، وبلاد الشرق الأقصى مثل:

بلاد الصين، وبلاد جنوب آسيا وأواسطها مثل: الهند، والسند، وكشمير، والتُّبت، وأفغانستان، وأخيرًا فارس، وبلاد التركستان حتى شرق الأناضول"[١٠٨].

يُعرّف "شلبي" بشكل تفصيليّ في كتابه؛ فيشرح بيئة البلد الطبَعيّة جبالها وأوديتها وأنهارها ونباتاتها ومنتجاتها ويتناول بالترتيب على شكل أقسام أحوالها السياسيّة والإداريّة، وحياتها الدينيّة وأخلاقها وعاداتها ومستواها العلميّ والمعرفيّ، وصناعتها وتجارتها إلا أنّ وفاته في سنّ مبكرة حالت دون إتمام كتابه.

يُعدّ "جهان نُما" الذي طبعه "إبراهيم متفرِّقه" عام (١٧٣٢م) من أوائل الأعمال المطبوعة في العهد العثمانيّ، ثمّ تُرجم إلى عدّة لغات أوروبيّة، وعُدّ دليلًا إرشاديًا لكثير من الرحّالة الغربيّين.

كما أن "جهان نُما" أثرٌ فَتَحَ للعثمانيّين آفاقًا جديدة حول تصوّر العالم؛ فقد وسّع رؤية النخبة المستنيرة بشكل لافت للنظر، وهيّأ أرضيّة لكتابة آثارٍ أخرى في مجال الجغرافية، وأصبح رمزًا لجهود تستهدف الدخول مع أوربّا في اتّحاد ثقافيّ موسّع، وغدا تعبيرًا عن تلك النزعة[١٠٩].

كشف الظنون: معجم فريد في قيمته

عمل "الكاتب شلبي" عشرين عامًا في كتابة "كشف الظنون"[١١٠]، الذي يُعدّ من أفضل معاجم الكتب والمؤلفين، وقد قام هذا الباحث الكبير

(١٠٨) أ.د./ حميد سعد سلن، كاتب شلبي-كتابه جيهان نما، مجمع التاريخ التركي، أنقره ١٩٨٥م، ص ١٢٧.

(١٠٩) قوكياي، المصدر السابق، ص ٤٨.

(١١٠) يعد "كشف الظنون" من أشهر ما ألف في التعريف بالكتب والعلوم، وأجلها. يشتمل على زهاء (١٥٠٠٠) اسم كتاب، ونحو (٩٥٠٠) اسم مؤلف، ونحو (٣٠٠) علم وفن.

بترتيب الأعمال التي اطّلع عليها بنفسه أو وجدها عند بائعي الكتب القديمة أو في المكتبات ترتيبًا أبجديًّا في هذا العمل المجيد.

سجّل في ذلك الأثر أسماء عشرة آلاف كاتب، وقدّم تعريفًا لخمسمائة وأربعة عشر ألف كتاب ورسالة، ويذكر "شلبي" الأعمال مع كاتبها وتاريخ كتابتها، والأقسام الفرعيّة مع الأقسام الرئيسة، ويذكر معها آثارًا علميّة أخرى ذات صِلة، ويهتمّ في مقدمة عمله -المقسمة إلى أجزاء متنوّعة- بتاريخ العلم وأهميّته، ويقوم بترتيب أسماء العلوم وتعريفاتها.

لعِظم قيمة "كشف الظنون"؛ قام الباحث الألمانيّ "فلوجل" بين عامي (١٨٣٥-١٨٥٨م) بطبع النصّ العربيّ مع ترجمته اللاتينيّة في سبعة مجلّدات، وطبع الفهرس أيضًا.

يقول "حاجي خليفة" أثناء حديثه عن طلاب العلم في "كشف الظنون":

> "على الطالب أن يتطهّر من السجايا السيّئة، فلا بدّ أن يكون نقيًّا، فكما أنه لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب[١١١]، كذلك العلم لا يدخلُ قلبًا تستوطنه أخلاق الكلاب".

كان العلماء فيما مضى يستقصون أوّلًا عن طبائع طالب العلم وأخلاقه، فلو بدا فيه خلق سيئ، أبَوا أن يعلّموه لكيلا يصبح في المستقبل معولَ هدمٍ، وإذا وُجد أنّه صاحب خلق حسن علّموه، ولا يتركونه حتى يصل إلى مرحلة النضج خشيةَ أن ينال الفساد من دينه أو دين الآخرين[١١٢].

(١١١) البخاري: بدء الخلق، ٧.

(١١٢) أورخان شائق كوكياي، مختارات من مؤلفات كاتب شلبي، إسطنبول ١٩٦٨م، ص ٢١٦.

يتحدث "الكاتب شلبي" عن ضرورة التمسُّك بالمنهج العلميّ في تفسير الأحداث، موضّحًا أنّ العلم وسيلةٌ لنهضة المجتمع واستمرار وجوده، ويبيّن ضرورة احترام أيّ شيءٍ يتعلّق بالعلم قائلًا:

"للعلماء أهميّة في المجتمع تعادل أهميّة القلب في الإنسان".

كما يقول "كاتب شلبي" في موضع آخر:

"من يبغِ العلم، فعليه أن يكتب فرائده فورَ سماعها، وعليه أن يسجّل ملاحظاته عمّا يقرؤه؛ فالعلم صيد والكتابة قَيدُهُ، ولا بدّ كذلك من حفظ المكتوب؛ فالعلم في الصدور لا في السطور، فليس الهدف من كتابته الاعتماد على ما هو مكتوب، وإنّما الرجوع إليه عند النسيان"(١١٣).

يوضح "الكاتب شلبي" في كتابه "تحفة الأخيار" أنّ أعظم ما نقدّمه لأطفالنا من خيرٍ هو العلم، ويقول حول هذا الموضوع:

"نظرتُ في الدنيا، فإذ هي زينة وتخييل، ووجدت خيرَ جليس فيها هو الكتاب، وجدت معه الأنس والراحة بلا أذى ولا امتعاض".

كما قال أيضًا:

"الكتاب خير جليس، يشارك الإنسان همومه، ويفتح قلبه ويثلج صدرَه، تصل به إلى كلّ ما ينشده قلبك، فأنعِمْ به من صديقٍ مخلصٍ أمين لا مثيل له، ولا يحزنك ولا يسوؤك".

(١١٣) قوكياي، المصدر السابق، ص٢١٩.

أما عن قدرة القلم، فيعبّر عنها قائلًا:

"مـداد القلـم أَخَذُ من شَـرَاب السـيف، أي: من الـدم الذي يريقه، فما من كاتب إلا سيفنى، ويُبقِي الدهر ما كَتَبَتْ يداه".

كان "الكاتب شلبي" مفكّرًا دؤوبًا ذا شخصيّةٍ وعلمٍ واسـع وفكرٍ حرّ، صموتًـا، مِعوانًـا، حسـن الأخلاق، حليمًـا، ذوّاقًا، يصغـر للصغير، ويكبر للكبير، كان يقول في أعماله:

"ليـس مـن المنطق طلب المسـاعدة مـن الأمـوات، واعتياد السذّج والأطفال والنساء التدهّن بزيت الشموع عند الأضرحة إنما يرجع بالفائدة على حراس الضريح وبائعي الشموع فحسب".

وكلّما سنحت الفرصة، كان ينتقد تلك النوعيّة من المعتقدات الباطلة.

لقـد حارب "الكاتب شـلبي" التعصُّـبَ بأنواعه كلّها في زمـنٍ كَثُرَ فيه التعصُّـب، حتـى كادت تقـع حرب أهليّة بيـن أبناء الوطـن، ورجا الله أن يرحم أصحاب التعصّب كلّهم، وكتب وحلَّل الأحداث المتسبّبة في وقوع هذه الأزمات.

لقـد بـذل جهـدًا لتوضيح خطـإ التعصب وعبثـه معتمدًا علـى النقل -الكتاب والسنة- والعقل، وسعى إلى منـع هذا النوع من التيارات.

تحـرّي الحقائـق وسـعيُه لإظهارهـا أحد الأُسُـس البارزة فـي أعمال الكاتب شلبي، فشجاعته في الدفاع عن فكره، وتناولُه موضوعات الخلاف والنقاش بحياديّةِ قاضٍ، تبيّن أنّه يستحقّ تقديرًا أكثر ممّا قيل فيه.

يُعـدّ كتـاب "ميزان الحق" الذي ألّفه حاجي خليفة عام (١٦٥٦م) آخر أعماله، بدأه بمقدمة تشـرحُ ضرورة العلوم القائمة على العقل، وتناول فيه إحدى وعشرين مسألة مختلفة.

وفاته

في صباح السـادس من أكتوبر/تشـرين الأول (١٦٥٧م) شـعر شـلبي بالإغماء وهو يشـرب القهوة، وعمره يناهز الثامنة والأربعين عامًا، وتوفي فجأةً على إثر أزمةٍ قلبيّةٍ، وقبره في مقبرة صغيرة تقـع بين مجموعة بنايات سوق إسطنبول لتجارة الأجواخ بالقرب من جامـع "زَيرك شَبْصَفَا خَاتُون"، في الطريق مابين "سَرَاجْ خَانَة" و"أُونْ كَبَانِي" بحيّ الفاتـح.



أكرِم وأنعِم بسيدة القصر الشجاعة..

إنها السيّدة التي غامرَت بحياتها لإنقاذ حياة السلطان «محمود الثاني»، فحالت دون تهالك وسقوط العرش العثمانيّ..

إنها أمينةُ الخزينة «جوري قلفا».





أمينة الخزينة "جوري قلفا"

مــع بالـغِ الأسـف فنحنُ لا نملك معلوماتٍ وافيـةً عن حياة "جوري قلفا"[١١٤]، لكنّ الشائع أنّها من أصل شركسيّ[١١٥]، التحقت بخدمة القصر جاريـةً، وتولّـتْ وظيفة المسـؤولة عن خزينة حريم السـلطان فـي الثامن العشـرين مـن يوليو/تمـوز عـام (١٨٠٨م)، وعُرفت بـ"جوري أوسـطى"، أي: رئيسـة الخـدم؛ إذ كان يُطلق على القائمين بتلـك الوظيفة "خزينة دار أوسطى"[١١٦].

ويبـدو أنّ وفـاة "جـوري قلفا" كانت قبيـل التاريخ المذكور بالشـطر الأخيـر من هذه العبارة: "اشـرب ماء زمزم على روح المرحومة أوسـطى (١٢٣٥هـ/١٨١٩-١٨٢٠م)" المكتوبة على حوض السبيل بمدرسة أطفال شيّدها السلطان "محمود الثاني" مطلعَ شارع "ديوان يولي بـ "حَيّ السلطان أحمد" لتكون صدقةً على روحها.

---

(١١٤) قلفا: مديرة شؤون الجواري في قصر السلطان.

(١١٥) الشركس: هم مجموعة تشمل سكان شمال القوقاز من "أديغة" و"شيشان" و"آفار" و"لزجين" وغيرهم، كنتيجة للحروب التوسعية التي شنتها الإمبراطورية الروسية في المنطقة اضطر الكثير من الشركس إلى الهجرة إلى الأراضي العثمانية أو الروسية.

(١١٦) خزينة دار أوسطى: المسؤول عن خزينة حريم السلطان.

دُفِنت "جوري قلفا" بحيّ الفاتح في ضريح السلطانة "نَقْشِي دِلْ" -والدة السلطان "محمود الثاني"- على بُعد خمسين إلى ستّين مترًا من ضريح السلطان "محمد الثاني".

حركة التمرّد الكبيرة

بدأت حركة النظام الجديد -التي أولاها السلطان "سليم الثالث" اهتمامًا كبيرًا، واعتبرها بمثابةِ إعادة هيكلةِ مؤسّسات الدولة، والتي ازدهرت بعد عام (١٧٩٢م)- بدأت في التزعزُعِ بسبب التمرّدات وردودِ الفعل المتزايدة بعد عام (١٨٠٥م).

بحلول مايو/أيار عام (١٨٠٧م)، اندلعت حركةُ تمرُّدٍ هائل بتحريض وترتيب من قائم مقام الصدارة(١١٧) "كوسه موسى باشا" وشيخ الإسلام "عطاء الله أفندي"، وفي السابع والعشرين من مايو/أيار عام (١٨٠٧م) تجمّع خمسمائة متمرّد عند "بيوك دره" في "ساريير(*Sariyar*)"، يتزعّمهم "قَابَقْجِي مصطفى شاووش" أحد المنتمين لمعسكر الإنكشاريّة، وساروا بمحاذاة الساحل حتى وصلوا إلى "طوب خانه"، ثمّ عبروا إلى إسطنبول بالقوارب، ووصلوا إلى حي "أَتْيَمَزْ (*Etyemez*)" وبها ثُكنات الإنكشاريّة، وتجاوز الحشد عشرةَ آلافٍ لما انضمَّ إليه معسكرا الإنكشاريّة و"جبجي" ورجال المدفعيّة، وملؤوا ميدانين بحيّ "السلطان أحمد"، وخرج الأمر عن نطاق السيطرة.

في التاسع والعشرين من مايو/أيار عام (١٨٠٧م)، خُلع السلطان "سليم الثالث" عن العرش، وتولّى مكانه السلطان "مصطفى الرابع" -ابن

(١١٧) قائم مقام الصدارة: هو لقب من ينوب عن الصدر الأعظم -رئيس الوزراء- في أعماله.

عمّ السلطان سليم- الذي دعمَ الانقلاب من بداية ظهوره، ولعب دورًا مؤثرًا في المؤامرات المَحُوكة على السلطان والنظام الجديد، وأُجبر السلطان السابق على الإقامة الجبرية في غرفةٍ بقصر "طوب قابي".

بعد عامٍ واحدٍ من الواقعة تحرّك "عَلَمْدَار مصطفى باشا" القائد العسكريُّ من أجل إعادةِ السلطان "سليم الثالث" إلى العرش، وتحرّكَ من مدينة "روسه"(١١٨) بغرض إحياء النظام الجديد مرّةً أخرى، وسار إلى إسطنبول بالقوات التي تخضَعُ لسيطرته، حتى وصل إلى أبواب قصر "طوب قابي".

حاكمٌ منحوسٌ

في تلك الأثناء أوعز المقربون للسلطان "مصطفى" وأقنعوه أنّ بقاءهُ على العرش العثمانيّ مرهونٌ بموتِ السلطان "سليم" والأمير "محمود"؛ فأصدر السلطان أمرًا مباشرًا بقتلِهما، ويبدو أنّ غرض السلطان من هذا الأمر هو ضمانُ استحالة خلعهِ، وبناءً على ذلك اقتحم الجنودُ بشراسةٍ غرفة السلطان "سليم"، ووقع ذلك الحاكمُ المنحوس على إِثْرِها قتيلًا، ووُضِعت جثّته أمامَ غرفةِ العرض(١١٩).

في ذلك الحين كان "عَلَمْدَار مصطفى" على وشْكِ تحطيم باب السعادة(١٢٠)، في حين كان المحيطون بالسلطان "مصطفى" يبحثون

(١١٨) روسه: هي خامس أكبر مدينة في بلغاريا. تقع في الشمال مقابل الحدود الرومانية على نهر الدانوب وتبعد ما يقارب ثلاثمائة كم عن العاصمة "صوفيا".

(١١٩) غرفة العرض: القاعة التي كان يستقبل فيها السلطان الصدر الأعظم وأركان الديوان الهمايوني أيام تقديم المعروضات. سهيل صابان: ص ١٥٨.

(١٢٠) باب السعادة: يطلق عليه باب الأغوات البيض، ويتكون من بابين متداخلين، مقابل رواق يستند على عمد رخامية حيث يجلس فيه السلطان في مراسم الأعياد، سهيل صابان: ص ٤٨، ٤٩.

عـن الأمير "محمـود"؛ فلقد كان قصر "طوب قابي" في الثامن والعشـرين من يوليو/تموز عام (١٨٠٨م) يشهدُ واحدة من أفجع أحداثه التاريخيّة.

دمُ السلطان سليم

تهافـتَ المتمـرّدون -البالـغُ عددُهـم تسـعة عشـر ومعهم اثنا عشـر "بوسـتانجيًا"[١٢١] امتـلأت عيونهـم بالشـرّ- علـى بـاب "كـوش خانـه" بحريـم القصر شـاهِرين السـيوف بعد أن أبعـدوا المعلِّـم "لالا طيار آغا" عن طريقهم، ثمّ اسـترد المعلم لالا وعيَه، فأخذ معه اثنين من المساعدين وتعقَّـبَ القَتَلَـة، لكـن لكونهم من "أنـدرون" حفظـوا حرمـة "الحَرَمْلِكْ" ولـم يتجاسـروا علـى دخول الحـرم مثل أولئـك القَتَلَـةِ الذيـن لا يبالون بأيّـة حرمة، وإنما اسـتغاثوا بالخـدمِ الزنوج حراسِ الحريم: عنبر وقاسـم وحافـظ عيسـى كان الزنـوجُ الثلاثـة رجـالًا ضخامًا إلى حدٍّ مـا، عمالقة، أقوياء، فأشـهروا أسيافَهم بسرعة، وهُرعوا لإنقاذ السلطان "سليم" والأمير "محمود"، إلا أنّهم تأخّروا عن السلطان "سليم".

توجّهوا هذه المرّة إلى غرفة الأمير "محمود"، لكنّ السـلطان لم يكن هناك، فالأمير الشـابّ ذو الثلاثة وعشـرين عامًا تم تهريبُه بواسـطة جوري قلفـا إلى غرفـة بالدور العلويّ مـن "آلتن يول" -الغرفـة الخاصّة بجوري قلفا- ولما وصل الزنوج إلى السلم الحجريّ المؤدّي إلى الدور العلويّ، وصل القتلةُ أيضًا؛ فصاح "أَبَه سليم" -أحد رجال السلطان مصطفى-:

- أيّهـا الرجال، أفسـحوا الطريـق لئلّا يصيبكم الضـرر، فقد صدرت فتوى بإعدام الأمير.

---

(١٢١) "بوستانجي (*Bostancı*)": صنف من الإنكشارية مكلف بوظائف الأمن والحراسة في معسكر الإنكشارية.

فصاحَ "قاسم آغا" قائلًا:

- لن تستطيعوا المرور.

وزأرَ الزنجيّ "نذير" في "البوستانجيّة" قائلًا:

- لـمَ أنتـم واقفون؟ الأمير بالدور العلويّ! لا تتباطؤا في عملكم؟ هيّا بسرعة اقضوا عليهم!

تضاعفت وحشيّةُ الجُناة بعد أن تلطّخت أيديهم بدماء السلطان سليم، وبينما كانوا ينقضّون بهمجيّة على الخدم المتصدّين لهم، صعد الزنوج السلّم وهم يتخطّونه بسرعة فائقةٍ، وعلى حين اختار "قاسم آغا" مكانًا مناسبًا له عند الفسحة العلويّة للسُّلّم، أخذ عنبر وحافظ عيسى مكانهما عند باب الغرفة، لكن إلى متى تستطيع ثلاثةُ سيوف أن تصمدَ أمام تسعة؟ استطاع "قاسم آغا" أن يصمد أمام القتلة الغوغائيين خمسَ دقائق فقط، لكن في النهاية أصبحَ أعلى السُّلّم خاليًا بعد أن أُصيب "قاسم آغا" بحربةٍ أطلقها أحد البوستانجيّة[١٢٢].

معركة "جوري قلفا" ذات الرماد

في لحظةٍ اندثر فيها كلّ شيء ظهرت "جوري قلفا" وغيّرت مسار الأحداث، تلك الفتاة الشركسيّة المديدة، القويّة الشديدة، قفزت كنَمِرة حافية، وقد استثفرت[١٢٣]،كانت تحمل بيدها وعاء كبير مملوء بالرماد، فصرخت في "عيسى" و"عنبر" قائلةً:

(١٢٢) رشاد كرم أقجو، موسوعة إسطنبول، المجلد السابع، ص ٣٥-٢٣.

(١٢٣) أدخلت أطراف ثوبها في حزام تشد به خصرها.

- هيّا، لا تتوقّفوا، هرِّبوا الأمير.

ثم أشارت إلى فتحةِ المدخنةِ قائلةً:

-إلى السقف، هيا بسرعة إلى السقف.

فصعدت إلى أعلى السلّم مسرعةً، وبدأت تنثرُ الرماد الساخن على وجوه القتلة الذين يصعدون من السلم على وجه السرعة، وأثناء ذلك الصخب توقّفَ الجناةُ عنوةً من كثرة الرماد الساخن الذي نَثَرَتْهُ جوري قلفا عليهم حتى أعمى عيونهم، وهذا ما أكسبَهم بعضًا من الوقت لكي يهربوا من أيدي القتلة، وكان الرجال الزنوج حينئذ يحملون الأمير محمودًا على أكتافهم، ويحاولون إخراجَه عبرَ المدخنة، أما جوري قلفا، فقد نَفِدَت قُواها كما نَفِدَ رمادُها أيضًا، ولما حاولت التراجُعَ خطوةً إلى الوراء، تدحرجت على الأرض إثرَ ركلةٍ في بطنها، وفقدت الوعيَ.

وصل إلى صحن السلّم أحدُ الجلادين الذي كان يُدعى "أبا سليم"، وكان قنّاصًا ماهرًا في الرمي بالسكين، فأطلق الخنجر بسرعة صوبَ الأمير محمود وهو على وشْك الصعود إلى السقف، فانغرز في ذِراعه، إلا أنّ الأمير نجح في بلوغ السطح.

نجاة الأمير

كانت الصرخات في القصر تزداد تدريجيًا، حيث داهم "عَلَمْدَار مصطفى باشا" باب السعادة، ودخل القصر وإذا به أمامَ جثمان السلطان "سليم" خارج غرفةِ العرض، فانكبّ عليه، وبدأ يصرخ:

- واهًا يا سيدي، بعد أن شددتُ الرحال، وقطعتُ هذه المسافة من أجل إجلاسِك على العرش، إذا بعينيّ تراكَ على تلك الحالة، لأنتقمنّ ولأذبحنّ أولئك الخونة "أندرون"!

وعلى إثر كلماته هذه قاطعه "رامز أفندي" لينبّهه فقال:

- ليس هذا وقت البكاء على ما كان، ولا الأخذ بثأر مَن مات، الوقت ضيق، ودقيق جدًّا لإنقاذ الدولة، نرجو ألا يلحق الضرر بمولانا السلطان محمود!

فأمر "عَلَمْدَار" من حوله من الجنود:

- ابحثوا عن مولانا السلطان "محمود"، اصعدوا للأعلى، حطّموا الأبواب[١٢٤].

ولما تزايدَتِ الجلَبةُ، تشتّت قتلةُ السلطان سليم في أنحاء القصر جميعًا طلبًا للنجاة، وفي ظلّ ذلك الهرج والمرج نجا الأمير "محمود" و"جوري قلفا"...، ثمّ أُنزل الأمير الشابّ مِن على السطح، يتقدمه "حافظ أحمد أفندي"، في حماية المعلم "لالا طيّار" و"محمد آغا" في المؤخّرة، وحينما اقتربوا من "عَلَمْدَار مصطفى باشا"، سأل الأخيرُ بلهجةٍ روميّة:

- من هذا؟

فأجاب "حافظ أفندي":

- مولانا السلطان "محمود"، حان الدور لاستخلافه، أنا بايعته، وبقي لكم القيام بما فيه الخير والمصلحة.

(١٢٤) أكسون، المصدر السابق، المجلد الثالث، ص ١٠٧.

فاستجمع الباشا نفسه، وقال وهو يقبّل طرف ثوب السلطان:

- سيدي، لقد جئتُ إلى هنا لأصطحِبَ عمّك إلى العرش إلا أنني فوجئت بجثمانه وضاقت عليّ الأرض بما رحبت لأن عيني شاهدت هذا المنظر المؤلم ولا تقرّ عيني إلا اصطحاب سيادتك إلى العرش.

بعد تلك الكلمات تمّ تنصيبُ السلطان "محمود"، المصاب بجروحٍ خفيفةٍ أعلى حاجبه لارتطام جبينه بالحائط وفي ذراعه بالخنجر أثناء صعوده إلى السطح من النافذة العلويّة بغرفة "جوري قلفا".

وفاة "جوري قلفا":

لم يُقصّر السلطان بعد أن تولّى الحكم في تعظيم تلك المرأةِ الباسلةِ التي ساعدته وألقت بنفسها إلى التهلكة، فمنحها المكافآت القيّمة اللائقة بعظمة بطولتها، وعيّنها أمينة لخزانة الحرم السلطانيّ.

لم يكتفِ السلطان "محمود الثاني" بمنحها الوظيفة، بل أمر كذلك بإنشاء قصرٍ رائعٍ لها في حيّ "بُيُوكْ چَامْلِيجَه"، وخصّص لها ما حوله من الأراضي الشاسعة، علاوةً على ذلك فقد أمر بسحب ماء عينٍ ينبع من الأرض نفسها إلى "أسكودار"، وأسماه "جوري قلفا سُويي"[(١٢٥)] وأمر بإنشاء هذا السبيل في منطقة "إيجاديه" داخل حي "أسكودار" للناس.

وعلى إثر وفاتها عام (١٨١٨-١٨١٩م)، أمر السلطان "محمود" بإقامة مدرسة أطفال، وسبيل ماء على روحها وفاءً وعرفانًا بجميلِها.

---

(١٢٥) أي سبيل جوري قلفا.

تقعُ تلك المدرسة أمام جامع "فيروز آغا" أول شارع "ديوان يولي" بحيّ "السلطان أحمد"، وتحمل اسم "مدرسة جوري قلفا للأطفال"، وهذه المدرسة تُعدّ أكبر مدارسِ الأطفال بـ"إسطنبول" من حيث المساحة، وهي أثرٌ نادرٌ يتّسم بخصائص مختلفةٍ عن غيره من الأبنية، ويحمل آثار تيّارات الفنون الوافدة من الغرب من حيثُ عِمارته وتصميمه ووجهته.

ولقد كتب "كجهجيزاده عزت مولا" آخر الخطاطين العظام على باب المدرسة الرئيس منقوشًا بخط الرخام قصيدةً خلد في آخر بيت من أبياتها تاريخَ وفاة "جوري قلفا" حيث أشار إليه من خلال الأحرف الأبجدية بالطريقة العثمانية(١٢٦).

خدمت مدرسة "جوري قلفا" أطفالَ الدولة نحو أربعين سنة، ثمّ حُوّلت عام (١٨٥٨م) إلى مدرسة فنون للفتيات، وبعد إعلان الجمهوريّة استُخدمت مخزنًا لسجلّات رئاسة الوزراء، أي: دار محفوظات رئاسة الوزراء، وبدءًا من العام الدراسي (١٩٤٥-١٩٤٦م) تحوّلت مرّة أخرى إلى مدرسة ابتدائيّة، وخلال الثمانينيّات أُخْلِيَتْ المدرسة مدّة، وبعد عام (١٩٨٥م) خُصِّصَت لجمعيّة الأدب التركيّ.



(١٢٦) ونص البيت الأخير من قصيدة "عزت" الذي يخلد فيه تاريخ وفاة "جوري" هو: "مكتيله روحي جوري اوتانك شادان اوله" حيث تشير الأحرف المنقوطة فيه إلى تاريخ وفاتها.

قائدٌ رابطُ الجاش لا يعرف معنى الخوف أو التردّد...

رجل الحروب وفارس الميادين..

لقد امتاز بما لا يتوفّر لدى كثيرٍ من القادة؛ إنها سرعة اتّخاذ القرار الصائب، ففي خضمّ المعركة يُصدر القرار المناسب في الوقت المناسب..

قال عنه قيصر الروس «ألكسندر»:

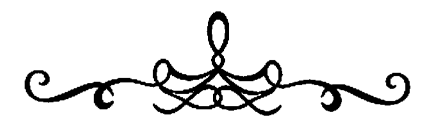
"لا يحزننَّك وقوعك في الأسر، فقد أدّيتَ ما عليك على الوجه الأكمل، وإني لأعدّ نفسي محظوظًا؛ لكوني حاربت قائدًا شجاعًا هُمامًا ذا فطنةٍ مثلك".

وقال عنه «جراندوق نيقولا» شقيق القيصر:

"أهنّئك بدفاعك؛ فقد كتبتَ واحدةً من أعظم الملاحم التاريخيّة".

إنه البطل «عثمان باشا»





البطل "عثمان باشا" ودفاع "بلفن"

عندما يذكر دفاع "بلفن *(Plevne)*"[١٢٧] يتبادر إلى الذهن على الفور سيرة القائد البطل "عثمان باشا"، لقد أدّى الباشا مهمّات عظيمة قبل دفاع "بلفن" وبعده، سواءً على الصعيد العسكريّ أم السياسيّ، وقدّم للدولة العليّة خِدمات جليلة لا تُعدّ ولا تُحصى.

وُلِد "عثمان نوري باشا" بمدينة "طُوقات" عام (١٨٣٣م)، واحتلّ اسمه الصدارة في ترتيب القادة ذوي المهارة والفِطنة الذين أنتجتهم الدولة العثمانيّة في الأعوام المائة الأخيرة، وكان والده "محمد أفندي" يعمل موظّفًا في مصلحة الجمارك في إسطنبول، أتى مع أسرته إلى إسطنبول وعمره سبع أو ثماني سنوات، واستقرّوا في منطقةِ "بشكتاش".

ولما أنهى "عثمان" المدرسة العسكريّة الإعداديّة والثانويّة، ثمّ الكليّة الحربيّة، التحقَ بالجيش ملازمًا عام (١٨٥٣م)، ورغم الموافقة على ترقيته

(١٢٧) بلفن: مدينة في شمال بلغاريا على بعد أربعين كيلومتر من مدينة "تورنو ماغوريلا"، وتعتبر مدينة بلفن من أشهر المدن البلغارية.

إلـى رتبـة ضابطٍ بـلا امتحان لنجاحه الفائق، إلّا أنّه أُرسـل إلى الجبهة إثر نشـوب حـرب "القرم"، فخدم أربـع سـنوات في الجيـش بـ"روملي" برتبة مـلازم، ونظـرًا لبطولاتـه رُقّي أولًا إلـى رتبة ملازم أول، ثـمّ نقيب، وعاد إلـى إسـطنبول وهو فـي الرابعة والعشـرين من عمره بعـد أن أنهى الكليّة الحربيّة وأصبح النقيب الأول.

تمرّد الروم

في عام (١٨٦٥م) يظهر أمامنا الباشـا في سورية وقد حصل على رتبة مقـدّم، وتحـت إمرته وَحدة عسـكريّة من المشـاة؛ لتكليفـه بالقضاء على "يوسف كرم" بمنطقة "جبل لبنان"، حيث سيطر "عثمان نوري" في غضون مدّة قصيرة على ذلك التمرّد.

إبّان ذلك تمرّد الروم بجزيرة "كريت" سعيًا لضمّ الجزيرة إلى "اليونان"، وحينما تقرّرت الدولة العثمانية إرسـال الجنود إلى جزيرة "كريت" لقمـع العصيان، أُسـنِدت تلـك المهمّة لـ"عثمان نوري" لقربـه من تلك الجزيرة، فترأس الباشا الوَحدات العسكريّة، وشنّ هجومًا على المتمرّدين -ساكني الجبل العادّين أنفسـهم من أهل روما، المتمركزين بـ"أسـفقيا" أعلى جبال جزيرة "كريت"- وقضى عليهم جميعًا.

ظـلّ المقـدِّم "عثمان نـوري" هناك إلى أن اسـتقرّ الحال، وبدأ اسـمه يشـتهر بفضل جهـده وبذله ودهائـه، وحظي بتقدير من قائـده "أكرم عمر باشا" لخِدْمَاته في قمـع عصيان كريت، وتمّت ترقيته إلى رتبة "عقيد".

قائد برتبة "لواء" في الأربعين

وعندما وقع تمرّدٌ في اليمن عام (١٨٦٨م) قررت الحكومة العثمانية إرسال فرقةٍ عسكريّةٍ بقيادة "رديف باشا" وكان العقيد "عثمان نوري" يتولى قيادة كتيبة الأولى من تلك الفرقة ورُقّي إلى رتبة عميد لنجاحه الفائق في المعارك وهو ابن الخامسة والثلاثين، لكنّ "عثمان نوري" لم يستطع أن يعتاد على مُناخ اليمن، فمرض، وأُعيدَ إلى إسطنبول عام (١٨٧١م) كي يتداوى ويتعافى.

بعد مدّةِ نَقَهٍ قصيرةٍ استمرّت بضعة أشهر، تولّى الباشا في البداية قيادة الجيش الثالث بِـ "مانستر"، ثمّ عُيّن قائدًا لفرقة "يني بازار (*Yenipazar*)"، فجذب انتباه قادته بسعة معرفته، واجتهاده، وبرفعه كفاءة قواته وحُسن تأهيله لها في كلّ مجال، وبنجاحٍ أظهره في التعليم والتدريب.

وبتكليفٍ منهم، نال رتبة فريق وهو في سنّ الأربعين.

مدّة قصيرة تولى الفريق عثمان باشا القيادة المركزيّة بـ"إسطنبول"، وبعدها عُيّن أولًا في قيادة "إيشقودرا" بـ"ألبانيا"، ثمّ قائدًا لـ"البوسنة"، ثمّ تولى رئاسة أركان الجيش الرابع المتمركزة في مدينة "أرضروم".

عثمان باشا في "فيدين"(١٢٨)

في عام (١٨٧٥م) سادت في منطقة البلقان حالة من الاضطرابات؛ فأحداث البوسنة والهرسك، وعصيان "قره داغ" والاضطرابات الداخليّة

(١٢٨) فيدين: مدينة بلغارية تقع على ضفاف نهر الدانوب في شمال غرب بلغاريا بالقرب من الحدود الرومانية الصربية.

في البلغار، حوّلت المنطقة إلى قنبلةٍ موقوتةٍ، وحاولت الدولة اتخاذ التدابير لإنهاء الاضطرابات بأسرع ما يمكن، فقامت بتعيين القادة المحنّكين على القوات بـ"روملي"، وتزامن هذا مع تعيين الفريق "عثمان نوري" باشا على فرقة الجيش الأول بـ "نيش"(١٢٩)، وعمل الباشا مدّة قصيرة في المعسكر المركزيّ، وعُيّن قائدًا لـ"فيدين"؛ فتولى في العام نفسه قيادة فرقة فيدين على حدود الصِّرْب.

واقتضت خطورة الأحوال السياسيّة أن يجعل "عثمان" باشا قواته في "فيدين" على استعداد دائم للحرب؛ فأعدّ خطط المعركة، وفي تلك الأثناء ظهرت مقاومة مسلّحة بين مسيحيّي الهرسك وانتشرت بالبوسنة، وكان "الصرب" و"قره داغ" يقومان بالتحريض وتصعيد الأحداث موقنين بمؤازرة روسيا لهم.

في السابع والعشرين من يونيو/حزيران عام (١٨٧٦م)، رفع الصرب إلى إسطنبول مذكرة رسميّة طالبوا فيها بانسحاب القوات العثمانيّة على الحدود، وتعيين الأمير الصربيّ "ميلان" على ولاية البوسنة، أمّا في الدولة العثمانيّة، فقد تمّ خلعُ السلطان "عبد العزيز" عن العرش قبل شهر -في الثلاثين من مايو/أيار عام (١٨٧٦م)- ، وقتلهُ بعد أربعةِ أيّامٍ باغتيالٍ غادرٍ.

أما السلطان "مراد الخامس" خَلَفُه، فلم تكن حالتُه الصحيّة على ما يرام.

(١٢٩) نيش: هي مدينة تقع شمال صربيا.

"بلغراد" هدف الباشا

عندما رفضت الدولة العثمانية مطالب الصرب، قاموا في الثاني من يوليو/تموز عام (١٨٧٦م) بإعلان الحرب على الدولة العثمانيّة.

كان الفريق الروسيّ "جرنايف" على رأس القوات الصربيّة، وهو من الأسماء البارزة لحركة الصقالبة، وكان ذلك الفريق يسعى إلى تحريض شعوب البلقان على الإسلام بشعارات، مثل:

> "كلّ شيء للصقلبيّة المقدسة، فلنحارب في سبيل صليب الأرثوذكس، تحيا وحدة شعوب البلقان".

وكان يأمل أن تُتوج نهاية ذلك التحريض بالوصول إلى صوفيا واستقلال بلغاريا.

بدأت الحرب بهجومِ جيشِ الصرب على منطقة "فيدين"، وتقدمت الكتائبُ الفدائيةُ -المسماةُ الكتائبَ المقدسةَ- فرقَ المشاة الصربيّة، وكان "عثمان" باشا مستعدًّا للحرب، فبَاغَت بعبور نهر الدانوب، وشنّ هجومًا مضادًّا، ودارت معركة حاميَة بين الجيشين، حتى إنّ كتائب الجيش الصربيّ كلّها -وعلى رأسها الكتائب المقدّسة- قد انفرطَ عِقدُها، وفي أعقاب هذا النصر استولى الباشا على مرتفعات "إزور"، وهي منطقةٌ ذات أهميّة تخطيطيّة، وكان الهدف التالي هو بلدة "زايجر" الممثلة نقطةَ بلغراد الرئيسة.

في السادس من أغسطس/آب (١٨٧٦م)، دخل "عثمان" باشا تلك البلدة ضاربًا الصرب صفعة كبرى، وفي التاسع والعشرين من أكتوبر/

تشـرين الأول من نفس العام، وعقبَ هزيمةِ "جرنايف" الحاسـمة تشـتّت شملُ الصرب تمامًا، وفتُح طريق "بلغراد" أمام الجيش العثمانيّ.

ازدادت شـهرة "عثمان" باشـا بهذا النصر لِمَا أظهره من إنجاز؛ فمُنح وسام المجيديّة من الدرجة الثانية مـع رتبةِ "مشير".

وقـد جعل عثمان باشـا يبكي عندما رقي في التاسـع والعشـرين من ديسـمبر/كانون الأول (١٨٧٦م)، وكان يقول في تواضُـعٍ جمّ وهو يلتفت إلى "طاهر باشا" رئيس أركان الفيلق:

- جعلوني مشيرًا -يا طاهر- ولكنّي لم أفعل شيئًا!

فقال له طاهر باشا:

- لا تقل هذا -يا حضرة الباشـا-، فغدًا سيسجل التاريخ اسمك بكلّ فخر[١٣٠].

كان هدف عثمان باشـا الاسـتيلاء على بلغراد، وبينما كان يهمّ بهجوم عظيم بجيشـه، إذ بأمر يأتي من إسـطنبول بإيقاف المعركـة، وبالفعل هُزم الصـرب، لكـنّ ظهـور الـروس ودول أوروبا على السـاحة أجبـرَ الجيش العثمانيّ على وقف إطلاق النار.

بعد أن عاد عثمان باشا إلى "فيدين" مرّة أخرى عمل على تنظيم أمور الجيـش، وقـام بإعادة هيكلةٍ لكل شـيء، فتمّ ترميـمُ المتاريس المحصنة، بحيث قام بتثبيت خمسـمائة مِدفـع للاسـتخدام المباشِـر عنـد الدفاع عن القلعة.

---

(١٣٠) أ.د.: متين هولاكو، المشير المصاب، إسطنبول ٢٠٠٦م، ص ٤٢.

"بلفن" مفتاح بلاد البلقان

بعد حرب الصرب عُقِد مؤتمر السلام في إسطنبول، فبحثت فيه روسيا عن ذريعة لإعلان الحرب على الدولة العثمانيّة، وعرضت مطالب تنتهك الحقوق السياديّة للدولة العثمانيّة، وكأنّ الدولة العثمانيّة هي المهزومة في الحرب لا المنتصرة.

في الرابع والعشرين من أبريل/نيسان عام (١٨٧٧م) أعلن الروس الحرب على الدولة العثمانيّة؛ وهكذا بدأت الحرب التي أُطلِق عليها فيما بعد "الثالث والتسعين" والتي كانت وبالًا على الدولة العثمانيّة، وكبّدتها خسائرَ فادحةً في الأراضي والأرواح، وكان "عثمان" باشا آنذاك مشيرًا شابًا في الخامسة والأربعين من عمره، وكان يتولّى قيادة القوات بـ"الدانوب" المعروفة باسم الجيش الغربيّ، وكانت "فيدين" مركز ذلك الجيش.

بعد أن تجاهلت القيادة العسكريّة العليا مرّات كثيرة خططًا حربيّة أوصى بها "عثمان" باشا، صدر أخيرًا الأمر العسكريّ المُرْتَقَبُ، لكن بعد فوات الأوان، فقد سقطت "نيغبولي"، وتقدّمت قوّات العدوّ بسهولة من دون أن تواجهَ أيّةَ مقاومة حتى وصلت إلى "بلفن" و"لوفجه"، وعندما قرّر الباشا التحرُّك إلى "بلفن"، أُصيب بحزنٍ عميق، إذ عَلِم بإرسال الروس قوّة استطلاعيّة إلى هناك، فأصبحت أسبقيّة الوصول إلى "بلفن" هدفًا لكِلا الجيشين لا يمكن التخلّي عنه، لِمَا تتمتّع به بلفن من موقعٍ حيويّ من الناحية العسكريّة، ولوجودِها عند مفترق الطرق المؤدّية إلى "أورخانية"، و"صوفيا"، و"لوفجه".

نومُ الجنود

توجَّـه "عثمـان باشـا" مـن فيدين بفيلقٍ قوامُه خمسـة وعشـرون ألف جنديّ في الأول من يوليو/تموز (١٨٧٧م)، ووصل إلى بلفن في السـابع مـن يوليو/تمـوز مـن نفس العام بالسـير قسـرًا ليل نهار، وكانت المسـافة بيـن المدينتيـن نحو مائتي كيلومتر، وقد قطعها الباشـا وجنوده في سـبعة أيـام، وذلـك ما يعادل ثلاثين كيلومترًا في اليوم، وكان كلّ جنديّ في تلك المسيرة يحمل على ظهره بندقيّة وسبعين رصاصة، وعتادًا كاملًا.

وقد أمر "عثمان باشـا" بإعدام كل من تُسـوّلُ له نفسـه بتخفيفِ حِمْلِهِ ويتـرك عتـادَه ليسـهّل حركتَـه وذلـك رميًـا بالرصـاص، وقد كنّى الباشـا عن مشـقّة السـير القسـريّ للطبيب النمساويّ "سير تشـارلز ريان" النقيب فـي جيـش بلفن فقال: "يا ولدي، عندما كنّـا في الطريق إلى المعارك كان أيُّ جنـديّ ينـام وقتمـا يُتـاح له النـوم، إذ لا يَعلم أحدُهم أيـن ومتى يجد فرصةً أخرى لينام"(١٣١).

هزيمة الروس

في السابع من يوليو/تموز (١٨٧٧م) كانت بلفن مدينة سهلة الاختراق لعدم تحصينها بالمتاريس، وكانت بلدة صغيرة محصورة بين تراكم ترابيّ غير متناسق، طرفُه منطقة جبليّة، وطرفه الآخر سهل.

ولمـا دخل "عثمان باشـا" بلفن، سـمح لجنده براحة قصيـرة، ثم بدأ فورًا في تشييد المتاريس، ولما انتصف الليل اقترب من الخطوط الأماميّة

(١٣١) أ.د.: هولاكو، المصدر السابق، ص٦٢

لـ"الروس"، واستطلع الوضع مستصحبًا معه مجموعة صغيرة من الفرسان حيث كان العدو يستعدّ للهجوم.

كان رأي عثمان باشا صائبًا، فمع فجر الغد هجم الروس لطرد القوات العثمانيّة الْمُتْعَبة من تلك المنطقة الحيويّة المهمّة، وبعد أن استمرّت معارك المدفعيّة من كِلا الجيشين قرابةَ ساعتين؛ بدأت حرب المشاة، وكان الباشا يتفقّد بالحصان العربيّ كلّ جهةٍ، ويذهب إلى نقاط المعركة كلّها، ويبثّ الشجاعة في الجنود.

في نهاية معركة استمرّت اثنتي عشرة ساعة هُزم الروس واضطروا للانسحاب، ووصل عدد قتلى الروس سبعة آلاف، وكان السرّ في نجاح "عثمان باشا" يكمن في اتّخاذه القرار الصائب والسريع، وكان عددُ ما فقده الجيش العثمانيّ في تلك الحرب المعروفة تاريخيًا بمعركة بلفن الأولى نحو ألفين ما بين جريح وشهيد.

"عثمان باشا" وجِياده الثلاثة

بعد عشرة أيام من تلك المعركة، قام الروس بالهجوم مرّة أخرى في الثامن عشر من يوليو/تموز عام (١٨٧٧م)، وبلغ عددهم ستّين ألفًا، أمّا جيش الباشا فقد زاد بالمَدَد إلى ثلاثة وثلاثين ألفًا.

بدأت المعركة الدامية مع الفجر إلى غروب الشمس، وبمرور الوقت أخذت عزيمةُ الجيش العثماني تخور وتنهارُ وأُصيب باليأس، إلا أنّ صلابة "عثمان باشا" ورباطةَ جأشِه قد غيّرتا سيرَ الحرب، وفي النهاية بدأ الجيش الروسي يفرّ يائسًا.

بحلول مساء الغد شتّتت الكتائب العثمانيّة قوّات الروس بشنّها هجومًا مضادًّا مباغتًا، ونكّل الفرسان العثمانيون بمَن استطاعوا أن يقبضوا عليه من جنود الروس الهاربين، في حين غرق معظم الفارّين في جدول "أوسما".

إن معركة بلفن الثانية كانت أعنف من معركتها الأولى وفي تلك المعركة الدامية ذاع صيت "عثمان باشا" ووصل عنان السماء حتى روي أنه امتطى صهوةَ ثلاثةَ جياد ماتت جميعُها ولم يُصِبْهُ هو أيُّ أذى.

جشّمت معركةُ بلفن الثانية الروسَ ما يزيد على ثمانية آلاف قتيل وآلاف من الجرحى، أما خسائر الجيش العثمانيّ، فكانت مائة شهيد وثلاثمائة جريح فقط.

في نهاية تلك المعركة، وعلى حين كانت ترتفع معنويّات الجنود العثمانيّين، وتزيد ثقتهم بقائدهم، كانت فكرةُ استحالةِ الاستيلاء على بلفن تتأكّد لدى الجيش الروسيّ.

وفي تلك الأثناء صدر قرارٌ حاسمٌ من إسطنبول بعدم مغادرة "بلفن"، والدفاع عنها بشتّى الوسائل والسُّبُل، فجلب الباشا إلى المدينة القوات الاحتياطيّة من "فيدين" و"صوفيا"، علاوةً على أنّه داوم على اتّخاذ تدابير دفاعيّةٍ تحصينيّةٍ، وفي أواخر شهر أغسطس/آب وَصَلَ حجمُ جيشه أربعين ألفًا.

كان "ألكسندر" قيصرُ روسيا يتابِعُ التحرُّك عن قُرْبٍ من الميدان، فدفع إلى الجبهة بالفِرَق الخاصّة وفِرَق القازاك -صِنف من جند الخيّالة بروسيا-

في "بترسبرج" من ناحية، ودفع من الناحية الأخرى بستّ فِرَق بأصنافٍ متنوّعة، علاوةً على استغاثتِهِ بجيش رومانيا غير المكترثِ ألبتّة حتى تلك اللحظة، وكان يقول في برقيّة أرسلها لـ "كارل الأول" ملك رومانيا:

"حشد العثمانيون قوات هائلة في بلفن، وقد كابد جيشُنا خسائرَ فادحة إبّان معركة "بلفن"، أرجو -إن أمكن- أن تعبروا من نهر الدانوب لمساندتنا أمام العثمانيين".

وقّع الرومان معاهدة انضمامٍ للمعركة في صالح الروس ضدّ العثمانيّين بعد أن أحرزوا من الروس عدّةَ وعودٍ وضماناتٍ، وانضمّوا للحرب بثلاث فرق للمشاة وفرقة فرسان، فصاروا نحو خمسين ألف جنديّ، وعُيّن على قيادة الجيش "توتل" ابن الجنرال الرومانيّ الشهير، ألمانيّ الأصل، المعروف بنجاحه في مجال الهندسة العسكريّة، بينما لم تستطع إسطنبول الردّ على طلبات مساعدةٍ ألحّ عثمان باشا عليها.

قلعةٌ بُنيت باليد البشريّة

فقد صمّم "توفيق باشا" -الذي كان مهندسًا من حاشية عثمان باشا- متاريس "بلفن" المحصنة، كما شيّد خنادق خفيّة لا سابق لها، ولم تُعمل في أيّ مكان قطّ حتى ذلك الوقت، وفي أثناء الإنشاء كانت تُحمل الأتربة الناتجة عن الحفر إلى أماكن أخرى، بقصدِ محاولةِ إخفاءِ مكان الخندق، ولم يكن بإمكان الروس تحديد مكان المتاريس، لذا كانوا يطلقون النار بشكل عشوائي، وكانت كل الخنادق تتواصل وتتقاطع مع بعضها تحت الأرض، وكانت المتاريس المحصنة تتمتع ببنيةٍ عسكريّة بديعة، فالجدران -بارتفاع سبعة أمتار وعَرْض متر وثمانين سنتيمترًا قد أُحيطت بخنادق

سعتها خمسة أمتار، وعمقها ثلاثة أمتار، وكانت المتاريس محميّة بخنادق ضيقة عميقة في جهاتها الأماميّة والجانبيّة.

سجّل التاريخ كلمات الفريق "توتلابين" عن متاريس "بلفن"، حيث قال:

""بلفن" هي أقوى حصن شُيّد باليد البشريّة، ولن يكون من السهل الاستيلاء عليه لا سيّما لو دافع عنه العثمانيون"(١٣٢).

الأمر بإطلاق النار على من ترك خندقه

توقّف القصفُ المدفعي الذي بدأه جنود الروس في التاسع والعشرين من أغسطس/آب، بعد أن استمرّ خمسة أيام، وبدأت قوّات الروس تستعدّ لهجوم حاسم، وخطّطوا لهجوم من ثلاث جهات.

وقع الهجوم العامّ في الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، وهجم الرومان بثلاث فِرَق على منطقة يُطلق عليها الحصن الدامي بـ"كريوجه (*Grviçe*)"، وكانوا يبغون استغلال الضّباب الكثيف لاقتحام "بلفن"، وشَطْر الجيش وتفتيته، ولم يتأخّر الباشا في اتّخاذ التدابير اللازمة، فأكثر ما يتّسم ويمتاز به الباشا هو احتفاظُه برباطةِ جأشِه ولو في اللحظات الخطِرة المتأزّمة، وسرعة تحرُّكه في مواجهة الأحداث، وكان يتمتّع بميزةِ سرعةِ اتّخاذ القرار في أثناء الحرب.

أرسل الباشا كتابًا إلى "يونس بك" يوصيه فيه بالعمل وبذلِ أقصى الجهد، لا سيّما مسألة صبر الجنود وثباتهم في مواقعهم، فكانوا يقاومون

(١٣٢) إبراهيم أدهم، مذكرات "بلفن"، إسطنبول ١٩٧٩م، ص ١٨.

وهـم يُبْـذُون كلّ ما بوسـعهم من جهدٍ وفداء، لأنّ سـقوط حصن "يونس بـك" يعني سـقوط بلفن؛ فأمر "عثمان باشـا" فـي برقيّة أرسـلها إلى قائد الحصـن بقتـل الجنديّ الذي سـيترك موقعه على الفـور، وبذل كلّ نفيس وغالٍ أيًّا كان في سبيل الحفاظ على الحصن.

في نهاية المعارك التي استمرّت ستّة أيّام ليل نهار، اضطرّ الروس إلى الانسحاب مرّة أخرى، ورأى "عثمان باشا" ذلك، فأمرَ بهجومٍ شاملٍ على الحصون بخمسـة آلاف جنديّ احتياطيّ، وفي نهاية الغارة الصباحيّة التي اسـتمرّت عشر ساعات ونصفًا، تشـتّت كتائب الروس وانهزمت، واضطرّ الروس للانسحاب المرّةَ الثالثة من مشارف "بلفن".

خيمة الغازي "عثمان باشا"

يصفُ الرائد "إبراهيم أدهم بك" -أحد قادة الجيش في بلفن- عثمان باشا في مذكّرات كتبها في أثناء المعركة:

> "وَمَـضَ فـي لحظة واحـدة على العـدو كالبـرق، وصدمهم كالصاعقة".

كان أعظـم انتصـار حقّقه "عثمان باشـا" على الـروس هو حرب بلفن الثالثة المنقشعة يوم الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر/أيلول عام (١٨٧٨م)، ورغم أنّ عددَ جنود الروس في تلك الحرب فاقَ مائة ألف، ومدافعه أكثر مـن اثنين وثلاثيـن وأربعمائة مِدفـع، وعدد الجيـش العثمانيّ نحو ثلاثين ألفًا، فَقَدَ الروس في تلك المعركة ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل، أما الجيشُ العثمانيّ فبلـغ عدد الشهداء والجرحى نحو ثلاثة آلاف أو أربعة.

ستظلّ معركة "بلفن" الثالثة خالدة مشرقة، ولسوف تشكّل وثيقة مهمّة في تاريخ الحروب، فلقد أثارت تلك المعركة صدًّا عظيمًا وحماسة ليس في البلاد فحسب، بل في العالم أجمع، وعلى إثر هذا النجاح الثالث لعثمان باشا في "بلفن"، لقّبه مجلس النواب بالبطل القومي.

حين هُزم الروس المرّة الثالثة، أدركوا أنّهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على "بلفن" عن طريق الحرب، لأنّ الخسائر قد وصلت بحلول منتصف شهر سبتمبر/أيلول خمسين ألفًا ما بين قتيلٍ وجريحٍ على مشارفِ "بلفن"، فتقرّر حصار خانق على المدينة، وفي الواقع كان الاتصال بين "بلفن" و"صوفيا" قد انقطع في التاسع من سبتمبر/أيلول بسبب فشل "حسن صبري باشا" في مفاوضاته مع الروس، أمّا حين سقط موقعا "جورنو-دوبريك (*Gurno-Dobrik*)" و"تاليش (*Teliş*)"، فقد أصبحت "بلفن" محاصرةً تمامًا، حيث قطع الروس خطوط التلغراف والاتصالات التي تربط المدينة بالعالم الخارجي.

رغم أن في البلدة منازل جميلة جدًّا لاستراحة "عثمان باشا"، إلا أنّه لم يفصل نفسه عن الجنود، وأقام في خيمةٍ بمعسكر الجيش، وشاطرهم الأحوال نفسها.

لما تمّ حصارُ المدينة من قِبل العدوّ كانت تتمّ هناك حرب استنزافٍ يوميّة، ففي الثاني والعشرين من أيلول بدأ قصفٌ مدفعيّ مكثّفٌ على المدينة، واستمرّ عدّة أيام بضراوة شديدة، ولقلّة الذخيرة فقدْ تصرّف المناضل عثمان باشا بحذرٍ، حيث كان يدّخر القذائف تحسُّبًا لأيام الهجوم.

لم يخش من قذيفة عدوه

بينما يوجّه الباشا إلى قادته التعليمات، إذ بقذيفة مدفعيّة تسقط بجوارهم، فغطّت المنطقةَ بالغبار الكثيف، وانبطحَ الضبّاط جميعًا على الأرض، ولما زال الخطر نهض الضبَّاط، فرأوا الباشا واقفًا في مكانه هادئًا.

فسأله أحد الضباط بحيرةٍ:

- سيدي الباشا، لقد انفجرت القذيفة بجانبك، ألم تشعر بالخوف؟

فأجاب الباشا بصوتٍ هادئ:

- لقد كتب الله ﷻ أسماء المقتولين في المعركة اسمًا اسمًا على كلّ قذيفة من القذائف، وحين يأتي أجل أحدنا ستقتله قذيفتُه، وأسماؤنا لم تكن على أيّ جزءٍ من تلك القذيفة، لذا سلِمنا جميعًا، ولهذا السبب لا يُخشى من قذيفة العدوّ.

عزيمة الباشا

سعى الروسُ منذ الأيام الأولى من نوفمبر/تشرين الثاني إلى المبادرات الدبلوماسيّة لتسليم بلفن، وأُولى تلك المبادرات رسالة "جراندوق نيكولا" شقيق القيصر، ناشد الجراندوق في تلك الرسالة -المرسلة بواسطة ستّة أفراد من القازاق، يرأسهم ضابط روسيّ- الباشا بالاستسلام، وأخبره بأنه اعتقل بعض الكتائب العثمانيّة بالمنطقة، وقطع وسائل الاتصالات كلّها، وأنّ بلفن حوصرت بالكامل من قِبَلِ فيلقٍ مُعزَّزٍ من حرّاس روسيا القيصريّة.

كان جواب الباشا صارمًا حيث قال:

> "الجيش العثمانيّ تحت قيادتي لم يتراجع عن موضعه قطّ، وهذا برهان على بسالته ومثابرته وقدراته، وقد لازمه النجاح في حروبه كلّها حتى اليوم، ولهذا شعر جلالة القيصر بوجوب جلب مدد إلى هنا من المدفعيّين، وقوات حرَسِه الخاصّ، ولا بد أن أذكركم أن هزيمة الجيوش العثمانية في المناطق المجاورة لنا واستسلام بعض الوحدات وقطع طرق الاتصال التي تربطنا بالعالم الخارجي لا تعني بالمرة أن يستسلم جيشي لعدوه، وحماسةُ جنودي لم ينقص منها شيءٌ ألبتّة، وجيش بلفن عمِل كلّ ما في وسعه للحفاظ على شرفه، وإن دماءنا تسيل حبًّا في وطننا وديننا، ولسوف نواصل على الدرب نفسه إلى الأبدِ، ولن نستسلم".

أبدى "عثمان باشا" في هذه الرسالة عزمه على المقاومة حتى النهاية، رافضًا اقتراح الدوق بالاستسلام.

كان البطلُ القومي "عثمان باشا" يأمُل قدوم مشير الشمال "محمد علي باشا"، ومشير الجنوب "سليمان باشا" للمساعدة، إلا أنّهما كانا يحسدان "عثمان باشا" إلى درجة الجنون، فرغم كونهما قائدين عامّين لقوات جيوش الدانوب، إلا أنّهما عجزا عن الحصول على لقب البطل، فحملهما حسدهما على التخلّي عن "عثمان باشا"، صحيح أنّ "سليمان باشا" انتابه الندم بعد ذلك، وحاول إنقاذ بلفن، إلا أنّه عجز عن تحقيق هذا.

كان الباشا عديم الحيلة، فهو بحاجة إلى الدعم والمساعدة، وشدّةُ البرد تزداد تدريجيًّا، فكان يحرق جذوع الكروم -بالبساتين المحيطة بعد قلعها بالمعاول- للتدفئة وطبخ الحَساء، فلم يبقَ بستانٌ واحد حوله على

مساحةٍ كبيرةٍ تبلـغ خمسة عشر أو عشرين كيلومترًا مربعًا، وذلك من كثرة قطـع الجذوع وإحراقها.

كان مـن الممكـن منـح الجنديّ في اليوم خمســمائة غـرامٍ من الخبز نصفُـه من القمــح والباقي من دقيق الذرة -دقيق ذرة الأرومة- وخمسـين ومائـة غرامٍ من لحــم البقر، أمّا الحيوانات، فكانـوا يطعمونها نصف كيلو ذرة، وكان عشـرون إلـى ثلاثيـن رأسًـا ينفُقُ يوميًا لِشُــحّ الـكلأ، كما كان الدواء والذخيرة على وشَك الانتهاء.

القَسَم على الإنجيل

رأى "عثمـان باشـا" أنّ مـن المناسـب القيـام بعملية اقتحـام بدلًا من الجـوع والاستسـلام حتـى ولـو أودى ذلـك بحياتـه، وفي غرّة ديســمبر/ كانون الأول عام (١٨٧٧م) استدعى قادة الفِرَق والألوية بجيشِه إلى مقرّه للتشـاور واتّخـاذ القـرار، وفي نهاية سلسـلة من الاجتماعات تقـرّر تنفيذ عمليّـة الاقتحـام، وبدأت الاسـتعدادات علـى الفور، ووُزّعـت الأدوات والذخيـرة بالتسـاوي بين الجند؛ فأُعطيـت ثلاثمائة دانـة[١٣٣] لكلّ مدفـع، ووُزّعت الحِراب الزائدة عن الحاجة بين الكتائب العسـكريّة، ووُزّع سـتّة أرغفة محمّصة حصّة يوميّة بين الجنود.

اسـتدعَى الباشـا علماء البلغار ووجهاءهم لتأمين الجرحى والمرضى الذين سيبقون في بلفن، وعددهم نحو خمسُمائةٍ وألف شخص، فأقسموا علـى الصليب والكتاب المقدس أنّهم سـيحمون الجرحى المتخلّفين عن

(١٣٣) الدانة: قذيفة المدفع وتجمع على دانات.

الركب، وأُلصقت رايات الهلال الأحمر ولافتات بـ "الفرنسيّة" و"العثمانية" على أبواب المباني التي استخدمت كمشافي ميدانيّة.

كان "عثمان باشا" يفكّر في عدم اصطحاب أهالي المدينة عند خروجه من المدينة، وإرسال رسالة استعطاف إلى قائد القوات الروسيّة يطلب فيها حسن معاملة هؤلاء الأبرياء، إلا أنّ وجهاء القوم ألحّوا معربين عن رغبتهم في الالتحاق بالجيش، واستعدادهم للتضحية بأرواحهم وأطفالهم وأُسَرهم في هذا السبيل، فأعيت "عثمان باشا" الحيلة أمام إصرارهم، فاضطرّ إلى قبول مطالبهم.

أحدثت قافلة الأهالي من ثلاث مائة أسرة تأثيرًا سلبيًا جدًّا على مسيرة الوحدات العسكريّة، وتسبّب ذلك في فشل عمليّة الخروج من المدينة.

هل استشهدَ "عثمان باشا"؟

قبل التحرك خاطب البطل القومي "عثمان باشا" جنوده بما يلي:

"أبنائي الجنود، سنقوم بحملتنا الأخيرة بإذن الله، ونحن اليوم في شهر ذي الحجة، إن المسلمين في العالم الإسلامي ينحرون أضاحيهم اليوم وأما نحن ليست لدينا أضحية لننحرها ونؤدي بذلك واجبنا الديني وأنا أقترح عليكم أن نضحي بدماء العدو، أعانكم الله"[١٣٤].

في صباح العاشر من ديسمبر/كانون الأول قسّم البطل القومي "عثمان باشا" جيشه -وقوامه أربعون ألف مقاتل- إلى قسمين متساويين، وهجمت القوة الأولى -وقوامها عشرون ألفًا- على المتاريس الروسية، ساعية إلى

(١٣٤) ظهوري دنشمان، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، إسطنبول ١٩٦٤م، المجلد الثالث، ص١٤٣.

شقّ خطّ الحصار، أمّا القوة الثانية، فكانت ستدعم الهجوم الأول بهجوم آخر بعده بساعتين.

اخترقت القوة الأولى بقيادة البطل القومي "عثمان باشا" نفسه خطّ الجبهة وهاجمت بعزمٍ وحماسةٍ عظيمَين المواقعَ الروسيّة، وسيطرت بالحراب على مواقع عسكرية تدافع عنها القوّات الروسيّة، لكنّ الروس بفضل التعزيزات المستمرّة استردّوا المواقع والمدافع.

وفي وقت الظهيرة تعثّر جَوَاد الباشا لإصابته بشظيّة ناجمة عن نيران المدفعيّة الروسيّة، وأصيب "عثمان باشا" هو الآخر في قدمه اليسرى، وكانت زعامة الباشا وقوته المعنويّة تحمي بلفن طَوَال خمسة أشهر، فأصاب الذعر القوّات لحظةَ سماعها خبر موت "عثمان باشا"، وبدأت تتراجع، فصُدّ الاقتحام، وحُوصر جيش بلفن من الأمام والخلف على حدٍّ سواء، ولم يكن من السهل على الباشا أن يستسلِم وينتهك كرامةَ الجيش الذي يمثّله، وقد غمره حزنٌ عميقٌ، لكن لم يعد هناك أملٌ في الخلاص، وفي النهاية قرر الباشا الاستسلام بعد تشاوره مع القادة المقربين له.

إحدى الملاحم العظيمة

بينما كان "عثمان باشا" يُنقل من كوخه -بعد إعلانه الاستسلام- بمركبة إلى مدينة بلفن، إذ بـ"جراندوق نيقولا" شقيق القيصر يعدو على حصانه وقد اقترب من العربة، ومدّ يده، وضغط بحرارة على يد الباشا قائلًا:

- أهنّئك على دفاعك عن بلفن، لقد كتبت واحدةً من أعظم الملاحم التاريخيّة.

وقام الضبّاط الروس المحيطون به بتحيّة "عثمان باشا"!

قال الجنرال الروسي الشهير "أسكوبالاو":

- هـذا الوجـه، وجـه قائد عظيم، وأنا سـعيد غاية السـعادة لرؤيتك، "عثمان" البطل قائد منتصر، وسيظلّ منتصرًا رغم استسلامه!.

"مثلك لا يؤخذ سيفه"

بينما كانت مركبة الباشـا المكشـوفة في طريقها نحو معسـكر الروس بـ"بوغوت"، إذ بفرقة كازاك تصل وتخبرهم بمجيء الإمبراطور إلى بلفن، وأنّـه ينتظرهـم هناك؛ فعـادوا به مرّةً أخـرى إلى البلدة، واسـتُقبل "عثمان باشـا" عنـد وصوله إلى باب المنزل حيث القيصـر بهتاف الضباط الروس المنتظرين عند الباب وعددهم نحو خمسين ومائة.

كان القيصر ينتظر عثمان باشا على أحرّ من الجمر، وسأله مترجمه:

- إلـى أيـن كنتم تذهبون، ألـم تكونوا على علم بـأنّ جند الروس قد أحاطوا بكم من كلّ جانب؟

أجاب "عثمان باشا":

- كنتُ أدرك هذا، لكنّني كنت سأقتحم جندكم في سبيل الوصول إلى أيّ مكان أستطيع الوصول إليه.

- ولِمَ لم تدع سلاحك؟

- أرسلتني دولتي هنا للحرب ولم تقل لي: "اترك سلاحك، أينما رأيت عدوك"، فأحيانًا يُمكن إحراز النصر رغم كثرةِ العدوّ، كما هو الحال عند حربنا معكم.

بعد أن استمع القيصر إلى كلمات الباشا بإعجابٍ عظيمٍ، قال:

- عظيم! قائدٌ مثلك لا يؤخَذ سيفه، احمل سيفك هنا وفي روسيا، ولسوف ترى أنّك تُستقبل في روسيا استقبال مشير روسيّ.

كانت إعادة القيصر السيف للبطل "عثمان باشا"، واستقباله له كأنّه مشير روسيّ يعكس مدى التقدير الذي قوبل به!

وفاةُ البطل القومي "عثمان باشا"

نُقل عثمان باشا عن طريق "بوخارست"[١٣٥] إلى "خاركوف"، وبقي هناك ثلاثة أشهر، ثمّ وصل إلى إسطنبول في الثالث عشر من مارس/آذار عام (١٨٧٨م)، وهناك قُوبل بهتاف وحفاوة عظيمين من الشعب، وأطراه السلطان "عبد الحميد الثاني" قائلًا:

"أَقْبِلْ يا عزيزي "عثمان"، بارك الله فيك أيّها البطل".

في اليوم التالي عُيّن الباشا مشيرًا خاصًا، وبعد شهرين ونصف الشهر في الثامن والعشرين من مايو/أيار عام (١٨٧٨م) عُيّن مشير "الما بين"[١٣٦]، أي: مشير القصر العثمانيّ إلى جانب بقائه في وظيفة المشير الخاصّ،

(١٣٥) عاصمة دولة رومانيا.

(١٣٦) "ما بين (*Mabeyn*)": القسم الواقع في القصر السلطاني ما بين الدوائر الخارجية؛ وهو المكان الذي كان يقضي فيه السلطان يومه إن لم يكن يخرج من القصر، والأمور التي يتم عرضها على السلطان من لدن الصدر الأعظم ترفع إلى هذه الدائرة، فيطلع عليها السلطان ويأمر بما يراه. سهيل صابان: ص ١٩٨.

وظلّ البطل القومي "عثمان باشا" في وظيفته اثنتين وعشرين سنة كاملة حتى وفاته، وكان خلال تلك المدّة يقضي جلّ وقته في القصر.

في الخامس من أبريل/نيسان عام (١٩٠٠م)، أُقيمت صلاة الجنازة على بطل بلفن عقب انتقالِه إلى رحمة الله عن عمرٍ يناهزُ السابعة والستّين، وبعد إقامة الصلاة من جمعٍ عظيمٍ بلغ عشرات الآلاف في جامع الفاتح، وُورِي في الثرى بمقبرةٍ بالجامع نفسِهِ، وبعد مدّة شيد السلطان "عبد الحميد الثاني" مقبرةً أنيقةً للباشا.

نتحدّث الآن عن القائد الشاب، الهمام المقدام، الذي غيَّرَ مسار الحرب عندما زرعَ ستّةً وعشرين لغمًا بميناء «قرانلق» في منطقة «أرنكوي» بالمضيق أثناء محاولات الأساطيل البريطانية والفرنسيّة عبور مضيق «الدردنيل» خلال الشهور الأولى من عام (١٩١٥م)..

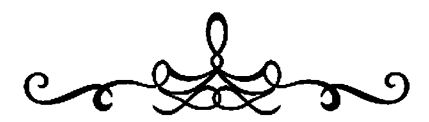
إنه -بحقٍّ- بطلٌ لم يُقِم للموت وزنًا، فلقد قال:

"لا ينبغي لنا أن نعود دون أن ننهي مهمّتنا".

إنه قائد سفينة الألغام «نصرت»، إنه شهيد النصرِ والإصرار..

«إسماعيل حقّي الطُبْخَانَوِي»





إسماعيل حقي الطبخانوي وقصة ستة وعشرين لغما

تُعتَبَرُ حرب "جناق قلعه" واحدةً من حروب الدولة العثمانيّة في القرن الأخير، وكان لنتائجها أعظم الأثر في السياسة العالميّة.

كان "وسـترن تشرشـل(*Winston Churchill*)" رئيـسُ وزراء إنجلتـرا ووزيـرُ بحريّتهـا سـابقًا يؤيـد فكرة غَـلّ يد الدولـة العثمانيّة عـن الحرب العالميـة الأولـى، وذلك بأن يبـادر بعمليّة بحريّة على المضائق ليسـتولي على إسـطنبول، وكان "تشرشـل" على قناعةٍ بأنّه سـيتمكّن بحملة "جناق قلعـه" مـن تغييرِ مسـار التاريخ، ومِن شـطر أراضي الدولـة العثمانيّة إلى نصفيـن، وشـلِّ مركـز التحكُّم، وجـذب دول البلقان -غيـر المنضمّة إلى الحرب بعد- إلى صفِّه، ومساندةِ روسيا له كي لا تطول مدّةِ الحرب، كما يضمن عدم وقوع خسائر بشريّة كبيرةٍ .

كان "اللورد كيتشنر" يقول:

> "لـو عبرَ الأسـطولُ المضيقَ، لسـقطت إسـطنبول لا محالةَ، ولأعلنّا انتصارَنا في الحرب وحقّقنا بذلك النصر والسـلام في آنٍ واحد".

أما الأمير "ألفيستشر" قال عن تلك المعركة:

"لـو كُلّلت عمليّة "جناق قلعه" بالنجاح، لاسـتحقّت ما يبذل في سبيلها من تضحية بالبشر والعتاد، لأنّها ستحطّم صلب الاتفاق الألمانيّ العثماني في الجبهة الشرقيّة، وسوف تُكْسِبُنا حلفاء جددًا في بلاد البلقان، وسوف تفتح طريق البحر الأسود"[١٣٧].

فـي اجتمـاع عقدتْه لجنـةُ الحرب البريطانيّة في الثامن والعشـرين من يناير/كانون الثاني عام (١٩١٥م)، ونتيجة لإصرار "تشرشل" وجداله، صدر القرار بشنّ هجوم عاجل بالقوات البحريّة يستهدف إسطنبول بعينِها، وزعم بعض المسـؤولين البريطانيّين أنّهم يمتلكون سُفُنًا شديدة البأس في مقابل المدافع العثمانية القديمة ضعيفة المدى بالمضيق الذي سيعبرونه حتمًا.

حالة المدافع على المنصات العثمانية

كُلّف الأميرال "جاردن" بالهجوم، وبإمرته ثمانٍ وأربعون سفينة حربيّة من ضمنها خمس عشـرة سفينة حربيّة -بعضها سُفُن حربيّة جديدة شديدة البأس كالسـفينة "إليزابيث كوين" والسـفينة "إيرسيسـتيبل"-، وأربـع سُفُن طَرّادة[١٣٨]، وخمس عشـرة سـفينة مقاتلة، وخمس عشرة سفينة مدمِّرة[١٣٩] وخمس غوّاصات، وسـبـع سُـفُن كاسحة ألغام، وسـفينة حاملة طائرات، وسـفينة محمَّلة بالمؤن، علاوةً على هذا العددِ أربـع عشـرة سفينة فرنسيّة

(١٣٧) تولاي دوران، ذكرى نصر معركة "جناق قلعه" البحرية، مجلة التاريخ التركي بالوثائق، إسطنبول ٢٠٠٠م، العدد ٣٨، ص ٨-٩.

(١٣٨) طرادة: سفينة حربية كبيرة أخذت دورها العسكري منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب الباردة وهي أكبر من المدمرة لكن أصغر من البارجة، وفي الوقت الحاضر استبدلت الطرادات بالمدمرات للقيام بذات المهام الحربية.

(١٣٩) يقصد بها في المصطلحات البحرية سفينة حربية سريعة وقادرة على المناورة ترافق القطع الأكبر في الأسطول لتوفير الحماية لها من هجمات القطع الصغيرة المعادية.

فيها خمس سُفُن حربيّة، وستّ سفن مقاتلة، وسفينة حاملة طائرات، وغوّاصتان، أمّا مجموع المدافع الثقيلة المحمَّلة على السُّفُن، فكان يبلغ تسعةً وسبعين ومائتي مدفع.

في تقرير أعدّه الفريق البحريّ الألمانيّ "شنايدر" تمّ توضيح حالة المدافع على المنصات العثمانية على النحو التالي:

١. تمّ شراء المدافع في أزمنة مختلفة من مصانع "كروب (*Krupp*)"، "كروزا (*Kruzo*)"، شنايدر (*Schneider*)" وتمّ رصُّها بلا تخطيطٍ أو نظامٍ، ودون مراعاة لأحجامها، ويحد من توفير الذخيرة وقطع الغيار، وتتعارضُ مع قواعد الرماية المتبعة في ذلك الوقت.

٢. كانت قابليّةُ المدافع للدوران محدودةً جدًّا، لوضعها في منشأة حجريّة لا توفّر لها حمايةً كافيةً فضلًا عن أن المدافع الكبيرة تتطلّب عددًا كبيرًا من الجنود.

٣. الذخيرةُ لديهم قليلةٌ جدًّا، وحملُ قذائف المدفع وحشوُ السبطانات يتمّ بالقوة البشريّة، وهذا الحال أدّى إلى تقليل قوّة النيران.

٤. افتقارُ المدافع إلى أجهزةٍ مواكبة للعصر لتحديد المسافة.

إذا وازنّا في النهاية بين القوّتين، نجد أنّ الوزن الإجماليّ للقذائف المطلقة في آن واحد مع المدافع على متن المدرّعة الإنجليزيّة "إليزابيث كوين" وحدها هو اثنان وأربعون وأربعمائة وسبعة آلاف كيلو جرام، أما الوزن الإجمالي لقذائف المدفعيّة العثمانيّة خلال المدّة نفسها فهو ثمانمائة كيلو جرام تُطلق من حصون الحميديّة بأجمعها(١٤٠).

(١٤٠) تورخان سنشر، "جناق قلعه" الأسطورية، إسطنبول ٢٠٠٥م، ص٨٠-٨١.

يوم المحشَر في المضيق

بـدأ الهجـوم على مضيق "جنـاق قلعه" في الثالث من نوفمبر/تشـرين الثانـي عام (١٩١٤م)، حيث بدأت مدرعتان بريطانيّتان قصف "أرطغرولَ" وسـدِّ "البحير"، في حين قامت سفينتان فرنسيّتان بقصفِ نقطتي "قامقولا" و"أورخانيّـة" العسـكريتين، ولقد كشـف ذلـك الهجوم أنّ قـوّات الحلفاء تتزامـن مـع هجومٍ بـدأه الروس على الجبهة الشـرقيّة في التاريخ نفسـه، وأنهم يخوضون حربًا صريحة على الدولة العثمانيّة، أمّا في الثالث عشـر من ديسـمبر عام (١٩١٤م)، فدخلت غوّاصـة بريطانيّة المضيقَ، ووصلت إلى مشـارف "كابزا"، ونسـفت مُدرعة "المسـعوديّة" الراسـية في مرسـى "سـاري قايه"، أما الهجوم الثاني فكان في التاسـع عشـر من فبراير/شباط عام (١٩١٥م) بستّ سفنٍ حربيّة، وأما الثالث ففي الخامس والعشرين من فبراير/شباط بثماني سفن حربيّة.

نشـرت مئـات المدافـع التـي أطلقتها مدرعـات الحلفاء أدخنـةً كثيفةً يتصاعد منها اللهب، وسـقطت القذائف تِباعًا على تلال الواقـع في "سـدِّ البحيـر" و"كُومْ قلعه" المواجهة لها وعلى السـهل خلفها، وكلّما سـقطت قذيفـة تطايرت في الهواء أعمدةٌ مـن الحجارة والتراب مـع دخان حالك، تنفتح كالمظلّة وتسقطُ مجدّدًا على الأرض.

فـي غضون مدّة قصيرة، غيّم شـبح الموت على السـاحل الصخريّ، وامتدّ مسـافة كيلـو ونصف كيلومتر، وانهالت مئـات القذائِف في اللحظة نفسـها، وانبثق شـررٌ صغيرٌ أبيض كالبرق بين الأدخنـةِ المتصاعِدَةِ بحركةٍ

دائريّـةٍ، وارتفعت ألسـنة اللهب فوق الجنود العثمانيّيـن أينما وُجدوا يمنةً ويسرةً، لقد كان المضيق أشبه بيوم الحشر(١٤١).

زرع الألغام

إن هجمات السـادس والعشرين والسابـع والعشرين من فبراير/شباط والتي اسـتمرّت خمسـةَ أيّام متتالية ما هي إلا تمهيد لمعركة كبيرة سـتقـع فيما بعد.

كان الرأي العامّ الأوروبيّ مقتنعًا أنّ عبور مضيق "جناق قلعه" -مضيق الدردنيل- والاستيلاء على إسطنبول أمر يستغرق يومًا أو يومين، حتى إنّ شـركة سـياحة تُدعى "كوك" كانـت مطمئنّةً من سـهولة تحقيق الاحتلال، فباعـت ألفَ تذكرةٍ للبريطانيّين لمشـاهدة مناظر البسـفور الطبيعيّة، إلا أنّ أوروبا لم تضـع ضـمن حساباتها شراسة وضراوة الجيش العثمانيّ.

إن قصـف "جنـاق قلعـه" و"غاليبولي" الـذي قام به أسـطول الحلفاء ومحاولتهـم تحقيق النصر دون وقوع خسـائر فـي الأرواح لم يؤت ثمارَه المرجـوّة، مما جعـل لجنة الحرب تقرِّر عبور المضيـق بالقوّةِ دون مبالاة بالخسائر البشرية؛ إذ كانت التعليمات المؤرّخة بالحادي عشر من مارس/آذار عام (١٩١٥م) التي أرسلتها وزارة البحريّة البريطانيّة إلى قائد الحملة الأميرال "كاردن" تنصّ على التالي:

"إذا لم يكن من الممكن تحقيق النجاح بأيّ شـكل، فالنتائج المتحقّقة بعبور المضيق مهمّة تسـتحقّ المجازفة بالبشـر والسُّفن،

(١٤١) محمد نيازي، يوم الحشر في "جناق قلعه"، إسطنبول ٢٠٠٤م، ص ٢١٠.

فاستمرّوا في إطلاق النار حتى يتمّ تدمير جميع المواقع العسكرية، وتطهير حقول الألغام".

كانت الرؤية الأساسيّة للوزارة ترتكزُ على عدم البدءِ في العبور قبل نزع الألغام المزروعة بالمضيق، وتدمير المدافع الثقيلة على منصاتها[١٤٢].

إحدى سمات الحربِ المندلعةِ صباح الثامن عشر من مارس/آذار عام (١٩١٥م)، والتي انتهت مساء اليوم ذاتِهِ بانتصارِ القوّات العثمانيّة هي: أنّ الحرب دارت بين قوّات إنجلترا وفرنسا البحريّة وبين فِرَق مشاة الدولة العثمانيّة ومدفعيّتها على البرّ، أما السمةُ الأخرى فهي معركة الألغام الشرسة التي دارت بين سُفُن زرع الألغام من ناحية، وسُفُن إزالة الألغام من ناحيةٍ أخرى .

الفرصةُ الأخيرةُ

قرّر "جواد باشا" قائد إحدى المتاريس بـ"جناق قلعه" أن يزرع ستّة وعشرين لغمًا جُمعت من أماكن مختلفة بميناء "قارنلق" بالمضيق بواسطة سفينة الألغام "نصرت"، لكنّ قائد السفينة النقيب الشاب "إسماعيل حقي بك" قد تعرّض لأزمةٍ قلبيّةٍ قبل يومين، فراعى جواد باشا حالتَه الصحيّة، وفكّر بتكليف ضابط آخر بتلك المهمّة، إلا أنّ النقيب "إسماعيل حقي" كان يعرف أماكن خطوط الألغام العشرة المزروعة بالمضيق من قبل، وعلى درايةٍ بأدقّ تفاصيلِها، وكان الأجدرُ من بين أقرانِه بأداءِ المهمّة بنجاح.

(١٤٢) دوران، المصدر السابق، ص ١٢و٣٨.

أظهر ذلك الجنديّ الشابّ حالةً فدائيّة عظيمةً برفضِهِ التخلّي عن تلك المهمّة الصعبة تقديرًا منه لمسؤوليّة الحرب والوطن الملقاة على عاتقِه، وكانت الألغام الستّة والعشرون المتوفّرةُ لديه هي الفرصةُ الأخيرةُ للنيل من الأعداء، فيجب الاستفادة منها على النحو الأكمل، وإنّ تلك المهمّة لتقتضي رباطةَ جأشٍ ليتمّ تنفيذها على أكمل وجه، وإلا فسيكون ثبات المتاريس أمام تلك المدافع الجرارةِ أمرًا في غاية الصعوبة.

علّق "جواد باشا" أمله على الألغام، لإدراكه الفرق الشاسع بين مدافعه ومدافع أسطول العدوّ، وأنّ الستّة والعشرين لغمًا التي سيزرعها "حقي الطوبخانوي" بمنزلة العمود الفقريّ في الدفاع.

رافق النقيب "حقي" النقيب "نظمي" قائد مجموعة الألغام، والملازم الأول "جيهل" خبير اللغم الألمانيّ، وكان الملّاحون كلّهم على دراية بتلك المهمّة الجسيمة.

دعوات في السرّ

في منتصف ليلة السابع عشر من مارس/آذار أبحرت سفينة الألغام "نُصرت" من مشارف "جناق قلعه" والقلوبُ تبتهِلُ إلى الله بتمامِ مهمّتها، وكان الجوّ ضبابيًا، وبعد أن أطفأتِ السفينةُ أنوارَها اتّجهت في البداية صوب ساحل رومليِ، ثمّ بدأت تجتازُ حقولَ الألغامِ بحَذَرٍ شديد وهي تسير بالقرب من الساحل، كان الملّاحون على متنها يحبسون أنفاسهم قدر الإمكان ويُديرون مِقْوَدها ببطءٍ شديد لكيلا يخرجَ دخانٌ من المدخنة.

كان طول السفينة "نصرت" نحو أربعين مترًا، وكانت جديدة ومصانة، وبوسعها أن تطوفَ المناطقَ الملغومةَ بأمانٍ لأن جسمَها لا يغوصُ في

الماء بإفراطٍ، وكانت مناورتها سـريعة رغم أنّ أسلحتها لم تكن من العيار الثقيل.

همهمَ النقيب نظمي قائلًا:

- بإذن الله سنؤدّي مهمّتنا كاملةً ونعود.

فأجاب حقي بك:

- عودتنا لا تهمّ، إنّما علينا أن ننفّذ المهمّة بنجاح.

كان النقيـب "نظمـي" مُحقًّـا فـي قلقـه، حيـث أن أعـداءه قـد دمروا المتاريـس الواقعـة في جنـوب المضيق، لـم يبقَ أيُّ خطرٍ يعترض سـفن أعداءه حتى مشارف "أَرَنْكُويْ".

لمـا اجتـازت "نُصرت" المنطقة المأجّجة بعشـرة خطـوط من الألغام أعـادت وجهتهـا نحـو الجنـوب ثانيـة، وفـي تلك الأثنـاء سـلط الجنود العثمانيـون المتمركـزون على قمـم المتاريس أنوار المسـاحات الضوئية علـى مدرّعتيـن بريطانيّتين كبيرتين تتناوبان الحراسـة في المضيق، فقابلوا ذلـك بتوجيه أضواءهما نحو المتاريس العثمانية، فتوغّلت سـفينةُ نصرت إلـى مينـاء "قرانلق" مسـتغلةً الظلام الناتج عن التقاءِ ضوء الكشـافات من كلا الجهتين، وكانت مدرّعة الحلفاء المكلّفة بنوبةِ الحراسـة تقِفُ بجوار الميناء كنمرٍ ينتظرُ فريسـتّه، ولذا تم إيقاف محرك السفينة "نصرت" تحسُّبًا من العثور عليه من قِبَلِ العدوّ.

كان هـؤلاء الأبطال سـيزرعون ما بحوزتِهم من ألغـام في خطٍّ جديدٍ مـوازٍ للسـاحل بمينـاء "قارانلـق" فقد أمر "جواد باشـا" بزرعهـا موازية لا

عموديّة كالألغام المعتادة، لأنّ سُفُن العدوّ بعد أن تقوم بالمناورات سوف تعودُ للتزوّد بالمؤن والذخيرة للمرّة الثانية.

كانت خطوطُ الألغامِ العشرةُ السالفةُ الذكر تمتدّ بين ضفّتي المضيق بشكل عموديّ، فأنزلوا اللغم الأول إلى الماء بهدوء، ثمّ الألغام كلّها تباعًا كلّ مائة متر، على عمقِ مترين من سطح البحر، وهكذا انتهى القسم المهمّ من العمليّة، والآن عليهم العودة دون أن يراهم أحد، فحركوا السُّكّان بلطفٍ، وتتبّعوا طريقَ مجيئهم، واتجهوا صوب "جناق قلعه".

بلغ انفعال "حقي الطبخانوي" ذروته، وكان قلبه يخفق كأنه سُينزع من مكانه، فلو اكتشف العدوُّ أمرَ الألغام، لأزالها جميعًا، ولوصل سريعًا إلى إسطنبول، وممّا أنهكَ النقيب حقي تمامًا حالةُ توتّر أحاطت به، وعبءٌ ثقيل حمله، وعندما اطمأنَّ إلى سلامةِ زراعة اللغم الأخير لم يستطع قلبُه أن يحتمل هذا الانفعال الشديد والعبء المعنويّ، فتوقّف فورًا، ومات "حقي بك الطوبخانوي" شهيد الواجب!

عُيّن الأميرال "دي روبك" بدلًا من الأميرال "كاردن" قائدًا على أسطول الحلفاء، وقام أوّلًا بتمشيط المضيق على مدار أيّام استعدادًا للهجوم الأخير في الثامن عشر من مارس/آذار، وقام بتطهير الألغام كلّها، وكان يشعر بالارتياح كلما خرجت التقارير ايجابيّة، ولما توقّعَ أن يكون العثمانيّون قد زرعوا ألغامًا مجدّدًا، التقطَ صورًا جويةً للمنطقة برًّا وبحرًا قبل الهجوم بيوم، وأخرج السُّفُن لتقوم بدوريّة لمنع أيّ تلغيمٍ محتمَل، وكانت عمليّات البحث المنجزة تشير إلى خلوّ المضيق من الألغام.

فـي صباح الثامن عشـر من مـارس/آذار، تحركت نحو المضيق ستّة عشـر سفينة مدرعة تابعة للحلفاء، وهي اثنتا عشرة سفينة مدرّعة إنجليزيّة وأربـع فرنسـيّة بقيـادة الأميرال "دي روبـك"، ودار بخَلَدهم شـقّ حقول الألغـام المزروعة بين "المسـعوديّة" و"جيمنلك" بطريق تسـتطيع السُّـفُن اجتيـازه بسـهولةٍ مدمّرين ما يقابلهـم من حصون، ليصِلوا فـي النهاية إلى بحرِ مرمرة.

اختـرق حاجز الصمت الذى اسـتمرّ فترةً قصيرةً القصف الذى شـنّته السـفينة المدرعة "تريمبوف (*Triumpf*)"علـى المدفعيّة العثمانية التي تقوم بحراسـة خطّ الألغـام، وتلا ذلك قصفٌ عنيفٌ كالأمطار من سـفُنِ العدوّ على الحصون الممتدّة على طول الساحل حيث أمطرتها بوابل من النيران، وكأنّ إعصـارًا قويًّـا تداعى بكلّ قوّةٍ على الحصون المتراصّة على سـاحل المضيـق، نافثًا نيرانًا متواصلةً لا سـيّما أنّ مدافـع "إليزابيث كوين" البالـغ قطرهـا ثمانية وثلاثين سـنتيمترًا قد حوّلـت المنطقة إلى جحيمٍ، واندلعت النيـران من الصخـور بفعل القذائف التي أسـقطتها المدافـع الثقيلة على مدافعنا.

حقّقت مدرّعات سفن العدوّ انتصارًا ملحوظًا بقذائف مدفعيّة قصفت المواقـع العثمانيّة اسـتمرّت حتى السـاعة الثانية عصـرًا، على حين كانت الحصون العثمانيّة تتصرّف بحساب ودقّة شديدة في قذائفها لقلّة الذخيرة.

في السـاعة الثانية مسـاءً وفي أثناء انسحاب السفينة المدرّعة الفرنسيّة "بـو ويـت" من خـطّ النار، ابتلعتها المياه بسـرعة خلال عـدّة دقائق نتيجة إصابة مخزن الذخيرة بقذيفة مدفعيّة.

في الساعة الرابعة عصرًا اصطدمت السفينة المدرعة الإنجليزيّة "إنفيلكسبلي (*Inflexible*)" بألغام ميناء قارنلق، وتبعتها بثلاث دقائق المدرعة "أرّيسيستبلي (*Irresistible*)"، فلحقتهما أضرار جسيمة جعلتهما أثرًا بعد عين، وعقب ذلك بساعات وقعت أربع سفن مدرّعة حطامًا -نتيجةً للألغام- ما بين غارقة ومصابة بأضرار بالغةٍ، وفي الساعة الخامسة وخمسٍ وأربعين دقيقة عصرًا أصدر الأميرال "رويك" أوامره بالانسحاب من ميدان الحرب.

وبانتهاء اليوم الثامن عشر من مارس/آذار عام (١٩١٥م) كان قد حلّت بالأساطيل الإنجليزيّة والفرنسيّة -وهي تُعدّ أعظم قوة بحريّة في العالم- هزيمة نكراء ألحقت بهم الخزي والعار، وفقدت سبع سُفُن حربيّة كبيرة من مجموع ستّ عشرة سفينة اشتركت بالحرب، واضطُرت السُفُن الأخرى إلى ترك ساحة الحرب بعد ما أصيبت بإصاباتٍ جسيمةٍ.

لقد تحقق النصر على أيدى ضباط وجنود المدفعية العثمانيّة الباسلين الذين دافعوا عن الحصون ضاربين بذلك أروع الأمثلة في حبّ الوطن والتفاني في الدفاع عنه.

قام الأميرال الإنجليزي "رويك" بإعدامِ النقيبين المكلّفين بالبحث عن الألغام رميًا بالرصاص متهما إياهم بالتقصير في الوظائف الملقاة على عاتقهم.

لكن في عام (١٩٥٠م)، بعد مرور خمس وثلاثين عامًا كاملةً على الحرب، اتضح أنّ الضابطَين لم يقصّرا في واجبهما، لكون الصور التي

التقطاهـا فـي ذلـك الوقـت كانت فيهـا المياه بالفعـل خالية مـن الألغام، فاعتذرت الحكومة الإنجليزيّة لأسرتيهما، وخصّصت لهما معاشًا.

ضريح إسماعيل حقي بك

نُقل نعش "إسماعيل حقي الطبخانوي" -شهيد الحرب- إلى إسطنبول، وبعد أن أُقيمت عليه صلاة الجنازة بجامع الفاتح، دُفن بالمقابر العسكريّة بحيّ "قاسم باشا قُولَا قْسِزْ".

مقالات ما بعد الحرب

يقول "تشرشل" وزير البحريّة البريطانيّة:

"لإسـالةِ هـذا القدر من الدمـاء البريطانيّة فـي الجبهة الغربيّة خلال أربـع سـنوات طويلة للحرب العالميّة الأولى سـببٌ واحدٌ هـو الألغـام العثمانيّة التي يصلُ عددُها إلـى الثلاثين، والتي كانت موزّعـةً على مضيق "جنـاق قلعه" بطريقة حِرفيّة دقيقة تبدو وكأنها ملجمة للمضيق".

ويعـرب الفريق الأول البريطانيّ الشـهير "مود" بالكلمـات التالية عن رأيه بالجنود العثمانيين:

"في حالات يتخلّى فيها جنود الأمم الأخرى عن أسلحتهم، وينسـحبون من المعركة قائلين: "خسـرنا الحرب"، تكون معركة الجندي العثمانيّ قد بدأت مرّة أخرى".

أمـا الفريـق الأول "أوجلاندر" في كتابه "عمليّة غاليبولي العسـكريّة"، فيبرز الحقيقة بجملته:

"ستّة وعشرون لغمًا مزروعةً بالمضيق، لا يمكن وصفُ مدى تأثيرها على هجوم الثامن عشر من مارس/آذار عام (١٩١٥م)".

تعليق أنور باشا

قال القائد العام أنور باشا في تعليقه على معركة "جناق قلعه" البحريّة، في مجلس الشعب التركي في العاشر من يناير عام (١٩١٦م):

"لم يكن من الممكن ألبتّة عبورُ أعداءنا المضيق بالأسطول، وكان باستطاعهم إطلاق النار على حصوننا وتدميرها عن بعد، لكن ليدمِّر مدافعنا المخفيّة كان عليه الاقتراب حتى خطوط الألغام، وكان دخوله هنا بسفنٍ صغيرة يعني إمكانيّة إغراق تلك السُّفُن الصغيرة بسهولة بنيران مدافعنا المغطّاة، ولذا كان عليهم الهجوم على هذه الأماكن بسفنهم الكبيرة، وهذا ما كنا نريده بالفعل، لأنّ كلّ سفينة تقترب من المدفعيّة العثمانية ستغرق، وبذلك ستتمكّنُ من كبح جِماحِ هجومِ سفن العدوّ وإلحاق الخسائر الفادحة في صفوفهم"(١٤٣).



(١٤٣) دوران، المصدر السابق، ص ١٦.

وطنيّ باسلٌ، وشجاعٌ تتهاوى أمامه كل الشدائد والنوازل..

أضاف صفحاتٍ مشرقةً لتاريخ الأتراك أثناء حرب الاستقلال، وقدّم كفاحًا يليق بشرف أمّته أثناء الدفاع عن «عنتب» المعروفة بـ«فردون» الترك[144]..

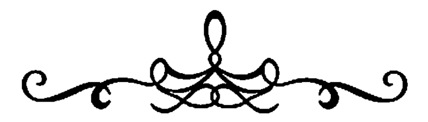
زأر ذلك الأسد في وجه أعدائه قائلًا: "الموت في سبيل ديننا ألذّ من الشراب البارد في حرّ الصيف"..

وضحّى أمام أهله وذويه في «عنتب» قائلًا: "اطمئنّوا، فلن يستطيعَ العدوّ دخولَ «عنتب» إلا على جثماني"..

إنه الأسد الهصور «شاهين بك».



(١٤٤) فردون: مدينة بفرنسا كانت مسرحًا لأشرس المعارك الضارية التي جرت في الحرب العالميّة الأولى؛ إذ أودت بحياة مائةٍ وثلاثةٍ وستين ألف جندي فرنسي ومائةٍ وثلاثةٍ وأربعين ألف جندي ألماني وبلا فائدة لأي من المعسكرين، بعدما شنّ الألمان هجومًا واسعًا تمكّن الجيش الفرنسي من صدّه.



"شاهيـن بك" والدفاع المجيد عن "عنتب"

بعد نضالِ الجيشِ العثمانيّ ومقاومتِه الدُّوَل العظمى طوال أربعة أعوام في الحرب العالميّة الأولى، وبعد ضربه أروع الأمثلةِ في البطولات، أظهر للعالم قدراته الفائقة الخارقة، إلا أنّه لم يستطع الثبات بسبب انسحاب حلفائه من الحرب، وفي الثلاثين من أكتوبر/تشرين الثاني عام (١٩١٨م) اضطرت الدولة إلى توقيع معاهدة وقف إطلاق النار مع دول الحلفاء في ميناء "مندروس" بجزيرة "ليمني"، لكنّ تلك المعاهدة التي أنهت الحرب كانت تحمل شروطًا مجحِفة جدًّا، كأنّها تستهدف تقويضَ الدولة العثمانيّة لا سيّما المادّة السابعة المقرّة بحقّ احتلال دول التحالف لكلّ ركن من أركان الدولة العثمانيّة في حالة ظهور ما يهدِّدُ أمنَ جيوشها.

بدأت الدول المنتصرة في غزوِ أراضي الدولة العثمانية مفسّرين فقرات الاتفاقيّة كما يحلو لهم طبقًا لمصالحهم الخاصّة.

دعم الإنجليز لواء الفرسان -الذي فصلوه عن فرقة الفرسان الخامسة- بوَحدات عسكريّة محمّلة بالمدافع والأسلحة الثقيلة حيثُ أرسلوه إلى الشمال، واحتلوا مدينة "كِلِّسْ" في الثالث من يناير/كانون الثاني عام (١٩١٩م)، و"عنتب" في الخامس عشر من يناير/كانون الثاني عام (١٩١٩م)، ثم اتّفقوا مع الفرنسيّين على انسحابهم تاركين لهم مرعش وأورفا وعنتب وكِلّس بدءًا من الخامس من نوفمبر/شباط عام (١٩١٩م) شريطة بقاء "الموصل" وما حولها في حوزتهم، وأسّس الفرنسيّون هناك وَحدات عسكريّةٍ تطوّعيّة من المسيحيّين المحلّيّين مثلما فعلوا في منطقة "أضنه"، وجلبوا أيضًا كتيبةً أرمنيّةً معهم.

بعد مدّةٍ قصيرةٍ بدأ العدوّ يكشِفُ عن وجهه الحقيقيّ بمساعدة الأقلّيّات؛ فصادرَ الأسلحة من الأهالي، وأتلف المحاصيل بغارات شنّها على القرى، وانتشرت أخبار عن التحرش بالنساء، كانت هذه الضغوط المتزايدة كلّها تستهدف إصابة الناس باليأس، كما أنّ نهب قرية "بيوك عربتان"، وإنزال العَلَم التركيّ عن مركز شرطة "آقيول" عَنوة أثار ثائرة أهالي "عنتب".

الفرنسيّون الحائرون

شرع الأهالي في "عنتب" بالمقاومة غير المسلحة، إذ امتنع القرَويّون عن بيع العدوّ الغلالَ والخشب اللازم لإقامة الوسائل الدفاعيّة ونحوها من الضروريّات الإستراتيجيّة؛، فاضطرّ الفرنسيّون -المدركون أنّهم لن يتمكّنوا من توفير المؤن من عنتب- إلى جلب الغذاء وما شابه من

المناطـق الأخـرى؛ وكان لا بـد مـن جلب المـؤن اللازمـة والذخيرة من الحامية العسكريّة بـ"كلّس" وكتيبة القيادة الفرنسية لدعم القوّات المتمركزة فـي عنتـب، ولذا كان طريق عنتب كلّس يحمـل أهمّيّة كبيرةً لوصول تلك المساعدات بشكلٍ آمن.

ذات يـوم تجمّـع الفدائيّون من القرى المجاورة، وحاصروا العدوّ في بحيرة تسـمى "جتلمازي (*Catalmazı*)"، وتكبّدَ الفرنسيّون الحائرون الذين لم يتوقّعوا مثل هذا الهجوم خسائرَ فادحةً عندما تأخّروا في الردّ.

لقـد بدأت المقاومـة بالفعل، حيث باتـت القذائفُ تـدوّي يوميًّا عند ملتقى الطُّرُق وفي الضواحي في المدينة.

شاهين بك

في البداية تولى "مِصرزَادَه نوري بك" حماية طريق كلّس عنتب، وفي تلـك الأثنـاء كان الفرنسـيّون يتحرّكون بحريّة على ذلـك الطريق، ويأتون بتعزيـزاتٍ عـن طريـق -"قاتما (*Katma*)" ثـمّ "كلّس" ثمّ "عنتـب"- لتقوية مراكزهم بـ"عنتب".

فـي ذلـك الأوان جاء "شـاهين بـك" إلى "عنتـب"، واسـمه الأصليّ "محمد سـعيد"، وسـيطلق عليه الناس فيما بعد "شاهين بك"، وكان أهالي عنتب يطلقون عليه باللهجة المحليّة "شاهان بك".

ولد "شاهين بك" عام (١٨٧٧م) في حيّ "بستانجي" بـ"غازي عنتب"، وفي عام (١٨٩٩م) ذهب إلى اليمن بصفته جنديًّا عثمانيًّا، ومُنح رتبة رقيب أوّل لنجـاحٍ أظهـره فـي جبهة اليمن، وشـارك في حـرب طرابلس الغرب

متطوّعًا عام (١٩١١م)، وفي حرب البلقان حارب في جبهة "جاتلجه"، وفي بدايات الحرب العالميّة الأولى حارب في الفيلق الخامس عشر في "غاليجه"، ثمّ في جبهتي "جناق قلعه" و"فلسطين" على التوالي.

كما قاتل ذلك البطل المقدام أيضًا الإنجليز في جبهة "سيناء" في أكتوبر/تشرين الأول عام (١٩١٧م): وبفضل وطنيّته وسموّ أخلاقه وبسالته وبطولته تمّت ترقيته إلى رتبة ملازم، ووقع "محمّد سعيد" في أسر الإنجليز في أثناء معركة ضارية عام (١٩١٨م)، وتمّ إرساله إلى مخيم الأسرى في "سيدي بشر" بـ"مصر".

في سبيل الراية

بعد وقف إطلاق النار، أطلق الإنجليز سراح "شاهين بك" في ديسمبر/ كانون الأول عام (١٩١٩م)، فذهب إلى إسطنبول في الثالث عشر من ديسمبر/كانون الأول من العام نفسه، فتقدم بطلب إلى "جمال باشا" وزير الحربيّة في حكومة "عليّ رضا باشا" للحصول على وظيفة؛ فقام الباشا بتعيينه برئاسة الشعبة العسكريّة بمركز "بيرجك" بمدينة "أورفا"؛ وبناء على ذلك استطاع أن يزور "عنتب" مسقط رأسه.

عندما رأى "شاهين بك" عنتب وهي محتلّةٌ اندهش كثيرًا وساوره حزنٌ عميقٌ وألمٌ مرير، رغم أنّه حارب لسنواتٍ طوال في سبيل المقاومة والاستقلال، فما استطاع أن يمكث بمنزله إلا يومًا واحدًا فقط، ولم يستمع لتوسّلات كبار العشيرة مثل:

- استرح يا ولدي بضعة أيام، حتى تتخلّص من حزنك.

فأجاب قائلًا:

- كلا، لا أستطيع أن أبقى، انظروا، أَنْزَلَ الأعداءُ رايتنا وأنا قاتلتُ أعوامًا في سبيلها.

مقاومة عنتب

عندما رأى "شاهين بك" "عنتب" وهي محتلّة من قِبل الأعداء، تخلّى عن وظيفته بـ"بيرجك" وقرّر المكوث فيها، وبعد أن ودّع زوجته وعانقَ ابنَه تقدّم بطلب وظيفة إلى جمعيّة حقوق الدفاع عن عنتب، فأعطته الجمعيّة مهمّة مراقبة طريق "كلّس-عنتب"، لم يتردّد شاهين بك ولو لحظةً واحدةً، وبدأ يزاول مهامه في الحال، شاعرًا بسموّ المهمّة المسندة إليه وبمسؤوليّته الثقيلة.

في مطلع عام (١٩٢٠م) أخذ يحدّث الناس وهو يجول قرى عنتب قريةً تلوَ الأخرى عن عواقب الاحتلال المريرة، وعن حبّ الوطن والأمة، وأهميّة الجهاد وفضيلته، وخلال وقتٍ قصيرٍ جمعَ مجموعةً فدائيّةً يراوح عددهم من خمسين ومائة شخص إلى مائتين، واتّخذ من قرية "أُولُومَاسَرَا" مقرًّا له، وبعد أن شيّد القلاع في "قِيزِلْ بُورُون" و"الومسرة" و"كرتيل" على طريق "عنتب-كلِّس" أخذ يشنُّ غارات على القوّات الفرنسية التي تمرُّ من هذه المناطق واستطاع بذلك قطعَ الطريق أمام المؤن والذخيرة التي تجلب من "كلِّس" إلى "عنتب".

ومن مقالاته الشهيرة:

"إن طريق كلّس عنتب يُعتبر نقطةً حاسمةً بالنسبة للمقاومة، وعلينا أن نفعل كلّ ما في وسعنا كي نمنع وصول المساعدات إلى وحدات الاحتلال الفرنسي بعنتب عبر هذا الطريق".

حظي "شاهين بك" بحبّ الناس في غضون مدّة قصيرة، حتى إنّه لو ذهب لأيّة قرية لطلب الدعم، لاستُقبل بحفاوةٍ، ولأمدّه القرويّون بما يريده من مالٍ وطعامٍ.

وفي يوم الثالث من فبراير/شباط عام (١٩٢٠م)، قدمت من "كلّس" إلى "عنتب" فرقة مؤن فرنسيّة قوامُها خمسون ومائة عربة تقوم بحمايتها سريّتان، وفي الطريق وقعت هذه الفرقة في الكمين الذي نصبه "شاهين بك" واضطرّت للعودة، وفي اليوم التالي قُطع اتّصال الفرنسيّين مع كلّس بتدمير خطوطِ التلغراف على طريق كلّس، كانت تلك الجهود ترفع من معنويّات الأهالي، وكان أهالي عنتب يسعون لتنظيم المقاومة بالمدينة على نحوٍ مكثّف، ويعملون على مدّ "شاهين بك" بالمؤن والذخيرة.

حاول الفرنسيّون العبور مرّة أخرى من الطريق نفسه يوم الثامن عشر من فبراير/شباط، إلا أنّ مقاتلي شاهين بك نجحوا في تشتيت تلك الكتيبة أيضًا، وكانت محصّنةً بمدفعين ورشّاشات كثيرة جدًّا، إلا أن العدوّ اضطرَّ للتراجع إلى كلّس مرّةً أخرى أمام هجمات المقاتلين،حتى استطاع أن يُرعب القوات الفرنسيّة ويتركها في حالة يُرثى لها في مواجهة مجموعةٍ صغيرةٍ من الأبطال، وعندما علِم القائد الفرنسي بـ"كلّس" ما حال بجنوده تضجّر كثيرًا، وألقى قبَعَتَهُ، وأمر بالقبض على القائد الذي فضّل الانسحاب على القتال.

كان "شاهين بك" يقول في رسالة بعثَ بها إلى قائدِ العدوّ في أعقاب ذلك النصر:

''دم الشهيد في كلّ ذَرّة من تراب أراضٍ وطأتها أقدامكم القذرة، وملاقاة الموت في سبيل الدين والشرف والحريّة لنا أحلى من الشراب البارد في حرّ أغسطس/آب، فارحلوا عن أراضينا فورًا، وإلا فستُزهَق أرواحكم بلا رحمة''.

وكان شاهين بك يرفع معنويّات أهل عنتب الشجعان بقوله:

- لا تقلقوا، واطمئنّوا، لن يستطيع العدوّ دخول عنتب إلا على جثتي.

بطلٌ في الحادية عشرة

لقد ضاق ذرعًا قائد قوات الاحتلال بـ"عنتب"، وكان يتّصل دائمًا بالتومن[١٤٥] الفرنسيّ بـ"قاتما"، ويطلُب مؤنًا وذخيرةً باستمرار، علاوةً على أنّ الوصول إلى عنتب تحوّل عندهم إلى مسألةِ كرامة، فقدمت قوات الاحتلال -الراغبة في الوصول إلى عنتب مهما كلف الأمر- بفرقةٍ عسكريّةٍ حاشدةٍ في الخامس والعشرين من مارس/آذار، يقودها المقدِّم "أندريا" من كلِّس، وتضمّ ثلاث فرق من المشاة، وسريّتين من الخيّالة، وقام العدوّ بتعزيز سريّة المدفعيّة بستّة عشر رشّاشًا، وأسلحةٍ آليّةٍ متعدّدةٍ، أما قوات "شاهين بك"، فلم يتجاوز عددهم المائتين رغم مَدَدٍ قدَّمَتْه جماعة كلّس الوطنيّة، ومع ذلك فإنّ "خيري" بن "شاهين بك" البالغ من العمر أحد عشر عامًا كان ضمن المتطوّعين منذ بداية الاشتباكات، وشارك في كلّ معركة.

وقد وقعت أولى المواجهات بين الطرفين في السادس والعشرين من مارس في تلال "قيزل برون" وأما المواجهة الثانية فكانت في اليوم التالي

(١٤٥) التومن: فرقة مكونة من عشرة آلاف جندي.

بالقرب من "كرتيل"، وقد اضطرّ المقاتلون إلى الإنسحاب بعد تعرُّض مواقعهم في التلال لقصفٍ عنيفٍ من قِبل مدافعِ ورشاشات العدوّ.

في الثامن والعشرين من مارس/آذار، أي: اليوم الثالث للحرب، كان "شاهين بك" يُهروِلُ من جبهة لجبهة، ويحاول أن يُضاعِف قوّةَ المقاومة، وكان العدوّ يهاجم بالمدافع والبندقيّات الآليّة، والحال يزدادُ خطورةً مع كلّ دقيقة تمرّ، وبدأ المتطوّعون في الانسحاب حين أدركوا أنّ الموت سيلاحقهم حتمًا لأنهم لا يملكون إلا البندقيّات لمواجهة القذائف المنهمرة من المدافع والرشاشات، ويبدو أن القتال مستحيلٌ في ظلّ هذه الظروف الصعبة، فلا يمكن التصدّي بالحراب لقذائف المدافع، وسقط معظمهم شهيدًا أو جريحًا، وانخفضت أعدادهم كثيرًا، وكانوا يقولون:

- الكفّار يمطروننا بوابل من النيران ولن نستطيع أن نثبت، فلننسحب يا "شاهين بك"".

لقد غاب توازن القوى بين الطرفين تمامًا إذ أن هؤلاء المقاتلين الصامدين الذين لا يتجاوز عددهم بضعة أنفارٍ لن يستطيعوا الصمود أمام جحافل العدوّ.

لكنّ "شاهين بك" رفض الانسحاب، وصرخ قائلًا:

- علينا أن نحارب حتى آخر رصاصة لدينا!

وزأرَ فيمن أشاروا بالانسحاب:

- بأيّ وجه أعود إلى عنتب لو عبر العدوّ من هنا؟ لقد وعدتهم، لن يمرّ العدوّ إلا على جثتي!

حفظ الله الوطن

لقد حارب ذلك البطل البارّ بوطنه قوّاتِ العدوّ التي تفوقه بكثيرٍ لمدّة ثلاثة أيّام ومعه نحو مائتين من الشجعان، وجشّم العدوَّ خسائر فادحةً، وبقي الفرنسيّون دَهِشين أمام هذه الحفنة من الأبطال، حيث لم يتمكّنوا من قطع مسافةٍ -بسبب هؤلاء الأبطال- تستغرقُ عشر ساعات إلا في أربعة أيامٍ مريرة.

تراجعت حفنة المتطوّعين إلى التلال، وكان شاهين بك يُقاوم وحدَه، فقد أصبح الآن جيشًا بمفرده، وكان يُقاوم الفرنسيّين بمفرده على جسر "ألملي" ببندقيّته، واستمرّ في إطلاق النار على العدوّ متحصّنًا بسياج الجسر الحجريّ، وكان رفاقه بالتلال يشاهدون دفاعه البطوليّ وعيونهم دامعةٌ.

بعد أن أطلق رصاصته الأخيرة، حطّم بندقيته ملقيًا إياها على الأرض، ثمّ أمسك خنجره بيده، وهو يسير على الجسر بأناةٍ مواجهًا العدوَّ بصدره المكشوف وصاح في وجههم قائلًا:

- لن تستطيعوا المرور إلا على جثتي!

كأنّه يريد أن يوقف الجيوش بقبضتيه، وصاح بكلماته الأخيرة للقادمين نحوه:

- حفظ الله الوطن!

صمتَ الضبّاط الفرنسيّون حائرين أمام هذا البطل المتهوّر المتقدّم نحوهم بمفرده على جسر "ألملي"، وزأرَ "شاهين بك" مرّةً أخرى.

- أيّها العدو الوضيع، هيّا، تعالَ، واطْعَنّي![١٤٦]

وفي لحظةٍ أُفرغت عشرات الرصاصات بجسدِ "شاهين بك"، وسقط جسدُ البطل على الأرض، لكنه قد بزغ في عنتب آلافٌ من أمثال "شاهين"، مزَّقَتْ فرقةُ المشاة الفرنسيّة بعشرات الضربات من الحراب جثمانَ ذلك الوطنيّ الشجاع، حيث كانوا يشفون غليلهم من جثّةِ "شاهين بك" الهامدة.

في الثامن والعشرين من مارس/آذار برَّ "شاهين بك" بوعدِهِ، ولم تستطع القوّات الفرنسية أن تمرّ إلا بعد أن وطِئَتْ جثّته الباسلة، ودُفن "شاهين بك" بمقابر ملك بـ "عنتب" ترثيه العيون الدامعة والقلوب المحترقة.

ولا تزال عنتب تروي بالدموع ملحمة ابنها البطل:

يَا شَهِيدَ الحَقِّ فِي ظِلِّ الحِرَابْ
عَنْتَبٌ مِنْ بَعْدِكُمْ تَصْلَى العَذَابْ
كَمْ تَغَطَّى الثَّوبُ مِنْ فَيضِ الدِّمَاءْ
واصطلى الأبرارُ في نارِ البِغَاء
يا شهيدي قمْ وكبّر للنضال
واهزمِ الأعداءَ في ساحِ القتال

• • •

فِي الثَّلاثِينَ ارْتَقَى تَحتَ الرِّمَاحْ
فَوقَ جِسْرٍ قَدْ تَعَفَّتْهُ الرِّيَاحْ

(١٤٦) خلوصي يتكين، شهيد راية القومية في غازي عنتب، شاهين بك، غازي عنتب ١٩٧٠م.

سارعَ الأصحابُ يكونَ العُقاب

عَنْتَبٌ من بَعدِكُم تَصلى العذاب

يَا شَهِيدِي قُمْ وَكَبِّرْ لِلنضال

واهْزِمِ الأعداءَ في ساحِ القِتَالِ

* * *

أَيُّهَا الشَّاهِينُ مَاذَا قد دهاكْ

قاومِ الآلامَ واثأرْ مِنْ عِداك

هلْ أعمَلُوا في جِسْمِكَ المفدِيِّ أنواعَ النبالْ!

يَا شَهِيدِي قُمْ وَكَبِّرْ لِلْنضالْ

واهزمِ الأعداءَ في ساحِ القِتَال

* * *





إنه المجاهد الذكيّ الباسل..

إنه مُشعل فتيل المقاومة ومُطلق أوّل رصاصةٍ على العدوّ الفرنسيّ أثناء احتلال الفرنسيّين لمدينة «مرعش».(١٤٧)

لقد أطلق أوّل شرارةٍ في حربِ الاستقلال، وفتح ببطولته الطريقَ لانتفاضة الأمّة كلّها..

لقد كان يتمتّع بقلبٍ فولاذيٍّ وحسٍّ وطنيٍّ عالٍ، ويكافح وينافح من أجل حماية الأرض والعرض والدين..

إنه البطل الشعبيّ «سوتجو إمام».



(١٤٧) تقع محافظة مرعش في جنوب شرق تركيا واشتهرت أثناء النضال القومي بقهرمان مرعش أي بطل مرعش لمقاومة أهلها الاحتلال الفرنسي.



"سوتجو إمام"، وصمود مدينة "مرعش"

وُلد "سـوتجو إمام" بحيّ "فوزي باشـا" بـمدينة "مرعش" جنوب تركيا عام (١٨٧٨م)، واسمه الأصليّ "عليّ"، والده "عمر أفندي"، ووالدته السيّدة "أمينة"، كانت عائلته تتألّف من أربعة أطفالٍ منهم ثلاث بنات، وبينما كان يكتسـب رزقَـه ببيع اللبـن في حـي "أوزون أولوك" بـ"مرعـش"، كان إلى جانـب ذلك يعمـل إمامًا متطوّعًا في جامـع جنارلي؛ عُيِّنَ "سـوتجو إمام" -مطلـق أول رصاصـة على الفرنسـيّين في الحادي والثلاثيـن من أكتوبر/ تشـرين الثاني عام (١٩١٩م)- ساعيًا بالبلديّة مكافأةً له على تضحيته، كما وُكِلتْ إليه إدارة المِدفـع بالقلعة وذلك عقِب طردِ الفرنسيين من "مرعش" في العاشر من فبراير/شباط عام (١٩٢٠م)، أي بعد تحريرها.

نصيب الأسد

قد بات الشـرق الأوسـط سـاحةً لتنافُسِ الدول الغربيّة بدءًا من القرن التاسـع عشـر، فقـد اهتمّ الإنجليـز بعد احتـلال "عدن" بالاسـتيلاء على "سـورية" وجنـوب الأناضول بغرض اسـتخدامها قاعدةً عسـكريّة للدفاع

عن قناة السويس ومصر، لكن في أثناء الحرب العالميّة الأولى اضطرت إنجلترا -تحسُّبًا منها لمخاطر يمكن أن تقع في المستقبل- للإذعان لمطالب فرنسا في سورية والأناضول الجنوبيّة، علاوةً على رغبتها أن تجعل من فرنسا منطقةً عازلةً، تمنع بها توغُّلَ روسيا جنوبًا، وتتحاشى مقابلتها وجهًا لوجه في الشرق الأوسط.

في المدّة ما بين التاسع إلى السادس عشر من مايو/أيار عام (١٩١٦م) تمّ توقيعُ اتّفاقٍ سرّيٍّ بين بريطانيا وفرنسا بمدينة "بترسبورج" الروسيّة، مُنح للفرنسيين بموجبه مناطق: الموصل وأضنه ومرعش وأورفا وعنتب وجزءٌ من سورية؛ أمّا بغداد و"مزوبوتاميا"، فقد تقرّر بقاؤهما في حوزة الإنجليز، إلا أنّ هزيمة ألمانيا في الحرب العالميّة الأولى، وانسحاب روسيا من الحرب لتولي شؤونها الداخليّة عقب الثورة البلشفيّة، أسفَرَا عن تطور أحوال الشرق الأوسط لمصلحة إنجلترا.

كانت سياسة إنجلترا تصبو إلى الاستحواذ على نصيب الأسد من الدولة العثمانيّة المحلولة عراها عقب الحرب، فكانت تحارب القوات العثمانيّة في جبهة سورية خاصّةً، وحنثت بوعودها لفرنسا زاعمةً أنّها تحمّلت عبء الحرب كلّه، وبدأت غزو الأناضول من الجنوب في أعقاب هدنة "مندروس" المعقودة مع الدولة العثمانيّة[١٤٨].

جند بريطانيا المسلمون

بدأت أولى انتهاكات الإنجليز لهدنة "مندروس" في جبهة سورية، وتحديدًا في "إسكندرونه"، إذ احتلوها في التاسع من نوفمبر/تشرين الثاني

(١٤٨) أ.م. يشار أقبييق، مرعش الجبهة الجنوبية في النضال القومي، أنقره ١٩٩٠م، ص ٥.

عام (١٩١٨م)، ولم يكتفوا بذلك، بل رغِبوا في إخلاء ولاية "أضنه"[(١٤٩)] أيضًا، وبعد أن حلّ الإنجليز الجيش الثاني العثماني طبقًا لمعاهدة "موندروس"؛ احتلوا "أضنه" أيضًا في ديسمبر/كانون الأول (١٩١٨م)، ثم "عنتب" في غرّة يناير/كانون الثاني عام (١٩١٩م).

بعد احتلال "عنتب" أصبح من الواضح أنّ الدور قد حان على "مرعش"، فقبل الغزو نُقلت المعدّات العسكريّة العثمانيّة بـ"مرعش" إلى مدينة "قيصري"، ولم يبقَ في المدينة أيُّ قوّةٍ عسكريّةٍ عثمانيّةٍ سوى سريّةٍ واحدةٍ بقيادة الملازم "جمال باشا"، وبعد رحيل الجيش التركيّ عن المنطقة، قام الإنجليز باحتلال "مرعش" في الثاني والعشرين من فبراير/شباط عام (١٩١٩م) متذرعين بالفقرة السابعة من المعاهدة التي تُجيزُ للإنجليز احتلال ودخول أي منطقةٍ تهدّد الجيش البريطاني، وكانت القوات البريطانيّة بقيادة "ماكس أندريو" عبارةً عن فوجٍ من الفرسان يضمّ ضبّاطًا وجنودًا مسلمين.

غمرت السعادةُ الأرمنَ بالمدينة، فنزلوا من شارع "حكومة" وبأيديهم طاقات الزهور، تعبيرًا عن فرحهم بدخول البريطانيّين، وتتقدّمهم فرقة موسيقا "رهبان طراسنتا"، واستقبلوا الكتائب البريطانيّة عند منطقة "الشيخ عادل" بجنوب المدينة، وبلغ طيشهم إلى أبعد مدى، فكانوا يهتفون بأعلى صوتهم قائلين:

"عاش الإنجليز، عاش الأرمن، وليسقط الأتراك".

(١٤٩) أضنه: محافظة تقع على نهر سيحان، على بعد ٣٠ كم من البحر الأبيض المتوسط جنوب الأناضول.

الفرقة الموسيقيّة تتقدم الحشود، يليها الأرمن، ومن خلفهم القوات البريطانيّة؛ فذاك مشهدٌ أثّر في نفوس جموع أهالي "مرعش"؛ إذ كانت تصرّفات الأرمن لا يمكن تحمّلها في الواقع، لكن ما باليد حيلة، وحين اجتازت القوات البريطانيّة منطقة "أُوزُونْ أُولُقْ" متّجهة إلى ثُكنة الجيش، ارتفع صوت الأرمن أكثر، فأخذوا يهينون كلّ تركيّ يرونه في الشوارع الجانبيّة، وعند مجيء الإنجليز لمشارف الثُّكْنة، أمر قائد الحرس التركيّ الملازم "جمال" جنودَ السريّة هناك بحمل السلاح تأهّبًا لأي قتالٍ قد يحدث؛ وعندما رآهم القائد الإنجليزيّ، غيَّر طريقه وهو يوبِّخ الأرمن، وساق قوّاته تجاه المدرسة الأمريكيّة(١٥٠).

موقف أهالي "مرعش" من الاحتلال

يروي "محمد جَبه" -الذي كان يعمل معلّمًا في "بازارجق" إبّان احتلال "مرعش"- مشاهداته عن الاحتلال على النحو التالي:

"قررتُ الذهاب إلى مرعش للوقوف على ما أحدثه الاحتلال الإنجليزيّ من تأثيرٍ في نفوس إخواننا هناك، واستطلاع لرأي الناس عن كثب تجاه الاحتلال، فامتطيتُ جوادي، ورحلت، وفي النهاية وصلتُ إلى طريق "عنتب-مرعش" الرمليّ الواقع عند موقع "قابي جام" على بعد ساعتين ونصف من "مرعش"، ثم سرتُ قليلًا، فإذا بكتيبة فرسان هنديّة إنجليزيّة كانت في طريقها من "عنتب" إلى "مرعش"، فتنحّيت جانبًا حتى يمرّوا من أمامي.

---

(١٥٠) عادل بغدادليلر، أوزون ألوق، إسطنبول ١٩٧٤م، ص ٢٥-٢٦.

كنت أنظرُ متألّمًا إلى هؤلاء المسلمين المغلوب على أمرهم، المُراقةِ دماؤهم في جبهاتنا لصالح الإنجليز، العاملين على أسرِ أمّةٍ مسلمة مثلهم، كانوا يُلقون عليَّ تحيّة الإسلام أثناء مرورهم بجواري، وكدتُ من حزني أفقد وعيي، ثم سمعتُ صوتًا بجانبي، فلما التفتُّ إذا بي أمام موزّع البريد "خليل آغا"، وكان عجوزًا ناضجًا، وهو عسكريٌّ دَرَكٍ متقاعدٌ، وكان يذهب مثلي إلى "مرعش"، فرويتُ له مشاعري كما أحسّها.

بعد أن انتهيتُ من حديثي، قال لي:

- لا تشغل بالَك أبدًا، ولا تحزن يا أستاذي؛ فلقد سمعتُ كثيرًا من أكابر قومنا عن سياسة الإنجليز الذين يحلّون أراضينا، فهم إذا أرادوا إقامةَ مستعمرةٍ في بلدٍ ما أرسلوا إليهم كتائب تتوافق مع طبيعتهم، لذا تجدهم يرسلون الهنود المسلمين إلى "مرعش"، ويريدون ملاطفةَ الشعب بهذه الطريقة، وإقناعهم بأنّ الحكومة البريطانيّة سوف تنتهج إدارةً عادلةً، إلا أنّ جهدهم وأمانيهم ستذهبُ سُدًى، لأن أهالي "مرعش" لا يشبهون شعوبًا أخرى احتلوها، حين يقرّر البريطانيّون احتلال دولة ما لا يتعجّلون ألبتّةَ لتحقيق هذا الأمر، بل يتصرّفون كالسِّلّ، حيث يتبعون الطريقةَ نفسَها التي يحاصر بها السِّلّ جسدًا يدخله خُلسة، وحينما يشعرون أنّهم حاصروا جسد الضحيّة تمامًا، ويتأكّد لديهم أنّهم خدّروا الرأي العامّ بقدر كافٍ، عندئذٍ تظهر نواياهم بسهولةٍ، فيقتلون الناس بدمٍ باردٍ، لكنّهم لن يستطيعوا أن يجدوا في هذه المنطقة مَن يطبّق أجندتهم وأوامرهم، فأهالي مرعش أناسٌ يحبّون دينهم ووطنهم، ويريدون أن يَحْيَوا حياةً حرّةً بشرف، ولسوف ترى في الوقت اللاحق كيف سينتصرون على أعدائِهم بإذن الله تعالى.

فـي الأعوام اللاحقـةِ، تعجّبتُ لنبوءة عسـكريّ الـدَّرَك العجوز هذا، حيث تحقّق ما قاله بحذافيرِه (١٥١).

الفتاة الأرمنيّة المسلمة

بـدأت العصابـات الأرمنيّة بالمدينة بعـد أن أذِن لهم الإنجليز البحثَ عن رفقائهم من ذوي الأصل الأرمنيّ معتنقي الإسلام في الأعوام السابقة، ونُقـل هـؤلاء المغلوبون علـى أمرهم إلى مقـرّ القيادةِ البريطانيّـة، وكانوا يأخذون النســاء والفتيات الأرمنيّات المسلمات والمتزوّجات من الأتراك من بيوتهن عنوةً.

حينمـا أعربـت فتاةٌ أرمنيّة مسـلمةٌ متزوّجة من الحـاجّ "محمد بن قَرَه كُوجُـوكْ" مـن حيّ "أَسَـدِيَوانْلِي" أنّها لا ترغب فـي الانفصال عن زوجها والذهـاب إلى مقـرّ القيادة، قـام "أرتين" -أحـد أفراد العصابة الغاشـمة- بضربها، ونقَلَها قسرًا رغم مقاومتها، ونكّل بها في الطريق، وتُوفّيت المرأة الشـابّة فـي الأيام التاليـة بانهيارٍ عصبيّ مـرّت به، وبعد مـدّةٍ قصيرةٍ تُوفّي حموها لتأثُّره النفسيّ البالـغِ بتلك الواقعة.

فـي أثنـاء سـير جِنـازة الرجـل للدفـن، إذا بجـزار من الأرمـن يُدعَى "بوبـوش" يعتـرض طريـق الجِنازة مـع عـددٍ من أقرانه يحملون السـلاح، ويقـول: إنّ المتوفَّـى كان مدينًـا لي، ولن أسـمح بدفنـه إلا بعد أداء ذلك الدين.

---

(١٥١) مراد سرت أوغلو، ملحمة مرعش التي حررت نفسها من أيدي الإحتلال، جريدة ترجمان، ١٩ مارس ١٩٧٠م، ص ٣٠٢٥.

حقيقةُ الأمر أنّ المتوفى لم يكن مدينًا لذاك الأرمنيّ، إنّما كان غرضُ ذلك الجزّار إهانةَ "محمد أفندي" وعشيرته، ونهبَ النقود من أسرة "قره كوجوك"، وإذلال كيان أسرة زوجِ تلك المرأة الأرمنيّة التي أسلمت.

كان "إسماعيل كمال بك" واليًا على "سيواس" في أثناء الاحتلال البريطانيّ، وكان يتواجد في "مرعش" أثناء تهجيرِ الأرمن منها، فأقام بعض الأرمن دعوى عليه، وبضغطٍ من البريطانيّين أُحضر إلى "مرعش" وتمّت محاكمتُه من قبل المحكمة التركيّة بعد اعتقاله، ووصل عددُ أصحاب الدعوى عليه إلى نحو خمسين، وطالبوه بمئات الآلاف من الليرات كفالةً عنه؛ ولما ادّعوا جميعًا أنّه ساقهم إلى المنفى ظلمًا، وأضرّ بهم؛ طالبوا بمعاقبة الوالي على تلك الجريمة.

تابع الإنجليز القضيّة عن كثبٍ، واتّخذوا مراقبًا لهم في المحكمة، ولم يدخل أصحاب الدعوى قاعةَ المحكمة رغم حضورهم، ونداء أسمائهم، وانسحبوا وانصرفوا بعد أن تجوّلوا مدّة في الرَّدْهِ، وكانوا يريدون بهذا توضيح عدم ثقتهم بالمحكمة التركيّة، ورغبتهم في نظر الدعوى أمام المحكمة البريطانيّة داعين الإنجليز إلى التدخُّل، وفي النهاية نالوا ما أرادوا، وضمنوا تدخّل الإنجليز في الدعوى، وتمّ توجيه الاتهام لـ"إسماعيل كمال بك"، وسِيق إلى حلب مع اثنين عُدّا شريكين له في الجريمة، وحُبسوا هناك[١٥٢].

(١٥٢) سرت أوغلو، المصدر السابق، ص ٣١-٣٢.

مخاوف من الاحتلال الفرنسيّ

بموجب اتفاقيّة "سورية" الموقّعة بين الفرنسيّين والإنجليز في الخامس عشر من سبتمبر/أيلول عام (١٩١٩م)، تقرّر احتلال المنطقة من قبل القوات الفرنسيّة، فدخلوا مدينة "عنتب" أوّلًا، وجاش الأرمن في المدينة فرحًا لوجود كتيبة أرمنيّة ضمن القوّات الفرنسيّة، واستُقبل الفرنسيّون بالأعلام، والزهور، والاحتفالات عظيمة.

كان الأرمن في "مرعش" يريدون هم أيضًا مجيء الفرنسيّين، لأن ما تعذّر عليهم ارتكابه من جرائم في ظلّ الاحتلال البريطانيّ سيتيسّر لهم حالَ قدومِ الفرنسيّين.

وفي تلك الأثناء أَرسلَتْ قيادة الفيلق الثالث عشر برقيّةً إلى وزارة الداخليّة، فحواها كالتالي:

> "وفقًا للمعلومات التي وردت من سورية أنه بدأ تهجيرُ الأرمن من "فِلَسطين" إلى "كليكيا" ضمن تخطيط الفرنسيين لإقامة دولة أرمنيّة تابعة لهم في ولايات أضنه ومرعش وعنتب وأورفا".

خبرُ قدوم الفرنسيّين إلى مرعش كان مُدهشًا ومُرعِبًا للجميع، إذ ذاعت الأخبار عن تشكيل الفرنسيّين فوجًا من الأرمن يُعرف بفوج الانتقام، وشاعت أنباءٌ عن بلوغ مآسٍ ومظالم تُمارس على الأتراك في منطقة "أضنه" على نحو لا يمكن تحمّله، فتحاشى أهل "مرعش" السفر إلى "أضنه"، ونُظّمت مسيرةٌ في الجامع الكبير ندَّدُوا فيها بالمآسي التى تحل بالمنطقة، وبينوا أن "مرعش" ستؤول إلى نفس المصير، كما قام وجهاء "مرعش" عن طريق وزارة الخارجيّة بإسطنبول بالإعراب عن

رفضهم مجيء الفرنسيّين، وقدموا طلبهم لسفارتي بريطانيا وأمريكا وممثليهم العسكريّين ووزارتي خارجيّتهما، مفاد هذا الطلب:

"في حالة بقاء مرعش تحت ظلّ الاحتلال حتى توقيع الهدنة بين الطرفين، فإنه من الأفضل لها أن تبقى تحت ظلّ الاحتلال البريطاني"

كما أُعرِبَ في هذا البيان عن استنكار الاحتلال الفرنسي لـ"مرعش" بشكل قطعيّ.

تشبه الجنود الأرمن بالفرنسيّين

رغم المحاولات المبذولة من قِبل أهالي ومسؤلي مرعش إلا أنّ الفرنسيّين دخلوا المدينة يوم الأربعاء التاسع والعشرين من أكتوبر/تشرين الثاني عام (١٩١٩م)، وكانت مراسم الاستقبال المُعدّة لهم أكثر إشراقًا من تلك المعدّة للإنجليز، حيث امتلأت أسطح منازل الأرمن على جانبي الطريق بالنساء الأرمنيّات، وبعد العصر دخل المدينةَ قائدُ القوات الفرنسيّة، وخلفه فرسان جزائريّون، يتبعهم المشاة الفرنسيّون، وكان الأرمن يصيحون -وأعلامُ المنظمات الأرمنيّة والرايات الفرنسيّة في أيديهم-:

"فليسقط السلطان، فليسقط الأتراك، وليحيَ الفرنسيّون، وليحيَ الأرمن".

كان المتطوّعون من الأرمن يشكّلون الغالبيّة العظمى من الجنود الفرنسيّين.

بدأت الاضطرابات في المدينة مع قدوم الفرنسيّين إلى مرعش، وكان الأرمن يستفزّون الناس بزيّ الجنود الفرنسيّين، ويهجمون على

مـن يقابلونهم، فيضربونهم، ويُلحِقون بهم الأذى، أما الضبّاط الفرنسيّون فكانوا يكتفون برؤية هذا المنظر الأليم من بعيد.

في يوم الجمعة الحادي والثلاثين من أكتوبر/تشرين الثاني، أي: اليوم الثانـي للاحتـلال، تجـاوزت صفاقةُ الأرمـن أبعدَ مدى؛ فكانـوا يتقدّمون الجنود الفرنسيّين ويطوفون بهم الأسواق وجنبات الحيّ، مهينين الأتراك المعترضيـن طريقَهـم ومتطاوليـن بالألفـاظ علـى دين النـاس وتقاليدهم وعاداتهـم، كمـا قاموا أثناء ذلك بالاعتداء بالضرب على موظّفِ بريدٍ كان مارًّا بالطريق، وجرحوه.

وقبيـل المغـرب، وإذا بعامل خمرٍ أرمنيّ يقـوم بتحيّة جنودٍ من الأرمن يرتدون الزيّ الفرنسيّ مقدِّمًا لهم خمرًا صنعها هو بنفسه، حتى أنهم سَكِروا وطغت عليهم حالةُ العربدة والهذيان وهم يمرّون في أسواق المدينة متّجهين إلى ثكناتهم فيسـبون هذا ويُضايقون ذاك... وفي أثناء مرورهم على سـوق "أوزون أولوك" رأوا بعضَ النسوة وهنّ يخرجن من حمام "أوزون أولوك"، وينزلـن مـن الميدان الصغير إلى الطريق الرئيـس، وزاد تطاوُلُهم لأنّهم إلى ذلـك الحيـن لم يروا اعتراضًا على ما ارتكبـوه من تجاوزات، ولم يواجَهوا بـأيّ ردّ فعـل، وعندمـا اتّجه النسـوةُ وغادرنَ الشـارع الرئيـس إلى الطريق الضيّق، اقترب أحدهم منهنّ، ونزع برقـعَ أصغرهنّ ممّن تسير في مقدّمتهنّ ثمّ مزّق البرقـعَ وأزاله عن وجهها وهو يصرخ قائلًا:

- لـم تعـد هـذه الأرض للأتـراك بعد الآن، بـل هي للفرنسـيّين، ولا يسمح سير امرأةٍ بالبرقـع في بلدٍ فرنسيّ!.

ثـم بـدأ في التحرّش بهـا، وبعد أنّ مـزّق برقعها وتحـرّش بها فقدت المـرأة المسـكينةُ وعيَهـا وسـقطت علـى الأرض، فصرخـت الأخريات، وعلى صراخهنّ هُرع الناس الجالسـون على المقهى قرب مكان الحادث إلـى هناك، وهدّدوا الأرمن وطالبوهم بالسـير فـي طريقهم المعتاد، إلا أنّ الأرمن ردّوا على تلك التحذيرات بالسباب والرصاص الحيّ حيث أصيب اثنيـن مـن المواطنين جرّاء طلقات النار، أحدهما "جقمجي سـعيد" وكان جرحه خطيرًا، فهَوَى على الأرض، واستُشهد بعد مدّةٍ قصيرةٍ، ولما تعالَت أصوات الأعيرةِ الناريّة، سُـمعت أصوات نعال دوريّة الفرسان الإنجليزيّة، ومـع ذلك لم يكفّ الأرمن عمّا يفعلون.

سوتجو إمام

فجـأةً ظهـر بطلٌ وسـطَ الشـغب، إنه "سـوتجو إمام"، وصـل كالبرق وسـحبَ مسدسـه وأطلق النار على الأرمنـيّ الطاغي -الـذي قام بتمزيق حجاب المرأة وجَرَحِ "جقمقجي سـعيد"- ثمّ توارى بسـرعةٍ عن الأنظار، لكـن ذلـك الأرمنيّ المصـاب توفّي صباح اليوم التالي ولـم ينفعه العلاج الذي قدّمه له أصحابه بعد أن نقلوه إلى الثكنة.

انطلق "سوتجو إمام" بفرسٍ أخذه من "نَلْبَنَتْ بكر" إلى "محرم بك بن بايزيد" المقيم في قرية "برتيز"، وكان الأرمن والفرنسـيّون يبحثون عنه في كلّ مـكان، ورغم الضغط المتواصل مـن الاحتلال على الأتراك من أجل الإمساك بـ"سوتجو إمام" إلا أنّهم فشلوا في العثور عليه.

اختبأ ذلك البطل -الذي يزداد حبّه في القلوب- بمنازل القرية وبساتينها نهارًا، وفي منازل المدينة ليلًا، ثمّ عاد "سوتجو إمام" إلى المدينة عندما غادر الفرنسيّون "مرعش" صباح العاشر من فبراير/شباط عام (١٩٢٠م).

شرارة حرب الاستقلال

بتلك الرصاصة الأولى التي أُطلقت على العدوّ في "مرعش" تبيّن للمحتلّين أنّ ما ارتكبوه لن يمرّ من دون عقاب، وأظهرت تلك الحادثة -التي أدّت إلى حملات دهم فرنسيّةٍ وأرمنيّةٍ مكثّفةٍ على حدٍ سواء- أنّ أهل مرعش لن يخضعوا للاحتلال، وأنّ أيّ يدٍ تتطاوَلُ على دينهم وشرفهم سوف تُكسرُ.

لقد روّع قتلُ أرمنيّ يرتدي الزيّ العسكريّ الفرنسيّ الأقليّة الأرمنيّة، بيد أنّه رفع من روح الأتراك المعنويّة.

إن "سوتجو إمام" يُعَدُّ أوّل شخصٍ من أهل مرعش يرفع السلاح على قوّات الاحتلال، وقد قتلت رصاصاته أرمنيًا واحدًا فقط، ورغم هذا أصبحت هذه الواقعة مبشِّرةً بحرب الاستقلال؛ لأنّها كانت سبب انتفاضة الأمّة كلّها، وآمَنَ الناس بقوّتهم وقدراتهم في مقاومة الاحتلال، وتضاءلت قوات الاحتلال في عيون أهالي مرعش[١٥٣].

كما أدّت بطولة "سوتجو إمام" إلى تماسُك الناس التامّ بعضهم ببعض، وبدأ بعد تلك الواقعة إحياء أجمل نماذج الوحدة والتكاتف الجماعيّ في المدينة.

---

(١٥٣) حسن رشيد تانكوت، في طرق مرعش، أنقره ١٩٤٤م، ص ٢٠.

بـدأت المعارك فـي المدينة يوم الحادي والعشـرين مـن يناير/كانون الثاني عام (١٩٢٠م)، وحمل السلاحَ أهالي "مرعش" بمختلف أعمارهم، ورصّـوا صفوفهـم وتكاتفـوا فيمـا بينهم، فحقّقـوا نصرًا مبينًـا، وفي نهاية المعارك الضارية المسـتمرّة اثنين وعشرين يومًا اضطرّت القوّات الفرنسيّة إلـى الانسـحاب حتى مدينة "إصلاحية" -التـي تُعتبر من ضواحي عنتب- بعـد قصـف المدينـة قصفًا عنيفًا ليلة العاشـر من شـهر فبراير/شـباط عام (١٩٢٠م).

بعد تحرير المدينة عُهد بإدارة المِدفـع في الحصن إلى "سوتجو إمام"، وحينمـا وليَ "عبد المجيد أفندي" العرش العثماني في الثالث والعشـرين من نوفمبر/شـباط عام (١٩٢٢م)، صعد "سـوتجو إمـام" البطلُ إلى القلعة لإطـلاق مائـة وواحد مـن الطلقـات، إلا أنّه أُصيب بحـروق خطيرة على إثـر اشـتعال البـارود قبـل أن يتمكّن من إطـلاق القذائف، ورغـم مداواة هـذا الوطنيّ الباسـل في المستشـفى الألمانيّ إلا أنّـه تُوفّي بعد يومين في الخامس والعشـرين من نوفمبر/شباط عام (١٩٢٢م)، ودُفن بمقبرة جامـع "جنارلي" مشيَّعًا وسط الدموع.





المجاهد المغوار الذي قضى على العصابات اليونانيّة التي تجبي الإتاوات من الأهالي خلال سنوات احتلال إسطنبول..

المقاتل الذي لا يعرف معنى الخوف، ويتقدّم الفدائيّين دائمًا في المعارك والهجمات..

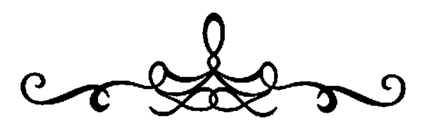
البطل الشعبيّ الأسطوريّ الذي قدّم خِدْمات جليلةً خلال حرب الاستقلال أثناء تحرير «قاندرا» و«أدابازار»..

الوطنيّ الذي رفض وسام الاستقلال الممنوح له قائلًا:

"قاتلنا لتحرير وطننا، لا لوسامٍ أو نيشان".

(إيسز) رجب رئيس





"رجب رئيس" والقضاء على ميلشيات الروم

خـلال سـنوات أعقبت هدنة "مونـدروس"، وقعت مـدنُ "أدابازاري" و"إزميـت" و"قانديرا" تحت الاحتلال البريطانـيّ واليونانيّ، وكان الجنود اليونانيّـون يسـومون الأهالـي أنواع التنكيـل، وكانت العصابـات اليونانيّة والأرمنيّة تغير على البيوت والنزل لتجمعَ الإتاوات، وتقتل الممتنعين.

يهـدُف اليونانيّـون إلـى مقصدٍ آخر هو العبور إلى الجهة الشـرقيّة من مدينـة "سـقاريا"، وكانـت أهدافُهـم الوصـول إلـى مدينة "طرابـزون" عن طريـق مدينتي "جـوروم" و"سامسـون"، وتحقيق أحلامهم بتأسـيس دولة "البونتوس"، وكان عبور العدوّ إلى شرق نهر "سقاريا"[١٥٤] يعني سدّ الطرق علـى الراغبيـن فـي الانضمام إلى نضال الاسـتقلال، ولو نجحوا فسـوف ينقطـع اتصال "أنقره" بـ"إسـطنبول" ومـا حولها؛ لأنّ الطُّـرُق المؤديّة إلى "أنقره" وقتئذٍ كلّها كانت تمرّ بـ "إينه بولي (*Inebolu*)" و"سقاريا".

(١٥٤) نهر سقاريا: يعد من أطول أنهار تركيا بعد نهري "الفرات" و"قزل ايرماق" وهو كذلك أكبر نهر في شمال غرب أناضول.

كان من الممكن تمزيقُ نسجِ خيالات العدوّ بإخراج اليونانيّين من "كانديرا، وها هو "رجب رئيس"(١٥٥) تدخَّل في الأمر، وشنّ هجمات مع مجموعته الفدائيّة، فاقتلع العدوّ من "كانديرا"، وحال دون مرور لواء اليونان إلى شرق "سقاريا"، كما استطاع هذا البطل فتح الطُّرُق أمام المتطوعين في الذهاب إلى أنقره.

بسالة "رجب رئيس"

"رجب رئيس" هو أحد أبناء "عبد الله أمير علي"، ولد عام (١٨٦٢م) بحيّ "بُرْتُقَالْلِقْ" بمدينة "رِيزَا"(١٥٦)، وكان طفلًا شرسًا مشاغبًا جدًّا، بدأ أعتاب الشباب وهو يعيش حياة متحرّرة، يتجوّل بالحيّ، مقلنسًا، مسلّحًا، كان يقضي الليلة في مكانٍ والنهار في مكان آخر ولا يُعير أيَّ اهتمامٍ لمكان أو كيفيّة مبيتهِ، فأُطلق عليه: (إبسز) يعني ذلك عابر السبيل الذي لا مأوى له، وكان رجب مناضلًا يحمِل بندقيّته دائمًا، وفي الوقت نفسه خيّالًا ماهرًا، ما إن يمتطي جواده حتى يتوارى عن الأنظار.

اختار "رجب" أن يمتهِن مهنةَ والدِه قبلَ نشوب الحرب العالميّة الأولى، فكان يعمل بقاربه المتواضِع في النقل والتجارة بين "ريزا" و"باتوم"(١٥٧)، ويحمل البرتقال إلى روسيا ويجلب من هناك الكيروسين والملح والسكر ويقايض بالتبغ، وبسبب انشغاله بالبحارة فقد أطلق عليه لقب "رجب رئيس".

---

(١٥٥) الملقّب "إبسز رجب".

(١٥٦) ريزا: مدينة ساحلية تقع شمال تركيا.

(١٥٧) باتوم: هي عاصمة مقاطعة أجاريا في دولة جورجيا.

فـي عام (١٩٠٥م) تصاعدت وتيرة الأعمال الإرهابية من قبل الأرمن تدريجيًـا؛ حتى إنّ نشـطاء منظّمة "طاشـناق" الأرمنيّة قامـوا بعمليّة اغتيال فاشـلة للسـلطان عبـد الحميـد الثانـي[١٥٨]، وسـارعت منظّمة "طاشـناق" -ومقرها روسـيا- في نشـاطها بالبحر الأسود والأناضول على حدٍّ سواء، كما أنّ أعدادًا هائلةً من السلاح والمحاربين تدخل سواحل البحر الأسود عن طريق "باتوم".

ذات يوم حمل "رجب رئيس" على قاربه سبعة عشر فردًا من "باتوم"، وبعـد أن أبحروا مـدّة أدرك أنّهم رجال العصابـة الأرمنيّة يحاولون إخفاء أسلحتهم؛ فقام هو ورجله المقرب "عبد الله ريزوي" بقتل رجال العصابة، وألقى بجثثهم إلى البحر وعاد بقاربه فارغًا إلى "ريزا".

قامت احتجاجات ضخمةٌ على الإدارة العثمانيّة بعد تلك الواقعة لأنّ رجـال العصابة المقتولين كانوا مواطنين روسـيين مـن أصلٍ أرمنيّ، وعند التحرّي تبيّن اشـتراك أفراد هذه العصابة في كثيرٍ من العمليّات المسـلّحة والتفجيريّـة السـابقة، واتّضـح ضلوعهـم فـي جرائـم القتـل والتخريـب والتجسّـس، وأنهـم مطلوبـون للعدالة منذ أمَدٍ بعيدٍ، ورغم هـذا دَهَمَتْ قـوات الشـرطة منـزلَ رجب رئيس، لكنّهـا لم تعثر عليه هنـاك فقد مضى رجـب إلـى "إِينَه بُولِو"، وهنـاك بدأ يعملُ بالنقل ضمن إطـارٍ ضيّق، وبعد

(١٥٨) عهِدَ "ميكاليان" وهو أحد مسؤولي اللجنة عن إسطنبول بتطبيق هذا القرار لـ"صافو" و"طاركوم"و"آشوت"؛ وبعد موت ميكاليان في أثناء تنفيذ إرشادات القنبلة تم إسناد تنفيذ الاغتيال وإدارته إلى أعضـاء آخرين، فأوصت منظمة طاشناق باستيراد العربة اللازمة لتنفيذ الاغتيال من "فيـنا"، وفي إسطنبول استلم "سـيلفور ريجي" العربة المستوردة من فيـنا، وكان سائقها من "سبواس"، ويدعى "ميغرديج غريبيان"، د. رمضان جاليق، حوادث الأرمن في عهد عبد الحميد الثاني، قونيا ١٩٩٤م، ص ١٣٤-١٣٥.

مدّةٍ طويلةٍ تخلّص من ملاحقة الشـرطة له بقانون العفوِ العامّ الصادر بعد حرب البلقان، وعاد إلى "ريزا" مرّة أخرى.

خـلال السـنوات الأولـى مـن الكفاح الوطنيّ أسـهم "رجـب رئيس" فـي أعمـال النقـل بسـفينة هو شـريك فيها، يحمـل الفحم بين إسـطنبول و"زونغولـداك"(١٥٩)، لكـن في إحـدى الرحلات تعرّضت سـفينته لعاصفة بالقرب من "كفكان" وغرقت، ونجا "رجب رئيس" ورفاقه بصعوبة.

العصابات اليونانيّة

بعد أن أتى "رجب رئيس" إلى إسطنبول بدأت مرحلةٌ جديدة تمامًا في حياتـه؛ حيث كان يعمل بقاربه في النقل بالمضيق من ناحية، ومن الناحية الأخرى يخدم المنظّمات المنشَـأة لنضال المحتلّين، فيعبر إلى الأناضول ويساعد الراغبين في الانضمام إلى الكفاح الوطنيّ.

كانت قضيّة الأمن هي القضيّة الأكثر أهمّيّة أثناء الاحتلال؛ فالعصابات اليونانيّة القادمة من جزر إيجه وجزيرة كريت كانت تعرّض الأهالي للأذى في ريف إسطنبول، وتفرض الإتاوات على الأغنياء، ولا تكتفي بالنهب، بل تقتل الأبرياء، وتسـتهدف إنهاء وإنهاك مقاومة الأهالي الضعيفة المغلوب علـى أمرهـا، وبينما الحال كذلك إذ برائدٍ من القوّة الوطنيّة يوفّر السـلاح الكافي لرجب ويضـع عشرة جنود تحت إمرته، ويطلب تصدّيه لعصابات الروم، أدى "رجب رئيس" تلك المهمّة بنجاحٍ وقضى على عصابات الروم جابيـة الإتاوات مـن الأهالي واحدةً تلوَ الأخـرى، وأصبحت قصّة قضائه على عصابة "أندون الكريتيّة" قصّة شيّقة، وهي كالتالي:

(١٥٩) زونغولداك: مدينة تركية تقع في شمال تركيا وهي من الموانئ المهمة على ساحل البحر الأسود.

كان أنـدون -رئيـس العصابة- فـي بعض الأحيان يتنـاول الطعام مـع رفاقـه فـي أحد المطاعـم بـ "طرابيـا"، وعلم "رجب" بذلك، فتوسّـل إلى صاحـب المطعـم، وأفصح له عن جوعه باكيًا فاسـتدرّ عطفَه، وطلب منه أن يعمل عنده قائلًا:

- أستطيـع العمل مقابل ما يسدّ الرمَق.

في النهاية أذعن صاحب المطعم لإلحاحه؛ فألحقه بالعمل في غسـل الأطباق، ومرّت مدّة طويلة على ما سبق، وذات مساء علِم رجب بمجيء العصابة لتناول الطعام، فأخبر أعوانه ليطوّقوا المطعم تلك الليلة.

في المساء جاءت العصابة، وأسندوا بندقيّاتهم إلى الجدار، ثمّ جلسوا إلى المائدة وانهمكوا في تناوُلِ الطعام، وكان الطبّاخ اليونانيّ قد أعدّ قائمة طعامٍ خاصّة لهم، فاستأذن "رجب رئيس" من معلّمه قائلًا:

- أنا أحبّ الأبطال جدًّا، فدعني أتشرّف بتقديم الطعام لهم.

وبعـد أن أذِن لـه معلّمـه بذلـك؛ وضـع "رجـب رئيس" الطعـامَ أمام رئيس العصابة بأدبٍ شـديدٍ، ثمّ أخرج مسدّسًـا يخفيه تحت مئزرِه وأطلق الرصـاصَ عليهـم واحدً تلو الآخر، وتعالت صيحـات أندون مختلِطةً بما تلاهـا مـن صرخات رجاله، وأما من حاول الهرب فقد قُتل على يد رجال "رجـب رئيـس" الذين كانوا يضربـون طوقًا حول المطعم لمسـاندته، فلم يستطـع النجاة سوى اثنين أُصيبا بجروحٍ غائرة[١٦٠].

وقد شـنّ "رجب رئيس" بعد تلك الواقعة مباشـرةً هجمات مسـتمرّة متـردّدًا بيـن "بَيْكُـوزْ" و"صَارِييَـرْ"، فاسـتأصل شـأفةَ العصابـات اليونانية

(١٦٠) سليمان قزمز، رجب رئيس وأعوانه، مؤتمر أتاتورك الدولي الخامس، أنقره ٢٠٠٣م، ص ٢٢٢.

الموجـودة بالمنطقـة عصابـةً تلـو الأخرى، وفـرّ بعضٌ من هنـاك بعد أن أُصيبـوا بالخـوف والهلـع، وفي كل يـوم كانت تُضاف مهمّـة جديدةٌ إلى مهمّتـه، وعُهـد إليه بإرسـال السـلاح والذخيرة إلـى "إينَه بُولـو"، وأصبح رجب رئيس عضوًا موثوقًا به في منظّمة المقاومة.

بعـد أن قضـى "رجب رئيس" علـى العصابات، غادر هـو ورفاقه من المضيـق، وكان الإنجليـز والمخابرات اليونانيّة يبحثون عنه في كلّ مكان، فرحـل إلى "شِـيلَا"[١٦١] أولًا، ومـن هناك إلى "كفـكان"[١٦٢]، ثمّ انضمّ إلى صفوف حرب الاستقلال بعد أن أقام معسكرًا بـ "قره صو"[١٦٣]، ولمّا كان حجم مجموعته لا يكفي للقيام بأعمالٍ كبيرةٍ، طلبَ مساعدةً من أصدقائه بـ"ريزا"، حيث أرسلَ برقيّةً إلى أحد أصدقائه هناك أعربَ فيها:

- أيّهـا الشـيخ محمد أفندي، في حين يعتدي العـدوّ هنا على أموالنا وأرواحنـا، تتكئ أنـت على عصاك وتتجوّل في شـوارع "ريزا"، لا تضيّع الوقـت واجمـع رجال "ريزا"، وأرسـلهم إلى هنا بصحبـة "طوزجي زاده خالد آغا"[١٦٤].

الخبز والزيتون

صـدر العفـو من "أنقـره"، وأفرج عن لصوص سـجن "ريزا" شـريطة حُسن السير، وقد خضـع هؤلاء المفرج عنهم لتصرف رجب رئيس وذلك للقتال في سبيل الوطن، وكذلك فقد نُودي بالنفير:

(١٦١) مدينة سياحية تقع بالقرب من مدينة إسطنبول.

(١٦٢) قرية صغيرة تقع ضمن حدود محافظة قوجه ايلي.

(١٦٣) مدينة صغيرة تقع ضمن حدود محافظة سقريا في منطقة مرمرة شمال غرب تركيا.

(١٦٤) أركون هيجيلماز، رجب رئيس، إسطنبول ٢٠٠٥م، ص ٦٢.

- مـن أراد أن ينضم إلى مجموعة رجب رئيس فعليه تسـجيل اسـمه وإحضار سلاحه.

وقـد نجحـت تلك الجهود حيث انضمّ ما يزيد عن سـتّ مائة متطوّع إلـى صفـوف الفدائيين، جاؤوا بالسـفينة من "ريزا" إلـى "أماصرا"، وكانوا أينما ذهبوا يُرحِّب بهم القَرَويّون، ويقدموا لهم الطعام، وكان طعامهم خبزًا وزيتونًا، وملابسـهم قمصان وسـراويل فقط، واستقبل رجب رئيس رجاله فـي "آقجة كوجـه"، وعندما التقـى برجاله احتفلوا جميعًـا بذلك وأطلقوا الرصاص في الهواء بهجةً وسـرورًا، ثم تابعوا مسـيرَهم حتى وصلوا إلى "قَرَه صُو".

كان أهالـي "قـره صو" يوفّرون حاجةَ الفدائيّيـن من المأكل والمأوى، فتغلـي المراجـل فـي كلّ منزل، وعند المبيـت يُوزَّع رجـال المقاومة بين المنازل، كلّ بيت يُؤوي ثلاثة أو خمسة، وفي الأوقات التي كانوا يقومون فيها بتمشـيطِ الجبـال إمّا لأجل القتال أو لتأمين الجبهـة الداخلية كثيرًا ما يعانـون من نقص المـؤن والغذاء حتى أن رجب رئيس في إحدى المرّات صعـد على صخرةٍ، وأخـذَ العظام بيده، ونثر عليها الملح وبدأ يلعقها، ثمّ قال لرفاقه:

- انظروا إليّ وافعلوا مثلما أفعل.

وكانوا أحيانًا يُخرجون البطاطا من الأرض ويأكلونها(١٦٥).

(١٦٥) هيجيلماز، المصدر السابق، ص ٢٢٥.

الاستيلاء على الباخرة الروسيّة

ذات يوم وفي أثناء تواجدِهم في "قَره صو"، إذ نما إلى مسامع "رجب رئيس" خبرُ رسوِّ باخرةٍ روسيّة محمّلةٍ بأربع مائة طنّ من الشعير في "كفكان"، فدفع "رجب رئيس" فورًا بمجموعة صغيرة من الفِدائيّين إلى هناك، وسرعان ما استولى على الباخرة بعد قليلٍ من الصراع المسلّح، وقام بتقسيم الشعير على أهل القرية، وفي الغد ذهب بالباخرة نفسها إلى "شيلا"، ومن هناك عبر عن طريق البرّ إلى البسفور.

بينما كان "رجب رئيس" يعود إلى مقرّ قيادته بعد أن قام بتحفيز القرويّين وغرس الصبر والشجاعة في قلوبهم إذ به يرى سفينة يونانية تقوم بإفراغ حمولتها في موقع يسمي "كُوجُوكْآغِزْ"، فبادر "رجب رئيس" بالاستيلاء عليها، ثم جلبها إلى جزيرة "كفكان" وسلّمَ المؤنَ والذخيرة التي كانت على متنها إلى المسؤولين هناك(١٦٦).

الفدائيُّون يفترشون الأرض ويلتحفون السماء

كُلّفت جماعةُ "رجب رئيس" الفدائيّة بمهمّة منعِ القوّات اليونانيّة من المرور إلى شرق سقاريا، وعَزَمَ الفدائيّون على إخراج كتائب اليونان من "كاندرا"، فبدؤوا الغارات فورًا، وجشّم متطوّعو "رجب رئيس" العدوَّ خسائرَ فادحةً بفضل غاراتهم الليليّة من جزيرة "كفكان"، وشارك الجنودُ أيضًا في الهجوم الثاني، حيث تكبد العدوّ خسائر فادحةً في هذا الهجوم الذي يُشبه الغارة.

(١٦٦) إحسان برنجي، عصابة رجب رئيس، موسوعة تاريخ الحياة، إسطنبول ١٩٦٨م، المجلد الرابع، ص ١٠ و٧٣.

كان "إبسز رجب" في معاركه يتّخِذُ موقعَه -كعادته- في مقدّمة الفدائيّين، ويقتحم أكثر الأماكن خطورةً بلا أدنى تردّد، فلم يكُن يعرف معنى الخوف.

كان الهجوم الثالث في "وادي زفلر"، حيث قامت مجموعةٌ من الأبطال قوامُها ثمانمائة شخص بينهم خمسون ومائة جنديّ بعبورِ سقاريا بالقارب، وناموا الليل في الجبال ثمّ قاموا بالهجوم في عَماية الصبح، مع أن هذا الهجومَ المباغت لم يُسفِر عن تحرير "كاندرا" إلا أن المقاتلين قد حقّقوا بعضَ الانتصارات على أرض الواقع، وفي الليل دعا القرويون المحاربين إلى قضاء الليلة في بيوتهم إلا أنّ المقاتلين رفضوا هذا العرضَ بحجّة أنّ المقاتل لا يبيت على فرشٍ إلا إذا استدعته الضرورة والمصلحة لذلك.

في الأيام اللاحقة، ارتفع عدد المقاتلين ليصلَ إلى مائتين وألف شخص، ومرّةً أخرى هجموا على العدوّ بقيادة رجب رئيس، وتمّ تحرير كاندرا، وكذلك "أدابازار" بتلك الغارة الأخيرة.

تهنئة "مصطفى كمال باشا"

وحينما أُنشئت الجيوش النظاميّة في الأناضول، وبُنيت الإرادة الحقيقيّة لدى الشعب التركيّ في ضرورة تلقين الدرس للعدوّ؛ انضمّت المجموعات الفدائيّة غير المنظّمة إلى القيادة العامّة للجيش، حيث تمّ التخطيط للقتال بشكلٍ منظّم.

وافق "إبسز رجب رئيس" مِن دون تردّد على اقتراحِ "عاطف بك" قائد اللواء الثالث والعشرين بـ"كاندرا" الانضمامَ إلى القيادة المركزية،

فانضمّت مجموعته باسم كتيبة "قوجه إيلي الأول" إلى إمرةِ الفرقة الرابعة والثلاثين بـ"هَنْدَكْ"(١٦٧)، وعُيّن "رجب رئيس" قائدًا لقطاع المتطوّعين.

استمرّت خِدْمات "رجب رئيس" والمتطوعين في المنطقة حتى عام (١٩٢٣م)، وحينما وضعتِ الحربُ أوزارَها، دُعي رجب رئيس للذهاب إلى "أنقره" بدعوةٍ من "مصطفى كمال باشا" لمقابلته، وقد هنّأه "مصطفى كمال" لدى استقباله بخِدْمَاته العظيمة للوطن.

مكث "رجب رئيس" مدّةً في "ريزا"، ثمّ أمضى بقيّة عمره في "قره صو"؛ فاستقرّ أولًا بقرية "قيزلجق"، ثمّ بمكان على ساحل "نهر سقاريا" لحبّه الماء، وتمّ تخصيص منزلٍ وقطعة أرض له بأمر "مصطفى كمال باشا"، إلا أنّ رئيس اكتفى بستّ قطع من الأرض الممنوحة له، وقسّم ما تبقّى بين الناس.

وعندما أرادت الدولة أن تمنحه وسام الاستقلال مقابل بطولاته ونشاطاته في دحر أعدائه؛ رفض قائلًا:

- إننا حاربنا لتحرير وطننا واستردادِه من يدِ العدوّ الغاشم، ولم نحارب من أجل الأوسمة والنياشين.

لكن بعد وفاته مُنح وسام الاستقلال لزوجته، وكان قد تبرّع قبلَ مدّةٍ طويلة من وفاته بمعاشه الشهريّ البالغ خمسين ليرة للإنفاق على الفدائيّين.

---

(١٦٧) هندك: مدينة صغيرة تقع ضمن حدود محافظة سقاريا شمال غرب تركيا.

وفاة "رجب رئيس"

ذات يوم مرِض "رجب رئيس"، وأخبره الأطباء بأنه مصاب بمرض حمّى "تيفويد" وفارق الحياة على إثر إصابته بمرضٍ لازمه مدّةً يسيرةً في الحادي عشر من يونيو/حزيران عام (١٩٢٨م)، وهو في السبعين من عمره، ولم يترك شيئًا سوى ساعة، ودُفن في ضريح بجوار الجامع الكبير بـ "قره صو".

أحبّه الناس وتعلّقوا به لِخِدْماته الجليلة للوطن، حتى إنّهم أطلقوا اسم رجب على مئات الذكور من الأطفال المولودين في "قره صو" بالعامِ نفسه الذي مات فيه.





المراجع

خالوق دورسون، فن الحياة في إسطنبول، إسطنبول (١٩٩٩م).

Haluk Dursun. İstanbul'da Yaşama Sanatı. İstanbul 1999.

سهيل أنور، رسائل إسطنبول، المجلد الثاني، إسطنبول (١٩٩٥م).

Süheyl Ünver. İstanbul Risaleleri. c.2 İstanbul 1995.

فريدون دريمتكين، فتح إسطنبول، إسطنبول (١٩٧٦م).

Feridun Dirimtekin. İstanbul'un Fethi. İstanbul 1976.

تحسين أونال، النضال من أجل الفضائل في الدولة العثمانية، أنقرة (١٩٧٥م).

Tahsin Ünal. Osmanlı'da Fazilet Mücadelesi. Ankara 1975.

ضياء نور أقسون، التاريخ العثماني، إسطنبول (١٩٩٤م)، المجلد الأول والثاني والثالث.

Ziya Nur Aksun. Osmanlı Tarihi. İstanbul 1994. c.I-II-III.

محمد نيازى، فلسفة التاريخ التركي، إسطنبول (٢٠٠٨م).

Mehmet Niyazi. Türk Tarih Felsefesi. İstanbul 2008.

أ. د. / أحمد أوغور، السلطان ياووز سليم، قيصري (١٩٩٩م).

Prof. Dr. Ahmet Uğur. Yavuz Sultan Selim. Kayseri 1999.

صلاح اللدين طنسال، السلطان سليم الأول، أنقرة (١٩٦٩م).

Selahattin Tansel. Yavuz Sultan Selim. Ankara 1969.

يلماز أوزطونا، خواطر خير الدين بربروس، إسطنبول (١٩٨٩م).

Yılmaz Öztuna. Barbaros Hayreddin Paşa'nın Hatıraları. İst. 1989.

راغب شوقي ياشيم، " شخصية بربروس"، مجلة تاريخ الحياة، إسطنبول،

(١٩٦٩م).
R. Şevki Yeşim. "Barbaros'un Karakteri". Hayat Tarih Mec.. İst. 1969.
تحسين تونالي، آخر حروب القانوني، موسوعة تاريخ الحياة، إسطنبول (١٩٧٢م).
Tahsin Tunalı. "Kanunî'nin son seferleri". Hayat Tarih Mec.. İst. 1972.
بحري نويان، "معركة بريفيزا"، مجلة تاريخ الحياة، إسطنبول (١٩٦٩م)
Bahri Noyan. "Preveze Savaşı". Hayat Tarih Mecmuası. İst. 1969.
محمد زكي بقالين، قاموس المصطلحات التاريخية العثمانية، المجلد الثاني.
M. Zeki Pakalın. Osmanlı Tarih Deyimleri Sözlüğü c.II.
أ.د. عائشة عافت إينان، حياة بيري رئيس وأعماله، أنقرة (١٩٧٤م).
Prof. Dr. A. Afetinan. Pîrî Reis'in Hayatı ve Eserleri. Ankara 1974.
الندوة حول بيري رئيس، الإدارة العامة للخرائط، (١٩٨٣م).
Pîrî Reis Sempozyumu. Harita Genel Müdürlüğü. 1983.
جنكيز أورخنلو، القيادة البحرية في الهند وبيري رئيس، مجلة بلّتن (١٩٧٠م)
Cengiz Orhunlu. "Hint Kaptanlığı ve Pîrî Reis". Belleten 1970.
كاظم شيشان، معمار سنان وإنشاء الأربعين ينبوعًا، إسطنبول، (١٩٨٨م)، صفحة رقم ٣٤.
Kâzım Çeçen. Mimar Sinan ve Kırkçeşme Tesisleri. İst. 1988. s.34.
ساعي مصطفى شلبي، تذكرة البيان في لغتنا المعاصرة، إسطنبول (٢٠٠٢م).
Sâi Mustafa Çelebi. Günümüz Dilinde Tezkiretü'l Bünyan. İst. 2002.
تورغت جانسوار، معمار سنان، إسطنبول (٢٠٠٥م).
Turgut Cansever. Mimar Sinan. İstanbul 2005.
أنيس كورتان، مكانة معمار سنان في عمارة التركية والعالمية، إسطنبول.
Enis Kortan. "Mimar Sinan'ın Türk ve Dünya Mimârîsindeki Yeri". İst.
أندر بيلار، جامع السليمية و معمار سنان، أدرنة (١٩٩٤م).
Ender Bilar. Mimar Sinan ve Selimiye Camii. Edirne 1994.
نريمان كويلو أغلو، معمار سنان وجامع السليمية، أدرنة (١٩٩٤م).
Neriman Köylüoğlu. Mimar Sinan ve Selimiye Camii. Edirne 1994.
سميحة أيواردي "الأب البطل ونجله"، مجلة تاريخ العالم التركي، المجلد السادس.

S. Ayverdi. "Kahraman baba-oğul". Türk Dünyası Tarih Dergisi. c.6.

مصطفى جزار، التاريخ العثماني، المجلد الثالث، إسطنبول (١٩٦٠م).

Mustafa Cezar. Osmanlı Tarihi. C.3. İstanbul 1960.

اسماعيل حقي أوزون جارشيلي،التاريخ العثماني، المجلد الرابع، أنقرة (١٩٨٢م).

İ.H.Uzunçarşılı. Osmanlı Tarihi. C.4. Ankara 1982.

د. أرسين كورصوي، فتح كريت، إسطنبول (٢٠٠٤م).

Dr. Ersin Gürsoy. Girit'in Fethi. İstanbul 2004.

أورخان شائك كوكياي، كاتب شلبي، أنقرة (١٩٨٦م).

O. Şâik Gökyay. Kâtip Çelebi. Ankara 1986.

حورية ياكلاف، وكاتب شلبي وكتابه "سلم الوصول"، أنقرة (١٩٩٦م).

Huriye Yeklef. Kâtip Çelebi ve Süllemü'l Vusûl'u. Ankara 1996.

أ.د. حميد سعيد سلن، كاتب شلبي- كتابه الشهير "جيهان نما"، مجمع التاريخ التركي، أنقرة، (١٩٨٥م).

Prof. Dr. Hamit S. Selen. Kâtip Çelebi- Cihannüma. TTK. Ank. 1985.

أورخان شائك كوكياي، مقتطفات عن كاتب شلبي، إسطنبول (١٩٦٨م).

O. Şâik Gökyay. Kâtip Çelebi'den Seçmeler. İstanbul 1968.

رشاد أكرم كوتشو، موسوعة إسطنبول، المجلد السابع.

R.Ekrem Koçu. İstanbul Ansiklopedisi. c.7.

أ.د. متين هولاكو، المشير المصاب، إسطنبول (٢٠٠٦م).

Prof. Dr. Metin Hülâgu. Yaralı Mareşal. İstanbul 2006.

إبراهيم أدهم ، ذكريات بلفن، إسطنبول (١٩٧٩م).

İbrahim Edhem. Plevne Hatıraları. İstanbul 1979.

ظهوري ضانشمان، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، إسطنبول (١٩٦٤م).

Zuhuri Danışman. Osmanlı İmp. Tarihi. İstanbul 1964.

إسماعيل حامي ضانشمند، تقسيم فترات التاريخ الإسلامي الواضح، إسطنبول (١٩٦٧م)، مجلد٤.

İ. Hami Danişmend. İzahlı İslâm Tarihi Kronolojisi. İst. 1967. c.4.

تولاي دوران، ذكرى النصر في معركة "جناق قلعه" البحرية، مجلة تاريخ التركي بالوثائق، إسطنبول (٢٠٠٠م).

Tülay Duran, "Çanakkale Deniz Zaferinin Yıldönümü", Belgelerle Türk Tarihi Dergisi. İstanbul 2000.

تورخان ستشر، جناق قلعه الأسطورية، إسطنبول (٢٠٠٥م).

Turhan Seçer. Destanlaşan Çanakkale. İstanbul 2005.

محمد نيازي، معركة جناق قلعة الرهيبة، إسطنبول (٢٠٠٤م).

Mehmet Niyazi. Çanakkale Mahşeri. İstanbul 2004.

جان ألبجونج، "خواطر من حياة الأسلاف العثمانيين"، إسطنبول (٢٠٠٧م).

Can Alpgüvenç. Osmanlı Büyüklerinden Hatıralar. İstanbul 2007.

سليمان كازماز، رجب رئيس وأعوانه، مؤتمر أتاتورك الدولي الخامس، المقام في (٢-١٢) ديسمبر (٢٠٠٣م)

S.Kazmaz. "İpsiz Recep ve arkadaşları". V. Uluslararası Atatürk Kongresi. 8-12 Aralık 2003.

أركون هيج يلماز، ابسز رجب، إسطنبول (٢٠٠٥م).

Ergun Hiçyılmaz. İpsiz Recep. İstanbul 2005.

إحسان برنجي، "فرقة إبسز رجب" مجلة تاريخ الحياة، إسطنبول (١٩٦٨م).

İhsan Birinci. "İpsiz Recep Çetesi". Hayat Tarih Mecmuası. İst.1968.

أ.م.د. يشار آق بيق، الجبهة الجنوبية في حرب الاستقلال "مرعش" أنقرة (١٩٩٠م).

Yrd. Doç. Dr. Yaşar Akbıyık. Millî Mücadele'de Güney Cephesi (Maraş). Ankara 1990.

عادل بغدادلر، قسطموني، إسطنبول (١٩٧٤م).

Âdil Bağdatlılar. Uzunoluk. İstanbul 1974.

مراد سرت أوغلو، أسطورة مرعش، جريدة المترجم، ١٩ مارس (١٩٧٠م).

Murat Sertoğlu. "Kahraman Maraş'ın Destanı". Tercüman Gazetesi. 19 Mart 1970.

حسن رشيد طانكوت، في طرقات مرعش، أنقرة (١٩٤٤م).

H. Reşit Tankut. Maraş Yollarında. Ankara 1944.

خلوصي يتكين، شـاهين بك شـهيد وحامـل راية القوميـة التركية في غازي عنتب، غازي عنتب (١٩٧٠م).

Hulusi Yetkin. Gaziantep Türkçülüğünün bayrak şehidi Şahin Bey. Gaziantep 1970.

